النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

السّاعَات









Agatha Christie



The Clocks

السَّاعَات

فجأة انفتح باب المنزل رقم ١٩ وخرجت منه فتاة تركض كأنها انفجار قنبلة!

اصطدمت بي بقوة كادت تطرحني على الرصيف، وتشبّثت بي يائسة مرعوبة، فقلت لها وأنا أستعيد توازني وأهزّها بلطف: تمالكي نفسك، تمالكي نفسك.

توقفت الفتاة عن الصراخ، وأخذت تشهق شهيقاً مصحوباً بنشيج عميق. ثم قالت: هناك... في الداخل... هنالك رجل على الأرض... ميت... وقد كادت تدوس عليه!



هيركيول بوارو

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!







رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم





ISBN 2-1957-2725-8

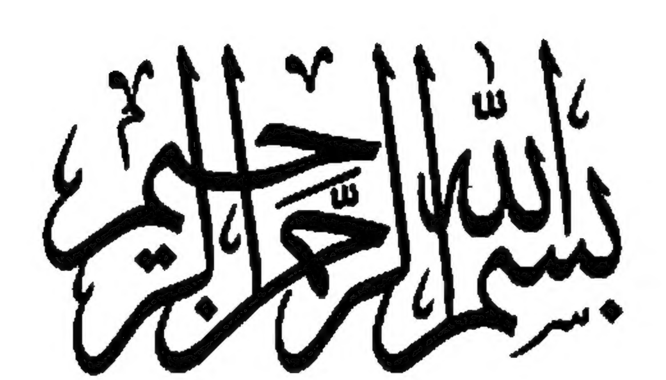


US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً

أغاثا كريستي

السَّاعَات





السَّاعَات

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٦٣

ترجمة: عبد الرزاق الطّائي

مراجعة الترجمة: حفظي النّاجي

تحرير: رمزي رامز حسّون



هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٦٣ بعنوان

The Clocks

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

التوزيع في دول الخليج العربي
Pioneer House

دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٦٦٩٤٢ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤
قطر ٤٨٦٢١٢١ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

تمهيد

كان عصر التاسع من أيلول (سبتمبر) كعصر أي يوم آخر، ولم يكن بوسع أيّ من المَعنيين بأحداث ذلك اليوم ادّعاء التنبؤ بكارثة وشيكة.

في مؤسسة كافنديش للسكرتارية والطباعة كان التاسع من أيلول بالنسبة للآنسة مارتنديل مديرة المؤسسة يوماً روتينياً كئيباً؛ فقد كان جرس الهاتف يرنّ وآلات الطباعة تدقّ وزخم العمل بمعدله المألوف، لا هو أعلى ولا هو أدنى من حجمه الاعتيادي، ولا شيء منه كان ممتعاً بشكل خاص. وحتى الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة كان من الممكن أن يبقى التاسع من أيلول يوماً كسائر الأيام.

في الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة ضغطت الآنسة مارتنديل زرّ المنبه، فأجابت إدنا برِنْت في المكتب المجاور بصوتها الحاد وأنفاسها المسموعة وهي تلوك قطعة حلوى قائلة: نعم يا آنسة مارتنديل؟

- إدنا، ليست هذه هي الطريقة التي أمرتك بالتحدث بها عندما تردّين على الهاتف، اكتمي أنفاسك وتلفّظي بوضوح.

- أنا آسفة يا آنسة مارتنديل.

- هذا أفضل، يمكنك أن تفعلي ذلك عندما تحاولين. أرسلي إليّ شيلا ويب.

- لم تَعُد من الغداء بعد يا آنسة مارتنديل.

ألقت الآنسة مارتنديل نظرة فاحصة على ساعة مكتبها التي كانت تشير إلى الثانية وست وثلاثين دقيقة؛ لقد تأخرت شيلا ست دقائق بالضبط، لقد أصبحت شيلا ويب مهملة مؤخراً. قالت: أرسليها إليّ عندما تأتي.

- حسناً يا آنسة مارتنديل.

استعادت إدنا قطعة الحلوى إلى وسط لسانها وأخذت تمتصها باستمتاع، ثم استأنفت الطباعة. فُتح الباب بعد قليل ودخلت شيلا ويب وهي تلهث قليلاً، فبادرتها إدنا قائلة: ساندي كات تسأل عنك.

تجهّم وجه شيلا ويب وقالت: يا لحظي العاثر! تسأل عني في اليوم الوحيد الذي أتأخر فيه.

رتّبت شعرها والتقطت ورقة وقلماً ثم طرقت باب المديرة، فرفعت الآنسة مارتنديل عينيها من فوق مكتبها. كانت امرأة تجاوزت الأربعين مفعَمة بالنشاط، وقد تسببت تسريحة شعرها ذي الحمرة الباهتة في إطلاق لقب «ساندي» عليها. قالت: لقد عدتِ متأخرة يا آنسة ويب؟

- آسفة يا آنسة مارتنديل، هذا بسبب أزمة المرور.

- توجد أزمة مرور دائماً في مثل هذا الوقت من النهار؛ يجب أن تأخذي ذلك في حسبانك.

ثم راجعت ملحوظة على ورقة أمامها وقالت: لقد اتصلت سيدة اسمها الآنسة ببمارش تريد كاتبة اختزال في الساعة الثالثة، وقد طلبَتك أنت بالذات. تُرى هل عملتِ لها سابقاً؟

- لا أتذكر أني فعلت ذلك يا آنسة مارتنديل، ليس في الآونة الأخيرة.

- العنوان هو المنزل رقم ١٩ في وِلْبراهام كرِسنْت (هِلال وِلْبراهام).

وتوقفت عن الكلام متسائلة، لكن شيلا ويب هزت رأسها بالنفي قائلة: لا أتذكر أنني ذهبت إلى هناك.

ألقت الآنسة مارتنديل نظرة على الساعة ثم قالت: الموعد في الساعة الثالثة، يمكنك تدبر ذلك بسهولة. هل لديك أية مواعيد أخرى عصر اليوم؟ آه، نعم.

انزلق بصرها فوق كراسة المواعيد القريبة منها وأردفت قائلة: البروفيسور بوردي في فندق كرليو في الساعة الخامسة، عليك أن تعودي قبل ذلك، وإلا فيمكنني أن أرسل جانيت.

ثم أومأت لها بالانصراف، فعادت شيلا إلى المكتب الخارجي حيث سألتها زميلتها: هل من شيء مهم يا شيلا؟

- لا، يوم كئيب آخر؛ عجوز في هِلال ولبراهام، وفي الخامسة البروفيسور بوردي... يا لهذه الأسماء الأثرية المَقيتة! أحياناً أتمنى أن يحدث شيء مثير.

فُتح باب الآنسة مارتنديل وقالت: لقد رأيت ملاحظة عندي هنا يا شيلا؛ إذا لم تكن الآنسة ببمارش قد عادت حين تصلين

فعليك أن تدخلي، فالباب لن يكون مقفَلاً. ادخلي وتوجهي إلى الغرفة التي على يمين البهو وانتظري. هل يمكنك تذكّر ذلك أم أكتبه لك؟

- يمكنني تذكره يا آنسة مارتنديل.

عادت الآنسة مارتنديل إلى مكتبها الخاص، في حين بحثت إدنا برنت تحت كرسيها خلسة فأخرجت حذاء صارخ اللون وكعباً عالياً مدبباً كان قد انفصل عنه وقالت بمرارة: كيف يمكنني العودة إلى البيت؟

فردّت عليها إحدى الفتيات قائلة قبل أن تستأنف طباعتها: كُفّي عن الشكوى، سنفكر في حل للموضوع.

تنهدت إدنا وراحت تكتب في ورقة جديدة، أما شيلا فقد التقطت حقيبتها اليدوية وخرجت.

* * *

كان «هلال ولبراهام» (وِلْبراهام كرِسَنْت) حلماً معمارياً أنجزه معماري فكتوري في ثمانينيات القرن التاسع عشر؛ لقد بُني على هيئة هلال مؤلَّف من أزواج بيوت وحدائق بُنِيَت ظَهراً لظهر. كانت هذه النزوة مصدر صعوبة بالغة بالنسبة للذين لم يألفوا المكان، فالذين يصلون من الجانب الخارجي لم يكن بمقدورهم العثور على البيوت ذات الأرقام الصغرى، أما الذين يصلون من الجانب الداخلي أولاً فقد كانوا يحارون بشأن مواضع البيوت ذات الأرقام العليا.

كانت البيوت أنيقة وشرفاتها فنية وتوحي بالاحترام، أما الحداثة فقد كانت لها لمساتها في باكورتها، فأول ما طالته يد التغيير

كان من الخارج حيث بدأ بالمطابخ وغرف الحمامات.

ما من شيء بدا غير مألوف فيما يخص المنزل رقم ١٩ ؛ كانت ستائره أنيقة ومقبض بابه الأمامي النحاسي الأصفر لامعاً وعلى جانبَي الممر المؤدي إلى بابه الأمامي أشجار ورد نموذجية.

فتحت شيلا البوّابة الأمامية ومشت إلى الباب الأمامي حيث قرعت الجرس فلم يأتها رَدّ، وبعد أن انتظرت دقيقة أو اثنتين عملت بموجب أوامرها وأدارت المقبض فانفتح الباب ودخلت. كان الباب على يمين البهو موارَباً فطرقته بلطف وانتظرت لحظة، ثم دخلت إلى الغرفة. كانت غرفة جلوس عادية لطيفة جداً مع قليل من المبالغة في التأثيث بالنسبة للذوق الحديث، وكان الشيء الوحيد اللافت للنظر هو كثرة الساعات؛ ففي زاوية الحجرة كانت ساعة كبيرة تُصدر عقاربها صوتاً، وعلى رف المدفأة ساعة من الخزف، وأخرى فضية على المنضدة، وساعة مطلية بالذهب مزخرَفة على رف صغير قرب المدفأة، وأخرى على طاولة مجاورة للنافذة، وساعة سفر بجلد مهترئ وعلى زاويتها كُتب اسم «روزماري» بأحرف ذهبية باهتة.

نظرت شيلا إلى الساعة التي وُضعت على المنضدة بشيء من الاستغراب؛ فقد كانت تشير إلى ما بعد الرابعة وعشر دقائق بقليل. ثم تحوّل بصرها ناحية المدفأة فوجدت الساعة هناك تشير إلى الوقت ذاته!

ارتجفت شيلا بقوة حينما سمعت هديراً ثم دقّة فوق رأسها! ومن ساعة نُحِتت من الخشب معلَّقة على الحائط خرج عصفور خشبي من بابه الصغير وأعلن بصوت عالٍ: كوكو، كوكو، كوكو...

كانت هذه النغمة القاسية مزعجة إلى حد ما. ثم اختفى

العصفور ثانية مع صوت انغلاق بابه فبدا شبح ابتسامة على وجه شيلا. سارت حول طرف الأريكة ثم توقفت وتسمرت في مكانها متنفضة؛ كانت هنالك جثة رجل ممدَّدة على الأرض وعيناه نصف مفتوحتين، ولاحظت شيلا وجود بقعة ندية على مقدمة بدلته الرمادية الغامقة، وبصورة تلقائية تقريباً انحنت ولمست خده فوجدته بارداً، ثم لمست يده فوجدتها باردة أيضاً، ثم لمست البقعة الرطبة فسحبت يدها بشدة وهي تحملق إليها بهلع!

في تلك اللحظة سمعت البوابة الخارجية تُفتَح، فأدارت رأسها تلقائياً نحو النافذة فشاهدت من خلالها هيئة امرأة مسرعة بالدخول إلى الممر. ابتلعت شيلا ريقها تلقائياً حيث كان حلقها جافاً وقد تسمرت في مكانها غيرَ قادرة على الحراك أو الصراخ محدّقة أمامها.

فُتح الباب ودخلت امرأة طويلة القامة متقدمة في السن تحمل كيساً من أكياس التسوّق. كان شعرها رمادياً متموّجاً مسحوباً إلى الوراء وكانت عيناها واسعتين زرقاوين جميلتين، مرّت نظرتها وكأنها لم تلحظ شيلا، ولكنْ بدر عن شيلا صوت واهن لا يزيد عن مجرد حشرجة فاتجهت العينان الزرقاوان الواسعتان نحوها وقالت المرأة بحدّة: مَن هنا؟

- أنا. إنها...

وسكتت الفتاة فجأة عندما جاءتها المرأة مسرعة من وراء الأريكة، ثم صرخت قائلة بفزع: توقفي، توقفي... ستدوسين عليها... عليه، إنه ميت!

* * *

الفصل الأول

(برواية كولِنْ لامْب)

لكي أستخدم مصطلحات الشرطة أقول إنه في الساعة ٢:٥٩ من بعد ظهر يوم التاسع من أيلول (سبتمبر) كنت أسير غرباً في هلال ولبراهام، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أزور فيها هذا الشارع، وبصراحة فقد حيّرني كثيراً؛ فقد كنت أتبع حدساً وكان إصراري على اتّباعه يزداد عناداً في حين بدا الحدس بعيداً عن التحقيق.

كان الرقم الذي أنشده هو ٦١، ولكن تُرى هل استطعت أن أجده؟ لا، لم أستطع. وبعد أن تتبعت الأرقام من ١ إلى ٣٥ بدا لي أن الشارع قد بلغ نهايته، حيث اعترض سبيلي طريقٌ عام تشير إليه لافتة تحمل اسم شارع ألباني، فقفلت راجعاً. لم تكن على الجانب الشمالي أية بيوت بل جدار فحسب، وخلف الجدار مَبانٍ مؤلفة من شقق حديثة كانت تشقّ عنان السماء، وكان واضحاً أن مدخلها يقع في طريق آخر؛ لا فائدة تُرجى هناك.

رفعت بصري نحو الأرقام التي كنت أمرّ بها: ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١، ديانا لودْج (يُفترض أن يكون رقم ٢٠، وعلى عمود بوابته جلس هر برتقالي اللون يغسل وجهه)، ١٩...

فجأة فُتح باب المنزل رقم ١٩ وخرجت منه فتاة تركض من

الممر بسرعة تضاهي سرعة انفجار قنبلة! وتعزّز الشبه بينها وبين القنبلة بالصراخ الذي رافق اندفاعها والذي كان عالياً وحاداً لا يشبه صوت بشر! ومن خلال البوّابة أقبلت الفتاة تجري لتصطدم بي بقوة كادت تطرحني على الرصيف. لم تصطدم بي فحسب، بل تشبثت بي يائسة مرعوبة، فقلت لها وأنا أستعيد توازني وأهزّها بلطف: تمالكي نفسك، تمالكي نفسك الآن.

تمالكت الفتاة نفسها وتوقفت عن الصراخ في حين كانت ما تزال متشبثة بي، وبدلاً من الصراخ أخذت تشهق شهيقاً مصحوباً بنشيج عميق. لا يمكنني القول بأن استجابتي للموقف كانت متميزة؛ لقد سألتها عمّا جرى، وعندما أدركتُ أن سؤالي كان ضعيفاً في صياغته قمتُ بتعديله فقلت: ما المشكلة؟

استنشقت الفتاة نفَساً عميقاً وقالت: هناك، في الداخل!

وأشارت خلفها فقلت: ماذا هناك؟

- على الأرض رجل ... ميت... وقد كادت تدوس عليه.

- من التي كانت تدوس عليه؟ ولماذا؟

- أظنها كفيفة... يوجد عليه دم!

نظرَت إلى الأسفل وأرخت إحدى يديها المنقبضتين، وأردفت قائلة: وعليّ أيضاً... يوجد دم عليّ أنا!

فقلت لها: يوجد دم بالفعل.

ونظرتُ إلى البقع على أكمام سترتي فقلت لها موضحاً: وعليّ أنا الآن أيضاً.

تنهدتُ وفكرتُ في الموقف وقلت لها: من الأفضل أن

تأخذيني إلى الداخل وتُريني.

ولكنها بدأت ترتجف بعنف قائلة: لا أستطيع، لا أستطيع... لن أدخل هناك مرة أخرى.

- ربما كنتِ مُحقّة.

تلفّتُّ حولي فلم أجد مكاناً مناسباً لترك فتاة نصف منهارة فيه، فأقعدتها برفق على الرصيف وجعلتها تسند ظهرها إلى قضبان السياج الحديدية وقلت لها: ستكونين بخير هنا حتى أعود، ولن أتأخر. انحني إلى الأمام وضعي رأسك بين ركبتيك إذا شعرت بغثيان.

- أظن... أظن أنني بخير الآن.

كانت غير واثقة مما تقول، ولكني تحاشيت مناقشتها وقمت بالتربيت على كتفها لكي أطمئنها، ثم انطلقت بخطوات سريعة عبر الممر فدخلت من الباب، وتردّدت لحظة في ممر البهو، ثم نظرت من خلال بابٍ على اليسار فألفيت غرفة طعام خالية، واجتزتُ البهو ثم دخلتُ غرفة الجلوس المقابلة.

كان أول ما رأيت امرأة كبيرة السن ذات شعر رمادي جالسة في كرسي، وقد أدارت رأسها بحدّة لدى دخولي وقالت: مَن؟ فأدركت على الفور أن المرأة كانت كَفيفة، وكانت عيناها تنظران نحوي وتركزان على موضع خلف أذني اليسرى. طرقت الموضوع مباشرة قائلاً: لقد اندفعَت امرأة شابة تجري نحو الشارع وهي تتحدث عن وجود رجل ميت هنا.

شعرتُ بشيء من السخافة عندما تفوهتُ بهذه الكلمات، إذ لم يَبدُ ممكناً وجود رجل ميت في تلك الغرفة المرتبة مع هذه السيدة

الوديعة الجالسة في كرسيها ويداها متشابكتان، غير أن ردها جاء سريعاً. قالت: إنه خلف الأريكة.

درتُ حول زاوية الأريكة، وعندئذ شاهدت الذراعين المفتوحتين والعينين الجامدتين وبقعة الدم المتجلّط! تساءلتُ فجأة: كيف حدث هذا؟

- لا أدري.

- ولكن... من يكون؟

- ليست لديّ أية فكرة.

- يجب علينا الاتصال بالشرطة.

تلفّتُّ حولي وقلت: أين الهاتف؟

- ليس لديّ هاتف.

ركزت عينَي عليها عن كثب وسألتُها: أتسكنين هنا؟ هل هذا بيتك؟

- نعم.

- هل يمكنك أن تقصّي علي ما حدث؟

- بالتأكيد. عدتُ من السوق ودخلت هنا فأدركت على الفور وجود شخص ما في الغرفة؛ فمن السهل على الشخص أن يدرك الأشياء عندما يكون كفيفاً. فسألت عمّن يكون هناك، ولكنْ لم يَرُدّ أحد ولم أسمع سوى صوت شخص يتنفس بسرعة. اتجهت ناحية الصوت عندئذ، أياً كان الشخص، فصاح قائلاً شيئاً عن شخص ميّت وبأني كنت على وشك أن أطأه بقدمي، ثم اندفع ذلك

الشخص من أمامي خارجاً من الباب وهو يصرخ.

أومأتُ برأسي بعد أن تأكدتُ من تطابق روايتيهما، ثم سألتُها: وماذا فعلتِ؟

- تحسست طريقي بحذر شديد إلى أن لامست قدماي عائقاً.

- وماذا بعد؟

- انحنيت ولمست شيئاً، كف رجل. كانت باردة ولم يكن بها نبض، فنهضت وجئت هنا وجلست لأنتظر، حيث إن شخصاً ما سيأتي لاحقاً. تلك الشابة، أياً كانت، ستبلّغ أحداً بلا شك، لذلك رأيت أنه من الأجدر بي أن لا أغادر المنزل.

يا لهدوء تلك السيدة! لم تصرخ ولم تَجرِ خارج البيت متعثّرة مصابة بالهلع، بل جلست تنتظر بهدوء. وجاء صوتها متسائلاً تقول: من أنت بالضبط؟

- اسمي كولِنْ لامْب، وقد تصادف أن كنتُ مارّاً.

- وأين المرأة الشابة؟

- تركتها جالسة على الرصيف وهي تعاني من الصدمة. أين أجد أقرب هاتف؟

- يوجد كُشْك هاتف يبعد نحو خمسين متراً عند نهاية الطريق قبل أن تصل الزاوية.

- أجل، أتذكر أنني مررت به؛ سأذهب وأتصل بالشرطة. هل...

وترددتُ حائراً بين أن أقول: "هل ستبقين هنا؟" وأن أقول: "هل ستكونين بخير؟"، فأراحتني من حيرتي بين الأمرين قائلة بحزم: خير لك أن تأتي بالفتاة داخل البيت.

فقلت مشككاً: لا أدري إن كانت ستأتي.

- ليس في هذه الغرفة طبعاً. أدخِلها إلى غرفة الطعام على الجانب الآخر من البهو وأخبرها بأني سأُعِدّ بعض الشاي.

ونهضَت متجهة نحوي فقلت: ولكن هل يمكنكِ أن تتدبري...

لاحت على وجهها ابتسامة صارمة للحظة وقالت: أيها الرجل الشاب العزيز، لطالما قمت بإعداد الوجبات لنفسي في مطبخي منذ أن جئت للعيش هنا في هذا البيت قبل أربعة عشر عاماً. أن تكون كفيفاً لا يعني بالضرورة أن تكون عاجزاً.

- أنا آسف؛ كانت تلك حماقة مني. هل لي أن أعرف اسمك؟

- الآنسة ميليسنت بِبْمارْش.

خرجتُ وسرت حتى نهاية الممر، فرفعَت الفتاة بصرها نحوي وراحت تحاول الوقوف على قدميها قائلة: أنا... أعتقد أنني الآن بخير إلى حد ما.

فساعدتها على النهوض قائلاً بسرور: حسناً.

- في الداخل... في الداخل رجل ميت، أليس كذلك؟

وافقتها في الحال قائلاً: بالتأكيد، في الداخل جثة بالفعل. أنا ذاهب من فوري إلى كشك الهاتف لأبلغ الشرطة عن ذلك، ولو كنت مكانك لانتظرتُ داخل البيت.

ثم رفعتُ صوتي لأغطي على احتجاجها السريع قائلاً: اذهبي إلى غرفة الطعام إلى اليسار عندما تدخلين... الآنسة ببمارش تُعدّ لك كوباً من الشاي.

- إذن فتلك هي الآنسة ببمارش؟ إنها كفيفة، أليس كذلك؟

- بلى. لقد كانت صدمة لها هي الأخرى بطبيعة الحال، لكنها متعقّلة. هيا بنا، سآخذك إلى الداخل. كوب من الشاي سينفعك خلال انتظارك وصول الشرطة.

وضعت ذراعي حول كتفيها ودفعتها خلال الممر وأجلستها بجوار طاولة الطعام، ثم خرجتُ مسرعاً لأتصل هاتفياً.

* * *

أجابني صوت خامل قائلاً: هنا مركز شرطة كراودن.

- هل يمكنني التحدث إلى المفتش هاردكاسل؟

ردّ الصوت بحذر قائلاً: لا أدري إن كان موجوداً هنا. من المتكلم؟

- أخبره أن كولِنْ لامْب يريد أن يتحدث إليه.

- لحظة واحدة رجاء.

انتظرتُ حتى جاء صوت ديك هاردكاسل قائلاً: كولن؟ لم أكن أتوقعك. أين أنت؟

- في كراودن، أنا في الحقيقة في هلال ولبراهام. يوجد رجل ميت في المنزل رقم ١٩ في هذا الشارع... مطعون كما أظن. لقد فارق الحياة منذ نحو نصف ساعة.

- من الذي وجده؟ أنت؟

- لا، لقد كنت عابر سبيل بريئاً، وفجأة جاءت فتاة تجري هاربة من البيت وكأنها خفاش هارب من الجحيم! كادت أن تطرحني أرضاً وقالت إن رجلاً ميتاً مسجى على الأرض وإن امرأة كفيفة كانت على وشك أن تطأه.

- ليست هذه لعبة منك، أليس كذلك؟

كان سؤال ديك مرتاباً فقلت: أُقرّ بأن الأمر يبدو من نسج الخيال حقاً، لكن الحقائق كما ذكرت لك. المرأة الكفيفة هي الآنسة ميليسنت بيمارش وهي مالكة البيت.

- وهل كانت تدوس على الرجل الميت؟

- ليس بالمعنى الذي تقصده. يبدو أنها لم تكن تعلم بوجوده هناك لأنها كفيفة.

- سأقوم باستدعاء فريق العمل، انتظرني هناك. ماذا فعلتَ بالفتاة؟

- تُعِدّ لها الآنسة بيمارش كوباً من الشاي.

علّق ديك قائلاً: تبدو المسألة مسلّية.

* * *

الفصل الثاني

كانت آلة القانون منهمكة في عملها في البيت رقم ١٩ ؛ فقد كان هناك الطبيب الشرعي ومصوّر الشرطة وخبراء البصمات يعملون بجد كل حسب اختصاصه، وأخيراً وصل مفتش المباحث هاردكاسل. كان رجلاً طويل القامة كتوم الملامح ذا حاجبَين معبّرَين ولوجهه قسمات بريئة. جاء ليرى ما إذا كان الفريق يؤدي عمله كما ينبغي، فألقى نظرة على الجثة وتبادل بضع كلمات مختصَرة مع الطبيب، ثم اجتاز المكان باتجاه غرفة الطعام حيث يجلس ثلاثة أشخاص أمامهم أكواب شاي فارغة: الآنسة بيمارش وكولن لامب وفتاة فارعة الطول ذات شعر داكن مجعَّد وعينين واسعتين مرعوبتين.

قدّم المفتش نفسه إلى الآنسة بيمارش قائلاً: مفتش المباحث هاردكاسل.

كان يعرف القليل عن الآنسة بيمارش، مع أنهما لم يلتقيا مهنياً قط، لكنه رآها في الأرجاء وكان يعلم أنها معلمة سابقة وأنها تعمل عملاً له صلة بتعليم طريقة برايل في معهد آرونبرغ للأطفال العميان، والعثور على رجل مقتول في بيتها الأنيق البسيط كان يبدو مستبعَداً جداً، إلا أن ما هو غير متوقَّع يحدث في هذه الدنيا بأكثر مما يمكن تصديقه.

قال هاردكاسل: من الفظاعة أن يحدث هذا الشيء يا آنسة ببمارش، وأخشى أن يكون الأمر قد تسبب في صدمة كبيرة لك. سأكون بحاجة إلى بيانات واضحة منكم جميعاً عما حدث، وأعلم أن الآنسة...

ألقى نظرة خاطفة على دفتر الملاحظات الذي ناوله إياه الشرطي ثم استأنف كلامه قائلاً: الآنسة شيلا ويب هي التي اكتشفت الجثة في الواقع، وإذا سمحتِ لي يا آنسة ببمارش باستخدام مطبخك فسأصطحب الآنسة ويب إلى هناك حيث الهدوء.

ثم فتح الباب الموصل بين غرفة الطعام والمطبخ وانتظر حتى دخلت الفتاة. كان رجل تحريات بسيط الهندام جالساً في المطبخ يكتب في خلوة على طاولة من الخشب، فقال هاردكاسل وهو يسحب أحد الكراسي: يبدو هذا الكرسي مريحاً.

جلست شيلا ويب متوترة تحدق إليه بعينين خائفتين اتّسعت حدقتاهما، وأوشك هاردكاسل أن يقول: "لن افترسك يا عزيزتي"! لكنه كبح جماح نفسه وقال بدلاً من ذلك: لا يوجد ما يبعث على القلق؛ نحن نريد الحصول على صورة واضحة فحسب. حسناً، اسمك هو شيلا ويب، فما عنوانك؟

- ١٤ شارع بالمرستون، بعد محطة الوقود.

- وأنت موظفة كما أعتقد، أليس كذلك؟

- بلى، أنا طابعة اختزال وأعمل في مؤسسة كافنديش للسكرتارية.

- مؤسسة كافنديش للطباعة والسكرتارية؟ هذا هو الاسم الكامل، أليس كذلك؟

- بلى.

- منذ متى تعملين هناك؟

- منذ نحو عام... أو عشرة أشهر في الواقع.

- حسناً، والآن أخبريني بتعبيرك الخاص: كيف اتفق أن تكوني موجودة في المنزل رقم ١٩ في هذا الشارع هذا اليوم؟

- حسناً، الموضوع كالآتي...

صارت شيلا ويب في ذلك الوقت تتكلم بثقة أكبر فقالت: الآنسة بيمارش اتصلت بالمكتب هاتفياً وطلبت كاتبة اختزال لتأتيها هنا عند الساعة الثالثة، وهكذا فعند عودتي من الغداء طلبَت الآنسة مارتنديل مني أن أذهب.

- أهذا هو الأسلوب المتَّبَع؟ أعني هل كنتِ التالية على القائمة أم أنه أسلوبكم في ترتيب هذه الأمور؟

- ليس تماماً؛ الآنسة بيمارش طلبتني بالتحديد.

ارتفع حاجبا هاردكاسل حين التقط عقله هذه النقطة، ثم سألها: فهمت، هل هذا لأنك عملت معها سابقاً؟

أجابت شيلا بسرعة: لا، أنا لم أفعل.

- لم تفعلي؟! هل أنت متأكدة من ذلك تماماً؟

- نعم، متأكدة، أعني أنها ليست من النوع الذي ينساه المرء.

كان هذا هو الغريب في الأمر، فقال هاردكاسل: حسناً، لن نخوض في ذلك الآن. متى وصلتِ إلى هنا؟

- لا بد أن ذلك كان قُبيل الثالثة تماماً، لأن الساعة المغرِّدة...

ثم اتسعت عيناها دهشة وهي تكمل قائلة: يا للغرابة، يا لشدة الغرابة! أنا لم أنتبه لهذا الأمر عندها.

- ما الذي لم تنتبهي له يا آنسة ويب؟

- تلك الساعات!

- ماذا عنها؟

- لقد دقت الساعة المغردة الثالثة تماماً، ولكن كل الساعات الباقية كانت متقدمة بأكثر من ساعة. يا للغرابة الشديدة!

وافقها المفتش قائلاً: غريب جداً بالتأكيد. والآن، متى لاحظتِ الجثة للمرة الأولى؟

- ليس قبل أن أستدير خلف الأريكة، وهناك كانت. يا له من شيء فظيع! نعم، فظيع!

- فظيع، أشاطرك الرأي، ولكن هل عرفت الرجل؟ هل حدث أن قابلتِهِ من قبل؟

- آه، لا.

- هل أنت متأكدة من ذلك تماماً؟ أعني أنه ربما بدا لك مختلفاً عما كان يبدو عليه في العادة كما تعلمين. فكّري جيداً، هل أنت واثقة تماماً من أنه شخص لم تشاهديه من قبل قط؟

- أنا متأكدة تماماً.

- حسناً، هذا نهاية الأمر، ثم ماذا فعلت؟

- أنا؟

- نعم.

- لا شيء، لا شيء إطلاقاً؛ ما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً.

- ألم تلمسيه مثلاً؟

- بلى، لقد لمسته لكي أرى ما إذا... أعني... فقط لكي أرى... ولكنه كان بارداً تماماً، و... وتلطخت يداي بالدم. لقد كان فظيعاً؛ كان كثيفاً ولزجاً!

وأخذت ترتعد فقال هاردكاسل برقّة: لا بأس، لا بأس؛ لقد انتهى كل شيء الآن كما تعلمين. انسي ما يتعلق بالدم وتحوّلي إلى الأمر التالي، ماذا حدث بعدئذ؟

- لا أدري... آه، نعم، جاءت إلى البيت.

- أتقصدين الآنسة بيمارش؟

- نعم، لم يتبادر إلى ذهني في حينها أنها هي الآنسة بيمارش. لقد دخلَت وفي يدها كيس التسوّق.

كانت نبرتها تدل على أنها لم تعتبر كلمة «كيس التسوق» مواتية أو ذات صلة، ثم سألها المفتش: وماذا قلتِ؟

- لا أظن أنني قلت شيئاً، لقد حاولت ذلك لكني لم أفلح... لقد غمرني شعور بالغصّة في تلك اللحظة.

وأشارت بإصبعها إلى حنجرتها فأومأ المفتش برأسه متفهماً، ومضت قائلة: ثم سألَت: "من هناك؟"، وجاءت من خلف الأريكة فظننت... ظننتُ أنها ستدوس... ستدوس عليه؛ فصرخت، ولأني بدأت بالصراخ فلم يكن بوسعي الكفّ عن ذلك، وبطريقة ما خرجت من الغرفة من خلال الباب الأمامي.

تذكّر المفتش هنا وصف كولن حين قال: "كأنها خفاش هارب من الجحيم"، في حين نظرت إليه شيلا ويب من خلال عينين بائستين خائفتين وقالت دون أن يتوقع منها ذلك: أنا آسفة.

- لا شيء يدعو إلى الأسف، لقد رويت حكايتك بشكل جيد جداً ولا حاجة بك إلى التفكير بها مرة أخرى. آه، نقطة واحدة فقط، لماذا كنت في تلك الغرفة بالتحديد؟

- لماذا؟!

بدت متحيرة، فقال هاردكاسل: نعم، لقد وصلتِ هنا قبل الموعد ببضع دقائق وضغطت زر الجرس كما أظن، ولكن لم يردّ أحد، فلماذا دخلتِ؟

- آه، فهمت؛ لأنها هي التي أبلغتني بذلك.

- من التي أبلغتك؟

- الآنسة بيمارش.

- لكنني كنت أظن أنك لم تكلميها من قبل؟

- نعم، لم أفعل، الآنسة مارتنديل هي التي قالت ذلك؛ قالت إن عليّ أن أدخل وأنتظر في غرفة الجلوس على يمين البهو.

قال هاردكاسل متفكراً: هكذا إذن؟

فسألته شيلا ويب متوجّسة: هل هذا... هل هذا كل شيء؟

- أظن ذلك، وأود أن تنتظري هنا عشر دقائق أخرى خشية أن يَجِدّ جديد فأحتاج إلى سؤالك عنه، وبعد ذلك سأعيدك إلى بيتك في سيارة الشرطة. ماذا عن أسرتك؟ هل لديك أسرة؟

- والدي ووالدتي متوفيان وأعيش مع عمتي.

- ما اسمها؟

- السيدة لوتون.

نهض هاردكاسل قائلاً: شكراً جزيلاً آنسة ويب. حاولي أن تنامي جيداً هذه الليلة؛ فأنت بحاجة إلى ذلك بعد الذي مررتِ به.

ابتسمت له بتهيّب وهي متجهة من خلال الباب إلى غرفة الطعام، فقال المفتش: اعتنِ بالآنسة ويب يا كولن. والآن يا آنسة بيمارش، هل تسمحين لي بأن أكلفك عناء المجيء هنا؟

رفع هاردكاسل ذراعه ليقود الآنسة بيمارش، لكنها سارت بتصميم من أمامه وتحسّسَت كرسياً بجوار الجدار بلمسة من أطراف أناملها وسحبته إليها مسافة قدم وجلست، فأغلق هاردكاسل الباب، وقبل أن يتفوه بشيء بادرته قائلة: من ذلك الرجل الشاب؟

- اسمه كولن لامب.

- هذا ما أخبرني به، ولكن من يكون؟ ولماذا جاء هنا؟

نظر هاردكاسل إليها بشيء من الدهشة وقال: لقد تصادف أن كان ماراً في الشارع عندما اندفعت الآنسة ويب خارج هذا المنزل صارخة وقالت إن هنا جريمة قتل، وبعد أن دخل وتحقق بنفسه مما حدث اتصل بنا فطلبنا منه أن يعود إلى هذا المكان وينتظر.

- لقد كنتَ تخاطبه باسمه الأول مجرَّداً.

- يا لك من شديدة الملاحظة يا آنسة بيمارش! كولن لامب صديقي، مع أنني لم أرَه منذ مدة. إنه مختص في الأحياء البحرية.

- آه، نعم.

- والآن يا آنسة ببمارش، سأكون مسروراً إذا استطعتِ إخباري بأي شيء عن هذه القضية العجيبة.

- بكل سرور، ولكن ليس عندي سوى القليل لأخبرك به.

- أنت تعيشين هنا منذ فترة من الزمن، أليس كذلك؟

- منذ عام ١٩٥٠، وأنا أمتهن... بل كنت أمتهن التعليم، وعندما قيل لي إنه لا علاج لبصري المتدهور وإنني سأصاب بالعمى عمّا قريب كيّفتُ نفسي لكي أتخصص بطريقة برايل والتقنيات المتنوعة لمساعدة المكفوفين، ولديّ وظيفة هنا في معهد آرونبرغ للمكفوفين والمعوقين من الأطفال.

- شكراً لك، والآن فيما يختص بأحداث عصر هذا اليوم، هل كنت تنتظرين زائراً؟

- لا.

- سأقرأ عليكِ وصفاً للرجل الميت لعل ذلك يذكّرك بشخص ما على وجه الخصوص. الطول مئة وخمسة وثمانون سنتمتراً، السن يناهز الستين، الشعر قاتم يخالطه الشيب، العينان بنّيتان، حليق الذقن نحيف الوجه دقيق الفك، وهو ممتلئ الجسم لكنه ليس بديناً، بدلته رمادية اللون قاتمة ويداه ناعمتان، يُحتمَل أن يكون موظفاً في مصرف أو محاسباً أو محامياً أو صاحب مهنة من هذا النوع. هل يوحي لك هذا بأي شخص تعرفينه؟

فكرت الآنسة ببمارش ملياً قبل الإجابة، ثم قالت: لا يمكنني القول بأن هذا الوصف يوحي إليّ بشيء، فهو وصف عام جداً ويمكن أن يتطابق مع أوصاف الكثيرين بالطبع. قد يكون شخصاً التقيت به في مناسبة ما، إلا أنه ليس شخصاً أعرفه معرفة أكيدة.

- ألم تصلك أية رسالة مؤخراً من شخص يرغب بزيارتك؟

- لم يصلني شيء كهذا.

- جيد جداً. والآن، لقد اتصلتِ هاتفياً بمؤسسة كافنديش للسكرتارية وطلبت خدمات كاتبة اختزال و...

قاطعته قائلة: معذرة، ولكنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل.

- أتقولين إنك لم تتصلي هاتفياً بمؤسسة كافنديش لتطلبي...

حملق هاردكاسل إليها فقالت: ليس عندي هاتف في البيت.

أوضح لها المفتش هاردكاسل قائلاً: يوجد كشك هاتف في نهاية الشارع.

- أجل، لكنني أؤكد لك أيها المفتش هاردكاسل أني لم أكن بحاجة إلى كاتبة اختزال ولم أتصل بهذا المكان المسمى كافنديش لأي طلب من هذا النوع.

- ألم تطلبي الآنسة شيلا ويب بالذات؟

- لم أسمع بهذا الاسم من قبل قَط.

حملق هاردكاسل إليها مذهولاً ثم أردف قائلاً: لماذا تركتِ الباب دون أن تقفليه؟

- أفعل ذلك أحياناً في أوقات النهار.

- ولكن أي شخص يمكنه الدخول في هذه الحالة.

قالت الآنسة بيمارش بجفاء: يبدو أن شخصاً ما قد فعل ذلك.

- آنسة بيمارش، لقد مات هذا الرجل بين الواحدة والنصف

والثانية وخمس وأربعين دقيقة تقريباً استناداً إلى الفحص الطبي، فأين كنتِ في ذلك الوقت؟

أطرقت الآنسة بيمارش متأملة ثم قالت: في الواحدة والنصف؟ لا بد أنني كنت قد غادرت أو كنت أستعدّ لمغادرة المنزل، فقد أردت القيام بشراء بعض الحاجات.

- هل يمكن أن تخبريني إلى أين ذهبتِ بالضبط؟

- دعني أفكر؛ لقد ذهبتُ إلى دائرة البريد في شارع ألباني فأرسلت رسالة واشتريت بعض الطوابع، ثم قمت بشراء بعض الحاجات المنزلية، نعم، وبعض الأربطة اللمّاعة والدبابيس من متجر الأقمشة المسمّى فيلدورن أيضاً، ثم عدت راجعة. يمكنني أن أخبرك متى كان ذلك بالضبط؛ فساعتي المغرّدة غردت ثلاث مرات عند وصولي إلى البوابة، فبإمكاني سماعها من الطريق.

- وماذا عن ساعاتك الأخرى؟

- ماذا تقصد؟

- ساعاتك الأخرى تبدو كلها متقدمة ساعة واحدة.

- متقدمة! هل تقصد الساعة الكبيرة في ركن الغرفة؟

- ليس تلك فسحب، بل كل الساعات الأخرى في غرفة الجلوس كانت كذلك.

- لا أفهم ما تقصده بالساعات الأخرى. لا توجد ساعات أخرى في غرفة الجلوس!

❀ ❀ ❀

الفصل الثالث

حدّق هاردكاسل إلى السيدة ببمارش ثم قال: آه، إذن ماذا عن الساعة الخزفية الجميلة تلك فوق رف المدفأة والساعة الصغيرة الفرنسية المذهَّبة والساعة الفضية الصغيرة و... آه، نعم، الساعة المنقوش على زاوية منها اسم «روزماري» يا آنسة ببمارش؟

جاء دور الآنسة ببمارش لتحدق نحوه وتقول: لا بد أن أحدنا مخطئ أيها المفتش! أؤكد لك أنني لا أمتلك ساعة خزفية ولا... ماذا قلت؟ ساعة مكتوب عليها روزماري؟ وما من ساعة فرنسية مذهَّبة، ولا... ماذا كانت الأخرى؟

ردّ هاردكاسل تلقائياً: ساعة فضية.

- ولا تلك أيضاً، وإن لم تصدقني فبوسعك أن تسأل المرأة التي تأتي للتنظيف، السيدة كيرتن.

أُخذ المفتش هاردكاسل على حين غرة؛ فقد كان في نبرة الآنسة ببمارش تأكيد إيجابي وسرعة تحمل في طياتها الإقناع، فمضى يقلب الأمور في ذهنه لدقيقة أو اثنتين، ثم نهض واقفاً وقال: كنت أتساءل يا آنسة ببمارش إذا كان بوسعك مرافقتي إلى الغرفة المجاورة.

- بالتأكيد، وبصراحة أود أن أرى تلك الساعات بنفسي.

سارع هاردكاسل بالاستفسار قائلاً: ترين؟!

ردّت الآنسة ببمارش قائلة: أظن أن كلمة «أفحص» مناسِبة أكثر، ولكن حتى المكفوفين يستخدمون أساليب تقليدية في كلامهم قد لا تتوافق بالضبط مع قدراتهم الخاصة أيها المفتش، فعندما أقول إني أود أن «أرى» تلك الساعات فإنما أعني أني أود أن أتفحصها وأتحسسها بأناملي.

خرج هاردكاسل من المطبخ تتبعه الآنسة ببمارش، واجتاز البهو الصغير إلى غرفة الجلوس فرفع اختصاصي البصمات نظره إليه وقال: أوشكتُ أن أنتهي من هذا المكان يا سيدي؛ يمكنك أن تلمس كل ما تريد.

هزّ هاردكاسل رأسه والتقط ساعة السفر الصغيرة والمنقوش على طرفها اسم روزماري فوضعها في كف الآنسة ببمارش التي قامت بتحسسها بدقه ثم قالت: تبدو ساعة سفر عادية ومن النوع المغلف بالجلد. إنها ليست لي يا حضرة المفتش، وأنا متأكدة تماماً أنها لم تكن موجودة في الغرفة حينما غادرتُ البيت في الساعة الواحدة والنصف.

استعادها المفتش ثم تناول برفق الساعة الخزفية الصغيرة من فوق رف المدفأة وقال وهو يضعها في يدها: ترفّقي بهذه؛ إنها قابلة للكسر.

تلمّسَت الآنسة ببمارش الساعة الخزفية الصغيرة بأنامل فاحصة مرهَفة ثم هزت رأسها وقالت: لا بد أنها ساعة جميلة، لكنها ليست لي. أين قلت إنها كانت؟

- على الجانب الأيمن من رف المدفأة.

- لقد كان في ذلك الموضع أحد الشمعدانات الخزفية.

- نعم، يوجد شمعدان هناك ولكنه أُزيح إلى الطرف الآخر.

- هل قلت إنه توجد ساعة أخرى؟

- بل اثنتان.

استعاد هاردكاسل الساعة الخزفية وأعطاها تلك الفرنسية المذهَّبة الصغيرة، فتحسستها بسرعة ثم ناولته إياها قائلة: لا، هذه ليست لي.

ثم ناولها الساعة الفضية فأعادتها له أيضاً قائلة: الساعتان الوحيدتان الموجودتان في هذه الغرفة بصورة عادية هما الساعة الكبيرة تلك المعلقة في الزاوية قرب النافذة...

- صحيح تماماً.

- وساعة العصفور المعلقة على الحائط قرب الباب.

وجد هاردكاسل صعوبة في معرفة ما سيقول بالضبط بعد ذلك، وراح ينظر إلى المرأة أمامه متفحّصاً مطمئناً لكونها لم تكن قادرة على تفحصه. أما هي فقد ارتسم على جبينها تجهّم خفيف ناجم عن الحيرة وقالت بحدّة: لا أفهم ذلك؛ أنا لا أستطيع أن أفهم ذلك أبداً.

ومدت إحدى ذراعيها عارفة بسهولة موضعها من الغرفة، ثم جلست، والتفت هاردكاسل إلى رجل البصمات الواقف بالباب فسأله: هل انتهيت من هذه الساعات؟

- لقد انتهيت منها جميعاً يا سيدي. لا توجد بصمات على الساعة المذهبة ولا يمكن أن توجد؛ فسطحها لا يلتقط البصمات، والشيء نفسه ينطبق على الساعة الخزفية. كما لا توجد بصمات حتى على ساعة السفر الجلدية أو الفضية، وهذا أمر غير منطقي! لو كانت الأمور طبيعية فلا بدّ من وجود بصمات عندئذ. بالمناسبة، الساعات كلها كانت متوقفة وكانت كلها تشير إلى الوقت نفسه، الرابعة وثلاث عشرة دقيقة.

- وماذا عن أثاث الغرفة؟

- توجد ثلاث أو أربع مجموعات مختلفة من البصمات في الغرفة، وأعتقد أنها كلها لنساء، أما محتويات جيوب القتيل فموجودة على الطاولة.

وبإيماءة من رأسه أشار إلى كومة صغيرة من الأشياء على الطاولة، فذهب هاردكاسل وألقى نظرة عليها. كانت هناك حافظة نقود تحتوي على سبعة جنيهات وعشرة بنسات وقليل من النقود المعدنية، ومنديل جيب حريري ليست عليه علامة، وعلبة صغيرة تحتوي أقراصاً تساعد على الهضم، وبطاقة مطبوعة. وانحنى هاردكاسل ليمعن النظر إليها ويقرأ ما عليها: «ر. هـ. كاري، شركة متروبولِس وبروفِنْشال المحدودة للتأمين، ٧ شارع دنفرز، لندن».

عاد هاردكاسل إلى الأريكة حيث كانت الآنسة ببمارش تجلس وقال: هل كنتِ تتوقعين زيارة شخص من شركة تأمين؟

- شركة تأمين! لا، لا بالتأكيد.

- شركة متروبولس وبروفنشال للتأمين.

هزت رأسها بالنفي وقالت: لم أسمع بها قط.

- ألم تفكري جدياً في عمل تأمين من أي نوع؟

- لم أفعل؛ فأنا مؤمّنة ضد الحريق والسرقة مع شركة غوف للتأمين التي لها فرع هنا، وليس عندي أي تأمين شخصي، فلا أسرة ولا أقارب لي، لهذا لا أرى جدوى من وراء التأمين على حياتي.

- فهمت. هل يعني اسم السيد «ر.هـ. كاري» أي شيء بالنسبة لك؟

كان يلاحظها عن كثب فلم يرَ أي رد فعل على مُحيّاها. قالت: كاري؟

ثم هزت رأسها وقالت: هذا الاسم ليس مألوفاً، أليس كذلك؟ لا، لا أظن أني سمعت بهذا الاسم أو عرفت أي شخص يحمله. أهو اسم الرجل الميت؟

فقال هاردكاسل: هذا احتمال.

ترددَت بيمارش لحظة ثم قالت: هل تريدني أن، أن ألمس...

- هل يمكنك ذلك آنسة بيمارش؟ إذا لم يضايقك هذا كثيراً، فأنا لست ضليعاً في مثل هذه الأمور، لكن أناملك يمكن أن تخبرك بما يبدو عليه الشخص بوضوح أكثر مما ستعرفين عنه وصفاً.

قالت الآنسة بيمارش: بالضبط، أوافقك على أن القيام بذلك ليس شيئاً ساراً، ولكني مستعدة للقيام به إن كنت ترى أنه سيساعدك.

- شكراً، اسمحي لي بأن أرشدك.

سار بها حول الأريكة وأشار عليها بالانحناء، ثم وجّه يدها بلطف نحو وجه الرجل الميت. كانت هادئة جداً ولم تُبدِ أي انفعال،

وتتبعَت أناملُها الشعرَ والأذنين مترددة لحظة خلف الأذن اليسرى، ثم تتبعت خط الأنف فالفم والذقن، ثم هزت رأسها ونهضت واقفة وقالت: لديّ الآن فكرة واضحة عن شكل هذا الرجل، لكنني متأكدة تماماً من أنني لم أرَه ولم أعرفه من قبل.

كان خبير البصمات قد حزم أدواته وخرج من الغرفة، وما لبث أن عاد ليطل برأسه ويشير إلى الجثة قائلاً: لقد جاؤوا لينقلوه، فهل تأذن لهم بذلك؟

فرد عليه هاردكاسل قائلاً: "لا مانع"، ثم التفت إلى الآنسة بيمارش قائلاً: أتسمحين بالجلوس هنا يا آنسة بيمارش؟

وأجلسها على كرسي في الزاوية في حين دخل رجلان إلى الحجرة ونقلا جثة السيد كاري بسرعة واحتراف.

خرج هاردكاسل إلى البوابة ثم عاد إلى غرفة الجلوس وجلس على مقربة من الآنسة بيمارش وقال لها: إنه عمل استثنائي يا آنسة بيمارش. أود أن أراجع النقاط الرئيسية معك لأتأكد من صحة معلوماتي، وصحّحيني إن أخطأت: لم تكوني تتوقعين أي زائر هذا اليوم، لم تستفسري عن أي تأمين ولم تصلك أية رسالة من أي مكان تفيد بأن مندوباً لشركة تأمين سيزورك اليوم، هل هذا كله صحيح؟

- صحيح تماماً.

- لم تحتاجي لخدمات كاتبة اختزال، كما لم تتصلي هاتفياً بمؤسسة كافنديش أو تطلبي أن تكون إحداهن هنا في الساعة الثالثة.

- هذا صحيح أيضاً.

- وعندما غادرتِ المنزل في نحو الساعة الواحدة والنصف

كانت في هذه الغرفة ساعتان فقط، ساعة العصفور والساعة الكبيرة لا غير.

راجعت الآنسة بمارش نفسها قبل أن تجيب ثم قالت: إن كان عليّ أن أكون دقيقة بشكل تام فلن أستطيع أن أقسم على تلك البيانات؛ فلكوني لا أبصر لن يكون بمقدوري ملاحظة حضور أو غياب أي شيء في الغرفة، وبمعنى أوضح فإن المرة الأخيرة التي تأكدتُ فيها من محتويات هذه الغرفة كانت عندما نفضتها باكراً هذا الصباح، فقد كان كل شيء في محله حينئذ، فأنا أنظف هذه الغرفة بنفسي عادة لأن عاملات التنظيف قد يتعاملن بشيء من التهاون مع التحف.

- هل غادرتِ هذا المنزل في الصباح بأي شكل؟

- نعم، ذهبت كالمعتاد إلى معهد آرونبرغ في الساعة العاشرة؛ لديّ دروس هناك حتى الساعة الثانية عشرة والربع. ثم عدتُ إلى البيت في نحو الساعة الواحدة إلا ربعاً، وطبخت بيضاً بالحليب في المطبخ مع كوب من الشاي، ثم خرجت من جديد في الواحدة والنصف كما ذكرتُ سابقاً. وبالمناسبة، فقد تناولت وجبتي في المطبخ ولم أدخل هذه الغرفة.

قال هاردكاسل: فهمت، إذن فبينما يمكنك التأكيد على أن كل هذه الساعات لم تكن موجودة هنا في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم فإن من المحتمَل أن تكون قد أُدخِلت في وقت ما بعد ذلك هذا الصباح؟

- فيما يخص ذلك عليك أن تسأل عاملة التنظيف السيدة كيرتين، فهي تأتي في العاشرة تقريباً وتغادر قرابة الثانية عشرة،

وهي تسكن في المنزل رقم ١٧ بشارع دير.

- شكراً لك يا آنسة بمارش. الآن نحن بصدد بعض الحقائق، وهنا بالذات أريد منك أن تعطيني أية آراء أو تصورات يمكن أن تتبادر إلى ذهنك. في وقت ما خلال هذا اليوم أُدخِلت أربع ساعات إلى هذا المكان، وعقارب هذه الساعات الأربع تشير إلى الرابعة وثلاث عشرة دقيقة، فهل يوحي لك هذا التوقيت بأي شيء؟

هزّت الآنسة بمارش رأسها نفياً وقالت: الرابعة وثلاث عشرة دقيقة! لا شيء على الإطلاق.

- والآن ننتقل من الساعات إلى الرجل الميت. يبدو مستبعَداً أن عاملة التنظيف قد سمحت له بالدخول والبقاء في البيت ما لم تكوني قد أخبرتها بأنك كنت تتوقعين مجيئه، ولكن هذا الأمر يمكننا معرفته منها. لنفترض أنه جاء هنا ليقابلك لسبب ما كعمل أو شأن خاص، وقد طُعن وقُتل ما بين الواحدة والنصف والثانية وخمس وأربعين دقيقة. أنت تنفين أنه جاء بموجب موعد سابق، وعلى فرض أن له صلة بالتأمين فهنا أيضاً لا يمكنك مساعدتنا، وحيث إن الباب لم يكن مقفَلاً فمن الممكن أن يكون قد دخل وجلس بانتظارك، ولكن لماذا؟

قالت الآنسة بمارش بنفاد صبر: المسألة كلها تافهة. إذن فأنت تعتقد أن هذا المدعوّ كاري جلب هذه الساعات معه، أليس كذلك؟

- لا يوجد أثر لأي صندوق في المكان ومن الصعب عليه حمل أربع ساعات في جيوبه. والآن فكري بتأنّ يا آنسة بمارش: هل تستطيعين ربط هذه الساعات بشيء ما في ذهنك؟ أو هل لديك

أي تصور عنها؟ وإن لم يكن مع الساعات فلنقُل مع توقيت الرابعة وثلاث عشرة دقيقة.

هزّت رأسها بالنفي وقالت: كنت أحاول أن أقول لنفسي إن ما جرى هو من أعمال المجانين أو إن شخصاً ما قد دخل البيت خطأ، ولكن حتى هذا لا يفسر شيئاً حقاً. لا يا حضرة المفتش، لست قادرة على مساعدتك.

دخل أحد رجال الشرطة وذهب هاردكاسل ليلحق به في البهو، ومن هناك اتجه إلى البوابة حيث تحدث لبضع دقائق مع الرجال. قال المفتش: يمكنكم أن تأخذوا السيدة الشابة إلى بيتها الآن، عنوانها ١٤ شارع بالمرستون.

وعاد واتجه نحو غرفة الطعام، ومن خلال الباب المفتوح باتجاه المطبخ أمكنه سماع الآنسة بيمارش مشغولة عند حوض الغسيل، فوقف عند المدخل وقال: سيلزمني أن آخذ تلك الساعات يا آنسة بيمارش وسأترك لك إيصالاً بها.

- سيكون هذا مناسباً جداً يا حضرة المفتش؛ فهي ليست ملكي.

ثم التفت هاردكاسل ناحية شيلا ويب وقال: يمكنك الآن الذهاب إلى البيت يا آنسة ويب، وستوصلك سيارة الشرطة.

نهض كلّ من شيلا وكولن، فقال هاردكاسل وقد جلس ليحرر إيصالاً: أيمكنك توصيلها إلى السيارة فقط يا كولن؟

فخرج كولن بصحبة شيلا متجهَين خلال الممر، وإذا بشيلا تتوقف فجأة وتقول: لقد تركت قفازيّ.

- سآتيك بهما.

- لا، فأنا أعرف أين وضعتهما، ولا مانع لدي الآن وقد أخذوا الجثة.

وعادت تجري إلى البيت، ثم ما لبثت أن عادت بعد دقيقة أو اثنتين وقالت: أنا آسفة لأنني كنتُ سخيفة جداً من قبل.

- أي شخص آخر كان سيفعل ذلك.

انضم هاردكاسل إليهما في أثناء دخول شيلا السيارة، وبينما كانت السيارة تبتعد التفت نحو الشرطي الشاب قائلاً: أريد أن تعبّئ وتشغّل كل تلك الساعات التي في غرفة الجلوس بعناية، كلها باستثناء ساعة العصفور والساعة الكبيرة.

وأعطى بضعة توجيهات أخرى ثم التفت إلى صاحبه قائلاً: أنا ذاهب في جولة، أتحب أن ترافقني؟

فقال كولن: أود ذلك.

* * *

الفصل الرابع
(برواية كولن لامب)

سألتُ ديك هاردكاسل: إلى أين نحن ذاهبون؟

لم يُجِبني، بل وجّه الحديث إلى السائق قائلاً: مؤسسة كافنديش للسكرتارية في شارع بالاس.

- أمرك يا سيدي.

انطلقت بنا السيارة، وفي تلك الأثناء تجمّع عدد من الناس ينظرون باهتمام، وكان الهر البرتقالي لا يزال جالساً على عمود بوابة ديانا لودج المجاور. لم يَعُد يغسل وجهه بل كان جالساً بشكل مستوٍ تماماً ويهز ذيله بهدوء محدّقاً من فوق رؤوس الناس بذلك النوع الخالص من الازدراء للجنس البشري.

رد عليّ هاردكاسل قائلاً وهو يلقي نظرة عَجْلى على ساعته: إلى مكتب السكرتارية ثم المرأة المسؤولة عن التنظيف، بهذا الترتيب. الوقت يجري مسرعاً، لقد تجاوزت الرابعة.

ثم صمت هنيهة قبل أن يضيف موجّهاً كلامه إليّ: أليست فتاة جذابة إلى حد ما؟

فقلت: تماماً.

رماني بنظرة تعجب وقال: لقد روت قصة ممتازة، ومن الأفضل التحقق منها بسرعة.

- ولكن ألا تعتقد أنها...

فقاطعني على الفور: أنا أهتم دائماً بالأشخاص الذي يعثرون على جثث.

- ولكن تلك الفتاة كانت نصف مجنونة من الخوف، فلو كنت سمعت صرخاتها...

رمقني بنظرة مازحة أخرى من نظراته وكرر القول بأنها كانت فتاة جذابة جداً، ثم قال: وكيف اتّفقَ أنك كنت تتجول في هذه المنطقة يا كولن؟ هل كنت تستمتع بفنّنا المعماري الفكتوري الأنيق؟

- كنت أبحث عن رقم ٦١ فلم أجده. أيُحتمَل عدم وجوده؟

- إنه موجود بالفعل؛ فالأرقام تتصاعد حتى ٨٨ كما أعتقد.

- ولكن عندما وصلت إلى رقم ٢٨ تلاشى الشارع!

- إنه محيّر للغرباء دائماً، فلو كنت استدرت يميناً ودلفت إلى شارع ألباني ثم انعطفت إلى اليمين ثانية لألفيت نفسك في النصف الآخر من هلال ولبراهام، فهو مَبني ظَهراً لظهر كما ترى، الحدائق تعطي إحداها ظَهرَها للأخرى.

فقلت له بعد أن شرح لي بالتفصيل تلك الجغرافيا الغامضة: فهمت، مثل بعض الساحات في لندن، أليس كذلك؟ تبدأ بالسير في جهة واحدة من الساحة فتتحول بعد ذلك فجأة إلى ميدان أو حدائق، وحتى سيارات الأجرة تتحير أحياناً. على أية حال فرقم ٦١ موجود إذن. هل لديك فكرة عمّن يسكن فيه؟

- ٦١؟ دعني أتذكر، نعم، إنه بلاند المعماري.

- إنه أمر سيئ.

- ألا تريد معمارياً؟

- أنا لا أبحث عن معماري إطلاقاً، إلا إذا سكن هنا في الآونة الأخيرة. هل هو ساكن جديد؟

- لقد وُلد بلاند هنا على ما أظن، وهو بالتأكيد من أهل المنطقة وقد أمضى في عمله سنوات طويلة.

- يا له من أمر مخيّب للآمال!

قال هاردكاسل: إنه معماري سيئ جداً؛ فهو يستخدم مواد رديئة ويبني نوعاً من البيوت التي تبدو لك جيدة حتى تسكن فيها، وبعد ذلك ينهار كل شيء أو يُصاب بخلل. وهو يوشك أن يقع في شر أعماله أحياناً، لكنه يفلت من العقاب أخيراً بعد جهد جهيد.

- ليس حسناً أن توغر صدري يا ديك؛ فالرجل الذي أَنشُدُه يكاد يكون أحد دعامات الأخلاق القويمة.

- لقد حصل بلاند (أو بالأحرى زوجته) على ثروة كبيرة قبل ما يقرب من عام. إنها كندية جاءت إلى هنا خلال الحرب والتقت ببلاند، وكانت أسرتها تعارض زواجها به فقاطعوها بشكل أو بآخر، ثم مات عم أبيها في العام الماضي، وكان ابنه الوحيد قد مات في حادث جوي بالإضافة إلى من قُتلوا بسبب الحرب، ولهذا السبب أو ذاك أصبحت السيدة بلاند آخر من تبقى من الأسرة فورثت جميع أمواله، وهي التي أنقذت بلاند من الإفلاس كما أعتقد.

- يبدو أنك تعرف الكثير عن السيد بلاند.

- أجل؛ أنت تعلم أنهم يهتمون كثيراً في قسم الضرائب بمن يصبح غنياً فجأة، فهم يطرحون التساؤلات حول ما إذا كان قد تحايل أو غشّ مثلاً، ولذلك يقومون بالتحري عنه. وقد فعلوا في هذه الحالة فوجدوا كل شيء سليماً.

فقلت له: أما أنا فلا أكترث في كل الأحوال برجل أصبح غنياً بصورة مفاجئة؛ ليس هذا هو الوضع الذي أبحث عنه.

- أتنكر ذلك؟ لقد حدث هذا معك، أليس كذلك؟

أومأتُ بالإيجاب فقال: وانتهيتَ منه أم لم تنتهِ بعد؟

قلت له مراوغاً: إنه شيء أشبه بالرواية. هل سنتناول العشاء معاً الليلة أم أن هذه المهمة ستلغيه؟

- لا، لا بأس بذلك. أول شيء ينبغي عمله هو استدعاء فريق العمل؛ يلزمنا أن نعرف كل شيء عن السيد كاري، وعلى أي حال فلو أننا توصلنا فقط إلى هويته وماذا يعمل فسوف تتكون لدينا فكرة جيدة بخصوص من أراد أن يتخلص منه.

ثم نظر من النافذة وقال: ها قد وصلنا.

* * *

تقع مؤسسة كافنديش للسكرتارية والطباعة في الشارع التجاري الرئيس الذي يُسمّى تفخيماً شارع بالاس (القصر)، وقد اتخذت من بيت فكتوري قديم مقراً لها شأنَ الكثير من المؤسسات الأخرى، وعلى يمينه بيت مشابه له يعرض على واجهته لوحة كُتب عليها: «إدوين غلن، مصور فني متخصص في تصوير الأطفال وحفلات الزفاف...»، ولتعزيز هذا الإعلان كانت نافذة العرض مملوءة بصور

مكبَّرة من شتى الأحجام لأطفال تقلّ أعمارهم عن ست سنوات، ويُقصَد بهذه الصور جذب الأمهات المغرَمات بأطفالهن. ويقع على الجانب الآخر من مؤسسة كافنديش مكاتب قديمة التأسيس والطراز لتاجر فخم، ويلي ذلك مبنى جميل ذو ثلاثة طوابق يحمل اسم «مطعم ومقهى الشرق» بُني على أنقاض البيوت القديمة الطراز.

صعدتُ مع هاردكاسل الدرجات الأربع ودخلنا من الباب الأمامي المفتوح، ثم تبعنا تعليمات اللافتة على الباب الأيمن فدخلنا غرفة واسعة نسبياً كان فيها ثلاث نساء منهمكات في الطباعة، اثنتان منهن واصلتا الطباعة دونما التفات لدخول الغرباء، أما الثالثة التي كانت تطبع على طاولة مقابلة للباب مباشرة وعليها هاتف فقد توقفَت ونظرت إلينا متسائلة، وبدت كأنها تمتص حلوى من نوع ما. وبعد أن رتّبَت للحلوى مكاناً ملائماً في فمها سألتنا بصوت متهالك: هل من خدمة أؤديها لكما؟

قال هاردكاسل: هل أنت الآنسة مارتنديل؟

- أعتقد أنها مشغولة بالهاتف حالياً.

وفي تلك اللحظة سُمع صوت إغلاق الهاتف، فرفعت الفتاة السماعة وضربت بإصبعها على مفتاح وقالت: هنا سيّدان يريدان مقابلتك يا آنسة مارتنديل.

وسألتنا قائلة: هل يمكنني معرفة اسميكما؟

قال ديك: هاردكاسل.

فواصلت الكلام على الهاتف قائلة: إنه السيد هاردكاسل يا آنسة مارتنديل.

أعادت السماعة مكانها ثم وقفت قائلة: من هنا رجاء.

توجهَت بنا نحو باب يحمل على لوح نحاسي اسم الآنسة مارتنديل، ثم فتحت الباب وأمالت نفسها بجواره لتفسح لنا وقد أعلنت: السيد هاردكاسل.

ثم أغلقت الباب خلفنا. في الداخل رفعت الآنسة مارتنديل نظرها إلينا من وراء مكتب كبير كانت تجلس خلفه. كانت امرأة ذات مظهر حازم ونظرات حادة، دون الخمسين من عمرها، وتسريحة شعرها الأحمر الباهت تشبه الكعكة. نظرت إلينا واحداً بعد الآخر وقالت: السيد هاردكاسل؟

فأخرج ديك إحدى بطاقاته الرسمية وناولها إياها، وواريت نفسي بالجلوس على كرسي قرب الباب. ارتفع حاجبا الآنسة مارتنديل الرمليان بدهشة وبشيء من الامتعاض وقالت: المفتش هاردكاسل! ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك يا حضرة المفتش؟

- لقد جئت طالباً بعض المعلومات يا آنسة مارتنديل، وأعتقد أن بمقدورك مساعدتي.

من نبرة صوته حكمتُ بأن ديك سيلعب بطريقة اللف والدوران مُجهداً نفسه ليبدو جذاباً، وقد كنت أشك شخصياً في أن تكون الآنسة مارتنديل سهلة الانقياد لهذا الأسلوب؛ فقد كانت من ذلك الصنف الذي يصفه الفرنسيون بالمرأة المرعبة.

رحت أدرس الترتيب العام للغرفة. على الحائط وخلف مكتب الآنسة مارتنديل عُلقت مجموعة صور فوتوغرافية موقَّعة، فعرفت إحداها وكانت للكاتبة البوليسية السيدة أريادني أوليفر التي كانت تربطني بها معرفة بسيطة، وكان مكتوباً عليها «المخلصة أريادني

أوليفر»، كما كانت عبارة «لك مع العرفان، غاري غريغسون» توشّح صورة أخرى لكاتب روايات المغامرات والألغاز الذي مات منذ نحو خمسة عشر عاماً، وعبارة: «المخلصة أبداً، مريام» كانت تزين تصويراً لمريام هوغ، وهي كاتبة تخصصَت في القصص الرومنسية، كما كانت هناك صورة لرجل أصلع خجول هو الروائي آرماند ليفين، وكانت موقعة بأحرف صغيرة تقول: «مع الامتنان، آرماند ليفين». كانت هنالك حالة تشابه في هذه التذكارات، فالرجال في الغالب يحملون الغليون ويرتدون كنزات صوفية، والنساء يظهرن بمظهر حميم مع ميل للاختباء في الفراء.

وبينما كنت أجيل بصري راح هاردكاسل يطرح أسئلته قائلاً: أعتقد أنك تستخدمين فتاة تُدعى شيلا ويب، أليس كذلك؟

- صحيح، وأخشى أنها غير موجودة... حالياً على الأقل.

لمسَت زر المنبه وخاطبَت الغرفة المجاورة قائلة: إدنا، هل عادت شيلا ويب؟

- لا يا آنسة مارتنديل، لم تعُد بعد.

أغلقت الآنسة مارتنديل الخط وقالت: لقد خرجَت في مهمة عصر اليوم. تصورتُ أنها قد عادت الآن، ومن المحتمَل أن تكون ذهبت في طريقها إلى فندق كرليو في نهاية شارع إسبلانيد حيث لديها موعد في الخامسة.

قال هاردكاسل: فهمت، هل يمكنك أن تخبريني شيئاً عن الآنسة شيلا ويب؟

- ليس عندي الكثير جداً لأخبرك به. إنها تعمل هنا منذ... دعني أتذكر، نعم، منذ قرابة عام، وعملها مُرْضٍ تماماً.

- هل تعلمين أين كانت تعمل قبل مجيئها إلى مكتبك؟

- يمكنني معرفة ذلك إن كنتَ بحاجة للمعلومة يا حضرة المفتش هاردكاسل؛ فسجلّ معلوماتها لا بد من أن يكون موثقاً في ملف في مكان ما، وبقدر ما أتذكر حالياً فقد كانت قبل ذلك مستخدَمة في لندن ولديها تقديرات جيدة من رؤسائها هناك، وأعتقد أن عملها كان في مؤسسة تجارية... سماسرة عقارات على ما أتذكر.

- هل قلتِ إنها تجيد عملها؟

- إنها مقبولة تماماً.

قالت الآنسة مارتنديل ذلك، وكان واضحاً أنها ليست من النوع الذي يُغدق المديح. فسألها هاردكاسل: ألم تكن من المستوى الأول؟

- لا يمكنني القول بذلك، لكن لديها معدل سرعة جيداً ومستوى مقبولاً من الثقافة. إنها طابعة دقيقة وحريصة.

- هل تعرفينها معرفة شخصية بعيداً عن علاقاتكما الوظيفية؟

- لا، إنها تعيش مع عمة لها كما أظن.

وهنا تململت الآنسة مارتنديل قليلاً وقالت: أتسمح لي بسؤال يا حضرة المفتش: لماذا تسأل كل هذه الأسئلة؟ هل أوقعَت الفتاة نفسها في مشكلة ما؟

- لا أقول ذلك بالضبط يا آنسة مارتنديل. هل تعرفين امرأة اسمها ميليسنت ببمارش؟

- ببمارش؟

قالت الآنسة مارتنديل ذلك مقطبة حاجبَيها الرمليين ثم أردفت قائلة: الآن عندما... آه، بالطبع، منزل الآنسة بيمارش هو الذي ذهبَت إليه شيلا عصر هذا اليوم، وكان الموعد الساعة الثالثة.

- كيف أُبرِمَ ذلك الموعد يا آنسة مارتنديل؟

- بالهاتف؛ اتصلَت الآنسة بيمارش وقالت إنها كانت بحاجة إلى خدمات طابعة اختزال، وطلبَت مني إرسال الآنسة ويب إليها.

- هل طلبت الآنسة ويب بالاسم؟

- نعم.

- متى تم هذا الاتصال الهاتفي؟

تأملت الآنسة مارتنديل لحظة قبل أن تقول: لقد اتصلت بي مباشرة، وهذا يعني أن الأمر حدث في ساعة الغداء، وبأقرب ما يكون إلى الصحة كان ذلك في الساعة الثانية إلا عشر دقائق، أي قبل الساعة الثانية في كل الأحوال. آه، نعم، أرى أني قد دوّنت ملاحظة على ورقتي؛ لقد كان ذلك في الساعة الواحدة وتسع وأربعين دقيقة تماماً.

- هل كانت الآنسة بيمارش هي من اتصل بك شخصياً؟

بدت الآنسة مارتنديل دَهِشة قليلاً وهي تقول: أظن ذلك.

- ولكنك لم تميّزي صوتها ولا تعرفينها شخصياً؟

- نعم، لا أعرفها. لقد قالت إنها الآنسة ميليسنت بيمارش وأعطَتني عنوانها، ثم طلبت شيلا ويب للحضور عندها في الساعة الثالثة في حال لم تكن مشغولة.

كانت بياناتها واضحة ودقيقة، وفكرتُ في أن الآنسة مارتنديل يمكن أن تكون شاهدة ممتازة. قالت الآنسة مارتنديل بشيء من عدم الصبر: أرجوك أن تتلطف وتخبرني فيمَ كل هذا!

- حسناً، إن الآنسة ببمارش نفسها تنكر قيامها بأي اتصال هاتفي كهذا.

حملقت الآنسة مارتنديل ثم قالت: عجيب حقاً، غريب تماماً!

- وأنت من الناحية الأخرى تقولين إن هذه المكالمة قد تمت فعلاً، إلا أنك لا تستطيعين أن تجزمي بأن الآنسة ببمارش هي التي أجرت المكالمة.

- بالطبع لا أستطيع الجزم بذلك؛ أنا لا أعرف المرأة، ولكن حقاً لا يمكنني أن أرى شيئاً وراء القيام بمثل ذلك! هل كانت خدعة من نوع ما؟

- بل أكثر من ذلك. هل ذكرَت الآنسة ببمارش هذه (أو أياً كانت) أي سبب لطلبها الآنسة شيلا ويب بالذات؟

أطرقت الآنسة مارتنديل هنيهة ثم قالت: أعتقد أنها ذكرَت أن شيلا ويب قد عملت لها سابقاً.

- وهل الأمر كذلك في الواقع؟

- لقد قالت شيلا ويب إنها لا تتذكر القيام بأي عمل للآنسة ببمارش، ليس ذلك مؤكداً يا حضرة المفتش، فالفتيات كثيراً ما يذهبن لأناس مختلفين في أماكن مختلفة بحيث يصعب أن يتذكّرنَ ما جرى لهن قبل أشهر. ولم تكن شيلا متأكدة من هذه النقطة، فكل ما قالته هو أنها لا تتذكر الذهاب إلى هناك. ولكن يا حضرة

المفتش، حتى لو كان ذلك خدعة فما سرّ اهتمامك بالأمر؟

- أنا على وشك الوصول إلى ذلك. عندما وصلت الآنسة ويب إلى المنزل رقم ١٩ بشارع ولبراهام دخلت البيت وغرفة الجلوس، وقد أخبرَتني بأن ذلك كان بموجب توجيهات أُعطِيت لها، فهل توافقين على هذا؟

- هذا صحيح تماماً، فالآنسة ببمارش قالت إنها قد تتأخر في العودة إلى البيت قليلاً، وذكرت أن المطلوب من شيلا أن تدخل وتنتظر.

فقال هاردكاسل: عندما دخلت الآنسة ويب غرفة الجلوس وجدت رجلاً ميتاً ممدداً على الأرض.

حملقت الآنسة مارتنديل إلى وجهه، وصَعُبَ عليها العثور على صوتها لبرهة حتى قالت: هل قلتَ «رجلاً ميتاً» يا حضرة المفتش؟!

فقال هاردكاسل: بل رجلاً مقتولاً، مطعوناً في الواقع.

- يا إلهي، يا إلهي! لا بد أن الفتاة انزعجت جداً.

سألها هاردكاسل قائلاً: هل يعني اسم «كاري» أو السيد «ر.هـ. كاري» شيئاً بالنسبة لك يا آنسة مارتنديل؟

- لا أظن ذلك.

- إنه من شركة متروبولس وبروفنشال للتأمين.

استمرت الآنسة مارتنديل تهز رأسها بالنفي فقال المفتش: أترين حيرتي؟ أنت تقولين إن الآنسة ببمارش كلّمتك هاتفياً وطلبت أن تذهب شيلا إلى بيتها في الساعة الثالثة، والآنسة ببمارش تنفي القيام بأي شيء من هذا القبيل، فتصل شيلا هناك لتعثر على رجل ميت!

انتظر آملاً، ونظرت إليه الآنسة مارتنديل دون اكتراث، ثم قالت باستنكار: الأمر يبدو غير واقعي بالنسبة لي.

فتنهد هاردكاسل ونهض واقفاً ثم قال بأدب: مكانك جميل. أنتم تقومون بهذا العمل منذ مدة من الزمن، أليس كذلك؟

- منذ خمسة عشر عاماً، وقد وُفِّقنا بشكل ملحوظ. كانت بدايتنا محدودة جداً، وقد توسع عملنا حتى أصبح لدينا من العمل ما لا نكاد نستطيع القيام به. أنا الآن أستخدم ثماني فتيات كلهن منهمكات في العمل طوال الوقت.

- إنكم تنجزون قدراً كبيراً من العمل الروائي كما أرى.

كان هاردكاسل ينظر إلى الصور المعلقة على الجدار، فقالت: نعم، ففي بداية عملي تخصّصت في المؤلفين، فقد كنت أعمل سكرتيرة لمؤلف الروايات البوليسية الشهير السيد غاري غريغسون لأعوام عدة، وفي الحقيقة فإن تأسيس هذا المكتب بُني على شهرته. كنت أعرف عدداً لا بأس به من أصدقائه المؤلفين، وهم الذين قاموا بتزكيتي، ومعرفتي المتخصصة باحتياجات المؤلفين أسفرت عن فائدة كبيرة، فأنا أقدّم خدمة مفيدة جداً فيما يتعلق بالأبحاث الضرورية من حيث التواريخ والاقتباسات واستشارات بخصوص نقاط قانونية وأساليب الشرطة وتفصيلات عن جداول السموم... وكل شيء من هذا القبيل، ثم الأسماء الأجنبية والعناوين والمطاعم للناس الذي يبنون أحداث رواياتهم في بلدان أجنبية. في الأيام الخوالي لم يكن الجمهور يكترث بالدقة كثيراً، لكن القرّاء في أيامنا هذه لا يترددون عن الكتابة إلى المؤلفين مشيرين إلى أخطائهم في أية مناسبة ممكنة.

وتوقفت الآنسة مارتنديل فقال هاردكاسل بأدب: أنا متأكد من أن لديك كل الأسباب لتهنئة نفسك.

ثم توجه نحو الباب ففتحته أمامه. كانت الفتيات الثلاث في المكتب المجاور يتهيأنَ للمغادرة وقد قُمنَ بتغطية الآلات الكاتبة، أما موظفة الاستقبال إدنا فقد وقفت يائسة تمسك بكعب عالٍ مدبَّب بيد وباليد الأخرى فردة الحذاء التي انفصل كعبها، وقد راحت تشكو قائلة: لم يمضِ سوى شهر على شرائه، وقد كان غالياً جداً. إنه ذلك الشَّبَك الحديدي البغيض، ذلك الذي عند الناصية بجوار محل الكعك القريب من هنا، فقد علق الكعب به وانخلع ولم أعد أستطيع المشي، فاشتريت كعكتين وعدت إلى المكتب. ولكنني لا أدري حقاً كيف سأصل إلى البيت أو أستقلّ الحافلة.

لاحظت إدنا وجودنا في تلك اللحظة، فأخفت الحذاء المعطوب بسرعة مع نظرة متوجسة إلى الآنسة مارتنديل، وقد خمّنتُ بأنها لم تكن من الصنف الذي يعجبه الكعب العالي المدبب؛ فهي نفسها كانت ترتدي حذاء جلدياً معقولاً مسطح الكعب.

قال هاردكاسل: شكراً يا آنسة مارتنديل، أنا آسف لأني أخذت قَدْراً من وقتك، وإذا تذكرتِ شيئاً...

قالت الآنسة مارتنديل باقتضاب: طبعاً.

وبينما كنا ندخل السيارة قلت: إذن فقد تبين أن ما روته شيلا ويب صحيح تماماً رغم ما لديك من شكوك؟

فقال ديك: حسناً، حسناً، أنت تفوز.

* * *

الفصل الخامس

كان آرني كيرتن يلهو بتسيير نموذج معدني صغير فوق زجاج النافذة مُرفقاً ذلك بصوت فيه أزيز وأنين قاصداً محاكاة سفينة فضاء صاروخية تشق الفضاء في طريقها إلى المريخ، وفجأة أمسك عن لهوه وهتف: أمي!

لم تردّ السيدة كيرتن ذات الوجه الصارم التي كانت منشغلة بغسل الصحون في حوض المطبخ، ولم تَمضِ لحظات حتى قال لها: أمي، لقد توقفت سيارة شرطة خارج بيتنا.

فردت عليه السيدة كيرتن وهي تصفّ الأكواب والصحون فوق رف التنشيف محذِّرة: إياك أن تلقي إليّ بمزيد من أكاذيبك، تذكر ما قلته لك عن ذلك سابقاً.

فقال آرني باحتشام: أنا لا أفعل ذلك، ولكنها حقاً سيارة شرطة خرج منها رجلان.

فالتفتت السيدة كيرتن بسرعة نحو ابنها وسألته: حسناً، ماذا فعلت؟ تجلب لنا العار، أليس كذلك؟ هذه هي الحقيقة.

قال آرني: بالطبع لم أفعل شيئاً، لم أفعل أي شيء.

فقالت السيدة كيرتن: أنه لعبك مع آلف هذا هو وعصابته. لقد

قلتُ لك أنا وأبوك بأن العصابات ليست لائقة؛ ففي نهاية المطاف تكون المتاعب؛ في بادئ الأمر ستحاكَم في محكمة الأحداث، ثم إلى الإصلاحية دون شك. لن أسمح بحدوث ذلك، أتسمع؟

فقال آرني: إنهما يتجهان إلى الباب الأمامي.

تركت السيدة كيرتن الحوض وانضمت إلى ولدها عند النافذة، وفي تلك اللحظة قُرع الباب، فذهبَت السيدة كيرتن عبر الممر وهي تمسح يدَيها بسرعة بمنشفة، ثم فتحت الباب ونظرت بتحدّ وريبة إلى الرجلين الواقفَين عند عتبة بابها. قال أطول الاثنين بلطف: السيدة كيرتن؟

- نعم.

- هل لي أن أدخل لحظة؟ أنا المفتش هاردكاسل.

تراجعت السيدة كيرتن إلى الوراء غير راغبة، ثم فتحت باباً وأشارت إلى المفتش بالدخول. كانت غرفة أنيقة جداً نظيفة وصغيرة وتوحي بعدم دخول أحد إليها إلا نادراً، وهو الانطباع الذي كان صحيحاً تماماً. وجاء آرني بدافع الفضول من المطبخ عبر الممر وحشر نفسه في الباب، فقال مفتش التحري هاردكاسل: هذا ولدك؟

- نعم.

ثم أضافت بلهجة عدوانية: إنه فتى طيب مهما قلتَ.

فقال المفتش هاردكاسل بأدب: أنا متأكد من ذلك.

استرخى بعض ما في وجه السيدة كيرتن من توتر، فقال المفتش: لقد جئت لأوجّه لك بعض الأسئلة بشأن المنزل رقم ١٩ في

شارع هلال ولبراهام، فقد علمت أنك تعملين هناك.

قالت السيدة كيرتن غيرَ قادرة على التخلص من مزاجها السابق: لم أدّعِ غير ذلك قط.

- لحساب الآنسة ميليسنت بيمارش؟

- نعم، أعمل لحساب الآنسة بيمارش. إنها سيدة طيبة جداً.

فقال المفتش: وهي كفيفة.

- أجل، مسكينة. لكنك لن تلاحظ ذلك؛ فلديها طريقة رائعة تستطيع بها أن تضع يدها على أي شيء وأن تتلمس طريقها إلى ما تريد. تخرج إلى الشارع أيضاً وتعبر تقاطع المشاة، وهي ليست من النوع الذي يثير ضجة لأي سبب كبعض مَن أعرف من الناس.

- هل تعملين هناك في أوقات الصباح؟

- نعم، أصل ما بين التاسعة والنصف والعاشرة وأغادر في الثانية عشرة أو عندما أنتهي.

ثم قالت بحدّة: لا أعتقد أن شيئاً ما قد سُرق، أليس كذلك؟

فقال المفتش وفي ذهنه الساعات الأربع: على العكس تماماً.

نظرت السيدة كيرتن إليه مستفهمة وقالت: ما المشكلة إذن؟

- لقد وُجد رجل مقتول في غرفة الجلوس في ذلك المنزل عصر اليوم.

حملقت السيدة كيرتن ذاهلة، أما آرني فقد تمايل مستمتعاً وفتح فمه ليقول شيئاً، لكن خطر بباله أن جذب الانتباه لوجوده ليس من العقل في شيء فأغلقه ثانية، في حين قالت السيدة كيرتن

غيرَ مصدّقة: مقتول!

ثم تابعت بمزيد من عدم التصديق: في غرفة الجلوس؟!

- نعم، لقد طُعِن.

- أتقصد أنها جريمة قتل؟

- نعم، جريمة قتل.

تساءلت السيدة كيرتن قائلة: من الذي قتله؟

- لم نتوصل إلى ذلك بعد؛ وقد خطر لنا أنك قد تستطيعين مساعدتنا.

فقالت السيدة كيرتن مؤكدة: لا أعرف شيئاً عن جريمة قتل.

- نعم، ولكن برزت نقطة أو اثنتان، وعلى سبيل المثال: هل زار أي رجل البيتَ صباح هذا اليوم؟

- لا، لا أذكر ذلك... ليس اليوم. أي نوع من الرجال هو؟

- رجل كبير السن في نحو الستين، محترَم الهندام ذو حُلة داكنة، وقد يكون عرّف نفسه بصفته وكيل تأمين.

قالت السيدة كيرتن: ما كنت لأسمح له بالدخول، لا لوكلاء التأمين ولا لأحد من باعة المكانس الكهربائية أو نسخ الموسوعة البريطانية... لا شيء من هذا القبيل، فلا أنا ولا الآنسة بيمارش نقر البيع عند الأبواب.

- يُدعى الرجل «السيد كاري» حسب بطاقة كانت معه، فهل سمعت بهذا الاسم من قبل؟

هزت رأسها بالنفي ثم قالت بشك: كاري، كاري؟ يبدو لي هندياً.

قال المفتش هاردكاسل: لا، ليس هندياً.

- من الذي عثر عليه؟ الآنسة ببمارش؟

- بل سيدة شابة، طابعة اختزال كانت قد جاءت ظناً منها -بسبب سوء الفهم- بأنها قد أُرسلَت لتقوم بعمل للآنسة ببمارش. هي التي اكتشفت الجثة، وكانت الآنسة ببمارش قد عادت في ذات الوقت تقريباً.

تنهدت السيدة كيرتن بعمق وقالت: يا للحيرة، يا للحيرة!

قال المفتش هاردكاسل: قد نطلب منك لاحقاً أن تلقي نظرة على الجثة لتخبرينا ما إذا كنتِ قد التقيت به في شارع ولبراهام أو إذا ما كان قد زار المنزل قبلاً، والآنسة ببمارش متأكدة تماماً من أنه لم يأتِ هناك قط. والآن لديّ نقاط عديدة أخرى أريد معرفتها: هل يمكنك أن تتذكري عدد الساعات التي كانت في غرفة الجلوس.

أجابت دون لحظة تفكير واحدة: توجد تلك الساعة الكبيرة في الزاوية وساعة العصفور على الحائط. إنه يقفز خارجاً فيقول: «كوكو». ألم يجعلك تقفز أحياناً؟

ثم أضافت مسرعة: أنا لم ألمس أياً منهما؛ لا أفعل ذلك أبداً، والآنسة ببمارش تحب أن تملأهما بنفسها.

فطمأنها المفتش قائلاً: لم يصِبهما شيء. هل أنت متأكدة من أنهما كانتا الساعتين الوحيدتين في الغرفة هذا الصباح؟

- طبعاً، وما الذي يمكن أن يكون غيرهما؟

- ألم تكن هناك ساعة فضية مربعة صغيرة مثلاً، أو ساعة مذهبة صغيرة على رف المدفأة، أو ساعة خزفية مزخرفة بالورد، أو ساعة جلدية مكتوب عليها اسم روزماري عبر الزاوية؟

- طبعاً لم تكن، لا شيء من هذا القبيل.

- هل كنت ستلاحظينها لو كانت هناك؟

- بالطبع كنت سأفعل.

- كل واحدة من هذه الساعات الأربعة كانت تشير إلى الوقت بزيادة ساعة واحدة عن ساعة العصفور والساعة الكبيرة.

- لا بد أنها ساعات أجنبية؛ أنا وزوجي سافرنا في حافلة إلى سويسرا وإيطاليا ذات مرة، وكانت هذه الدول كلها تزيد علينا بساعة كاملة. لا بد أن لهذا علاقة بالسوق الأوروبية المشتركة. أنا لا أُقر السوق المشتركة ولا زوجي السيد كيرتن، فإنكلترا تروق لنا بما فيه الكفاية.

أبى المفتش هاردكاسل أن يُقحم نفسه في السياسة وقال: أتسمحين بأن تخبريني متى غادرتِ منزل الآنسة بيمارش بالضبط هذا الصباح؟

- في الثانية عشرة والربع بالضبط.

- هل كانت الآنسة بيمارش في البيت حينذاك؟

- لا، لم تكن قد عادت بعد. إنها تعود ما بين الثانية عشرة والثانية عشرة والنصف عادة؛ ولكن هذا الموعد قد يتغير.

- ومتى كانت قد تركت المنزل؟

- قبل أن أصل هناك في العاشرة كالعادة.

- حسناً، أشكرك يا سيدة كيرتن.

قالت السيدة كيرتن: هذه الساعات يبدو أمرها غريباً! ربما كانت الآنسة بمارش قد ذهبت إلى مزاد. هل كانت هذه الساعات أثرية؟ إنها تبدو كذلك حسب ما تقول.

- هل تتردد الآنسة بمارش على المزاد؟

- لقد اشترت لفافة من السجاد قبل نحو أربعة أشهر من المزاد بحالة جيدة جداً ورخيصة جداً كما أخبرتني، واشترت ستائر مخملية أيضاً. صحيح أنها كانت أطول مما ينبغي لكنها كانت في مثل جودة الجديد حقاً.

سأل هاردكاسل: ولكن ألا تشتري عادة تحفاً أو أشياء من قبيل الصور أو الخزف وما إلى ذلك من المزاد؟

فهزّت السيدة كيرتن رأسها بالنفي قائلة: إنها لا تشتري هذه الأشياء بقدر ما أعرف عنها، ولكن بالطبع لا تثريب على المرء في المزاد، أليس كذلك؟ أعني أنك تنجرف في الشراء، وحينما تصل إلى البيت تقول لنفسك: "ما حاجتي إليها؟". لقد اشتريتُ ذات مرة ستة أوعية من المربى، وحين فكرت في الأمر وجدت أنه كان بإمكاني تحضيرها بنفسي وبكلفة أقل، والأكواب والصحون أيضاً كان باستطاعتي الحصول على أحسن منها في سوق الأربعاء.

ثم هزّت رأسها بأسى. وخامر المفتش هاردكاسل شعورٌ بأنه لم يَعُد لديه ما يرغب بمعرفته في ذلك الوقت، فاستأذن بالمغادرة.

بعد مغادرته أسهم آرني بدوره في القضية التي كانت موضع

نقاش فصاح: جريمة قتل؟ هذا مثير!

ولفترة وجيزة أزاح آرني من ذهنه غزوَ الفضاء الخارجي لصالح موضوع جديد أكثر جاذبية، فسأل أمه بنبرة لطيفة: لم تقتله الآنسة ببمارش، أليس كذلك؟

صاحت به: لا تتفوّه بهذه الحماقات.

ثم خطرت على بالها فكرة فقالت: لا أدري ما إذا كان ينبغي عليّ أن أخبره.

- أن تخبريه بماذا يا أمي؟

ردّت عليه السيدة كيرتن: لا تشغل بالك أنت، ليس أمراً مهماً.

* * *

الفصل السادس
(برواية كولن لامب)

أطلق ديك هاردكاسل زفرة ارتياح بعد أن فرغنا من تناول قطعتَي لحم أُعدّتا بطريقة فاخرة وشربنا جرعات من العصير، وأعلن أنه يشعر بتحسن، ثم قال: سحقاً لوكلاء التأمين الموتى والساعات المزركَشة والفتيات الصارخات! دعني أسمعِ أخبارك يا كولن، ظننتُ أنك قد انتهيتَ من هذا الجزء من العالَم، ولكن ها أنت لا تزال تجوب شوارع كراودن الخلفية! أؤكد لك أنه لا مجال لمختص في الأحياء البحرية هنا في كراودن.

- لا تسخر من الأحياء البحرية يا ديك! إنه موضوع نافع جداً، ولكن مجرد ذكره يُضجر الناس ويجعلهم يخشون قيامك بالتحدث عنه لدرجة أنك لن تفكر أبداً في الاسترسال في حديثك.

- لا أمل في أن تبوح بشيء عن نفسك، أليس كذلك؟

فقلت ببرود: لقد نسيتُ أنني مختص في الأحياء البحرية فعلاً وأنني قد نلت شهادة فيها من جامعة كامبردج. لم تكن شهادة جيدة جداً، ولكنها شهادة على أية حال. إنها مادة ممتعة جداً، وسأعود إليها ذات يوم.

- أنا على علم بعملك طبعاً وأقدم لك تهنئتي. ستجري محاكمة لاركن في الشهر القادم، أليس كذلك؟

- بلى.

- مذهلة تلك الطريقة التي كان يتدبر بها أمر مواصلة تسريب الأسرار لمدة طويلة، مما يجعلك تعتقد أن أحداً ما كان يجب أن يشكّ فيه.

- لم يفعلوا كما تعلم، فما إن يرسخ في ذهنك أن أحد الناس رجل جيد عموماً فلن تشك أنه ليس كذلك.

علّق ديك قائلاً: لا بد أنه كان ذكياً!

هززت رأسي وقلت: لا، لا أعتقد أنه كذلك حقاً، بل أعتقد أنه كان يفعل ما يؤمَر به فحسب. لقد كان لديه منفذ للوصول إلى وثائق مهمة جداً، كان يُخرجها فتُصوَّر وتُعاد إليه، ثم تُعاد ثانية إلى حيث كانت في اليوم نفسه. يوجد تنظيم جيد، فقد عوّد نفسه على تناول الغداء في أماكن مختلفة كل يوم، ونحن نعتقد أنه كان يعلّق معطفه حيث كان يوجد دائماً معطف مثله بالضبط، مع أن صاحب المعطف الآخر لم يكن نفس الرجل دائماً، فكانت المعاطف يتم تبادلها، لكن الشخص الذي يبدلها ما كان ليكلم لاركن مطلقاً ولا يكلمه لاركن بدوره. نودّ معرفة المزيد عن آلية ذلك؛ فهذه الأمور كانت مخطَّطة ببراعة فائقة مع توقيت ممتاز ويقف وراءها عقل ذكي.

سأله هاردكاسل: ألهذا السبب ما زلت تحوم حول المحطة البحرية في بورتلبري؟

- نعم، نحن نعرف طرفها البحري ونعرف أيضاً طرفها

اللندني. إننا نعلم تماماً متى وأين وكيف تَسلم لاركن أجوره، غير أنه توجد فجوة؛ فبين الطرفين وسيط مجهول، وهذا هو الجزء الذي نودّ معرفة المزيد عنه لأنه هو الجزء الذي يوجد فيه العقل المدبر. في مكان ما يوجد مركز قيادة جيد جداً ذو تخطيط ممتاز.

تساءل هاردكاسل بفضول قائلاً: ما الذي دفع لاركن للقيام بذلك؟ أمن أجل قناعات سياسية أم من أجل المال السهل؟

فأجبته قائلاً: لم تكن لديه قناعات... في رأيي أنه المال فحسب.

- ألم يكن باستطاعتكم التوصل إلى معرفته عن هذا الطريق؟ لقد أنفق النقود ولم يقُم بإخفائها، أليس كذلك؟

- آه، بلى، بل كان يبعثرها يميناً وشمالاً، وفي الواقع عرفناه قبل أن نعلن بفترة.

فأومأ هاردكاسل برأسه موافقاً وقال: لقد فهمت، أي أنكم قررتم استخدامه قليلاً، أليس هذا هو ما تعنيه؟

- تقريباً، إذ إنه كان قد سرّب بعض المعلومات المهمة جداً قبل أن نتوصل إلى معرفته، وهكذا تركناه يسرب المزيد منها، وهي الأخرى كانت مهمة بشكل واضح. في الدائرة التي أعمل بها ينبغي علينا التظاهر بالغفلة أحياناً.

قال هاردكاسل مفكراً: لا أعتقد أن عملك يعجبني يا كولن.

فقلت له: إنه ليس بالعمل المثير كما يعتقد الناس؛ فهو مضجر بشكل واضح. ولكن يوجد شيء أكثر من الضجر، ففي هذه الأيام ينتاب المرءَ شعورٌ بأنه ما من شيء يبقى سراً. نحن نعرف

أسرارهم وهُم يعرفون أسرارنا، وكثيراً ما يكون عملاؤنا عملاء لهم وعملاؤهم كثيراً ما يكونون عملاء لنا، وفي النهاية فإن معرفة مَن يخون مَن تصبح كابوساً. يخيل إليّ أحياناً أن أي طرف على علم بأسرار الطرف الآخر، وأن الطرفين يدخلان في نوع من التآمر ليتظاهرا بعكس ذلك.

قال ديك متأملاً: أفهم ما تعنيه.

ثم نظر إليّ مستلطفاً وقال: لقد فهمت سبب كونك ما تزال تحوم حول بورتلبري، لكن كراودن تبعد عن بورتلبري عشرة أميال.

فقلت له: ما أبحث عنه حقاً هو الأهِلّة.

لاحت الحيرة على هاردكاسل وقال: الأهِلّة!

- نعم، أو بمعنى آخر الأقمار، أقمار جديدة، أقمار طالعة وهلمّ جراً. لقد بدأت بتحرياتي في بورتلبري نفسها حيث يوجد مقهى هناك يسمى «مقهى القمر»، وقد ضيّعت عليه وقتاً طويلاً حيث بدا نموذجياً. ثم وجدت «القمر والنجوم» و«القمر الطالع» و«القمر البهيج»، وكل ذلك كان في مكان صغير يُدعى سيميد، ولا شيء يُجدي. ثم هجرت الأقمار وبدأت بحثي في الأهِلّة، أهلة عديدة في بورتلبري... هلال لانزبري وهلال ألدريغ وهلال ليفرميد وهلال فكتوريا.

لمحتُ وجه ديك المذهول فأخذت أضحك وقلت: لا تُطِل النظر يا ديك، لقد حصلت على شيء ملموس يجعلني أنطلق.

ثم أخرجتُ حافظة نقودي فسحبت منها قصاصة ورق وناولته إياها. كانت ورقة ملاحظات من النوع المستخدَم في الفنادق وقد

رُسِم عليها رسم بسيط بشكل هلال أمامه رقم «٦١» وتحته حرف الميم. قلت: هذه الورقة وُجدت في محفظة أحد رجالنا واسمه هانبري، وكان هانبري قد أنجز الكثير من العمل في قضية لاركن. كان جيداً جداً، وقد تعرض لحادث دعس في لندن وهربت السيارة ولم يلتقط رقمَها أحد. لا أفهم ما تعنيه، لكنها شيء رسمه هانبري على عجل أو نسَخَه لأنه كان يعتقد بأهميته. هل كانت تلك فكرة طرأت على باله أم أنها لشيء رآه أو سمعه؛ شيء له علاقة بقمر أو هلال؟ فتوليت المهمة بعد موته. ولا أعرف عن أي شيء أبحث حتى الآن، ولكنني واثق تماماً من وجود شيء يمكن العثور عليه. لا أعرف ما يعنيه الرقم «٦١» ولا حرف «م». أنا أعمل ضمن نصف قطر يمتد من بورتلبري فما حوله... ثلاثة أسابيع من الكفاح المتواصل بلا نتيجة. إن كراودن تعترض سبيلي، وهذا كل ما لديّ عنها. بصراحة -يا ديك- لم أكن أتوقع الكثير جداً من كراودن، إذ يوجد هلال واحد هنا هو هلال ولبراهام، وقد كنت عازماً على القيام بجولة على الأقدام في هلال ولبراهام لأرى ما عسى أن أفكر فيه بشأن الرقم ٦١ قبل أن أسألك عن أية معلومات قد تعينني. هذا ما كنت أفعله عصر هذا اليوم، لكنني لم أعثر على رقم ٦١.

- كما أخبرتك، فالرقم ٦١ يشغله بنّاء محلي.

- وليس هذا ما أبحث عنه. هل تلقّى معونة من خارج البلاد من أي نوع؟

- هذا مُحتمَل، فعدد كبير من الناس يفعلون ذلك في هذه الأيام، وإذا حدث فسوف يسجَّل. سأتحرى لك بهذا الخصوص غداً.

- شكراً يا ديك.

- سأقوم بتحقيقات عادية غداً في المنزلين اللذين على جانبَي رقم ١٩ ، وسوف أتبين ما إذا كانوا قد شاهدوا أحداً يدخل البيت مثلاً، وقد أشمل البيوت التي تقع خلف رقم ١٩ ، تلك التي تتصل حدائقها به. أنا أرجّح أن رقم ٦١ يقع خلف رقم ١٩ مباشرة، ويمكنني اصطحابك إن شئت.

تعلّقتُ بالعرض متشوقاً وقلت: سأكون بمثابة عريفك لامب وأقوم بتدوين ملاحظاتك بالاختزال.

واتفقنا على أن أحضر إلى مركز الشرطة في التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي.

* * *

وصلت في الصباح التالي في الموعد المتفَق عليه بدقة فوجدت صاحبي وقد استشاط غضباً، وبعد أن صرف تابعه التعِس تساءلت بلطف عمّا جرى، ولبرهة بدا هاردكاسل غير قادر على الكلام ثم غمغم قائلاً: تلك الساعات اللعينة!

- الساعات من جديد! ما الذي حدث هذه المرة؟

- إحداها مفقودة.

- مفقودة! أي منها؟

- ساعة السفر الجلدية، تلك التي كُتب على زاوية منها اسم روزماري.

صفرت بفمي وقلت: يبدو هذا غريباً! وكيف حدث ذلك؟

- أولئك الحمقى... وأنا واحد منهم حقاً.

كان ديك رجلاً نزيهاً جداً، وقد أكمل قائلاً: ينبغي على المرء أن يكون يقظاً ودقيقاً جداً وإلا سارت الأمور بشكل خاطئ. حسناً، كانت الساعات موجودة بالتأكيد في غرفة الجلوس أمس، وقد طلبت من الآنسة ببمارش أن تتلمسها كلها عسى أن تتعرف عليها فلم تستطع، ثم جاؤوا ليأخذوا الجثة.

- ثم ماذا؟

- خرجت إلى البوابة للإشراف عليهم، ثم عدت إلى البيت وتحدثت مع الآنسة ببمارش التي كانت في المطبخ وقلت إني يجب أن آخذ الساعات معي وإني سأعطيها إيصالاً بها.

- أتذكّر ذلك، لقد سمعتك.

- ثم قلت للفتاة إني سأرسلها إلى بيتها في إحدى سياراتنا، وطلبت منك أن توصلها إلى السيارة.

- أذكر ذلك أيضاً.

- وسلمت الآنسة ببمارش الإيصال رغم قولها إنه لم يكن ضرورياً لكون الساعات ليست لها، ثم لحقت بك فأخبرت إدواردز بأني أريده أن يلفّ الساعات التي في غرفة الجلوس بعناية وأن ينقلها إلى هنا كلها باستثناء ساعة العصفور والساعة الكبيرة. وهنا يكمن خطئي؛ كان يجب أن أقول وبوضوح تام: «الساعات الأربع». يقول إدواردز إنه دخل على الفور وعمل بما أمرته، وهو يصرّ على وجود ثلاث ساعات عدا الاثنتين المثبتتين.

فقلت له: ولكن ذلك لا يُتيح وقتاً طويلاً؛ وهذا يعني...

- يعني أن من المحتمَل أن تكون السيدة ببمارش هي التي

فعلت ذلك، فمن الممكن أن تكون قد خطفت الساعة بعد أن غادرتُ الغرفة وأخذتها معها مباشرة إلى المطبخ مثلاً.

- صحيح، ولكن لماذا؟

- علينا أن نعرف أشياء كثيرة. هل يوجد أي شخص آخر؟ أيُحتمل أن تكون الفتاة قد فعلت ذلك؟

فكرتُ قليلاً قبل أن أقول: لا أظن ذلك، أنا...

لكنني توقفت مسترجعاً شيئاً، فقال هاردكاسل: لقد فعلَت ذلك! هيا، استمر في كلامك، متى حدث هذا؟

قلت بانزعاج: كنا قد توجهنا لتوّنا نحو سيارة الشرطة، وكانت قد نسيَت قفازيها هناك كما قالت، فقلت لها: "سآتيك بهما" فقالت: "لا، فأنا أعرف أين وضعتهما ولا مانع لديّ الآن وقد أخذوا الجثة". ثم جرت عائدة إلى البيت، ولكنها لم تمكث سوى دقيقة واحده.

- هل كانت ترتدي قفازيها أم تحملهما في يدها عندما عادت إليك؟

ترددت ثم قلت: نعم، نعم، أظن أنها كانت ترتديهما.

قال هاردكاسل: واضح أنها لم تكن ترتديهما، وإلا لما كنتَ ترددت.

- ربما كانت قد وضعتهما في حقيبتها.

قال هاردكاسل بلهجة الاتهام: المشكلة هي أنك وقعت في حبائل تلك الفتاة.

فدافعت عن نفسي بقوة قائلاً: لا تكن معتوهاً، لقد التقيت

بها للمرة الأولى عصر يوم أمس، وليس هذا بالضبط ما تسميه أنت بالمقدمات الغرامية.

قال هاردكاسل: لستُ متأكداً من ذلك، فلا يحدث كل يوم أن ترمي فتاة نفسها بين ذراعَي شاب صارخة تطلب النجدة على الطريقة الفكتورية المتعارَف عليها، مما يجعل المرء يشعر بأنه بطل وأنه فارس شجاع. كل ما عليك هو أن تكف عن حمايتها؛ فقد لا يكون في علمك أن الفتاة قد تكون غارقة حتى رقبتها في جريمة القتل هذه.

- أتريد القول إن هذه الفتاة الضئيلة غرست سكيناً في رجل ثم أخفَتها في مكان ما بعناية لدرجة أن أحداً من رجالك لم يتمكن من العثور عليها، ثم اندفعت بعد ذلك تجري خارج المنزل وتظاهرت بالصراخ، وقد مثّلت كل ذلك عليّ أنا؟!

قال هاردكاسل بتجهم: قد تصاب بالدهشة لو علمت بما مررت به خلال عملي.

فسألته بحنق: ألا تعلم بأن حياتي كانت زاخرة بالجاسوسات الحسناوات من كل جنسية؟ أنا محصَّن ضد كل الإغراءات الأنثوية.

قال هاردكاسل: لكل جواد كبوة! الأمر كله يتوقف على نوعها، ويبدو أن شيلا هي نوعك المفضل.

- على أية حال لا يمكنني أن أفهم لِمَ أنت بهذه الحماسة لإلصاق التهمة بها!

تنهد هاردكاسل قائلاً: أنا لا ألصق التهمة بها، لكن عليّ الانطلاق من نقطة ما، فالجثة وُجدت في منزل ببمارش (وهذا

الأمر يجعلها مشمولة بالشك)، والفتاة ويب هي التي عثرت على الجثة، ولا حاجة بي لأن أخبرك كم مرة يكون فيها الشخص الذي يعثر على جثة أولاً هو آخر من يرى صاحبها على قيد الحياة. وإلى أن تبرز حقائق أخرى فكلتاهما باقيتان في الصورة.

- عندما دخلتُ تلك الغرفة بعد الساعة الثالثة كان الرجل قد فارق الحياة لنصف ساعة على الأقل، وربما أكثر من ذلك، فما رأيك؟

- لقد تناولت شيلا ويب غداءها ما بين الساعة الواحدة والنصف والثانية والنصف.

نظرتُ إليه بحنق وسألته: ما الذي توصلتَ إليه بخصوص كاري؟

فقال هاردكاسل بمرارة غير متوقعة: لا شيء.

- ماذا تعني بلا شيء؟

- أعني أنه لا وجود له، لا وجود لمثل هذا الشخص!

- وماذا يقولون في شركة متروبولس للتأمين؟

- لا شيء لديهم ليقولوه أيضاً لأنه لا يوجد شيء من هذا القبيل، شركة التأمين هذه لا وجود لها. وبقدر ما نعلم أن اسمه هو السيد كاري من شارع دنفرز، فإنه لا وجود للسيد كاري ولا شارع دنفرز ولا رقم ٧ أو أي رقم آخر.

علّقت قائلاً: أمر مثير! أتعني أنه كان يحمل بطاقة مزيفة تحمل اسماً وعنواناً وشركة تأمين مزيفه؟

- أظن ذلك.

- ما الفكرة الأرجح في رأيك؟

هزّ هاردكاسل كتفيه وقال: إنها مسألة تخمين في الوقت الحاضر. ربما كان يقوم بتحصيل أقساط مزيفة، وربما كان يدخل البيوت بهذه الطريقة ليمارس بعض الحيل بعد كسب الثقة، وربما كان نصاباً أو سارق أشياء صغيرة أو وكيل تحريات خاصاً... لا نعلم بالضبط.

- ولكنكم ستعرفون.

- آه، نعم، سنعرف في النهاية. لقد بعثنا بصمات أصابعه لنعرف ما إذا كان لديه أية سوابق من أي نوع، فإن كان لديه شيء من ذلك فسيكون خطوة مهمة على الطريق، وإلا ازداد الأمر تعقيداً إلى حد ما.

فقلت متأملاً: رجل تحريات خاص؟ أنا أميل إلى ذلك نسبياً؛ فهذا يفتح الباب أمام الاحتمالات.

- الاحتمالات هي كل ما لدينا الآن.

- ومتى سيجري الاستجواب أمام هيئة المحلفين؟

- بعد غد. سيكون رسمياً تماماً، ثم يتبعه قرار تأجيل.

- ما الدليل الطبي؟

- آه، طَعن بآلة حادة، شيء كسكين خضار حادة.

قلت متأملاً: هذا يُبعد الشبهة عن الآنسة بيمارش، أليس كذلك؟ من الصعب على امرأة مكفوفة أن تطعن رجلاً. إنها مكفوفة حقاً، أليس كذلك؟

- آه، بلى، إنها مكفوفة، لقد تأكدنا من ذلك، وهي بالضبط كما تدّعي، فقد كانت معلمة رياضيات في مدرسة في شمال البلاد وفقدت بصرها قبل ستة عشر عاماً، ثم تدربت على طريقة برايل... وأخيراً حصلت على وظيفة في معهد آرونبرغ هنا.

- أيمكن أن تكون مصابة بلوثة عقلية؟

- مع هذا الولع بالساعات ووكلاء التأمين؟

لم أستطع الإحجام عن التحدث بشيء من الحماسة قائلاً: القصة بكل تفصيلاتها أوسع خيالاً من مجرد كلمات، مثل أريادني أوليفر في أسوأ لقطاتها أو الراحل غاري غريغسون في قمة مجده.

- واصل كلامك، متّع نفسك، فلستَ أنت مفتش التحري البائس المطلوب منه أن يُرضي مشرفاً أو مراقباً عاماً أو رئيس شرطة!

- حسناً، لعلنا نحصل على شيء مفيد من الجيران.

قال هاردكاسل بمرارة: أشكّ في ذلك؛ فلو أن ذلك الرجل طُعن في الحديقة الأمامية وقام رجلان مقنّعان بنقله إلى داخل البيت ما كان لينظر أحد من النافذة أو يرى أي شيء. ليست هذه بقرية لسوء الحظ الشديد؛ إن هلال ولبراهام حي سكني محترَم، فعند الساعة الواحدة تكون النسوة اللائي يخرجن نهاراً ممن يُحتمَل أن يشاهدن أي شيء قد عدن إلى بيوتهن، فلا تجد ولا حتى عربة أطفال تُدفَع في الطريق.

- ألا وجود لمُسِنّ مقعَد جالس طول النهار بجوار النافذة؟

- ذلك ما نريده، لكنه ليس ما عندنا.

- وما رأيك في رقمَي ١٨ و٢٠؟

- ماذا عنهما؟

- رقم ١٨ يشغله السيد وترهاوس (وهو موظف إداري يعمل لحساب جينسفورد وسوتينهام المحاميَين) وأخته التي تُمضي أوقات فراغها في مداراته، أما رقم ٢٠ فكل ما أعرفه عنه أن المرأة التي تسكنه تؤوي نحو عشرين قطة.

- أنا لا أحب القطط.

قلت: إن حياة الشرطي شاقة!

ومن ثَم انطلقنا في طريقنا.

* * *

الفصل السابع

التفت السيد وترهاوس نحو أخته بانزعاج وهو يتلكأ مترنحاً على درجات المنزل رقم ١٨ في هلال ولبراهام، ثم قال: هل أنتِ متأكدة من أنك ستكونين بخير؟

بدا على الآنسة وترهاوس شيء من السخط قائلة: لا أدري حقاً ماذا تعني يا جيمس.

بدا السيد وترهاوس معتذراً، وكثيراً ما استوجب أن يبدو كذلك لدرجة أنه أصبح المقياس العام لكونه راضياً، وقال: حسناً، كنت أعني فقط -يا عزيزتي- أن تأخذي ما حدث أمس في البيت المجاور بعين الاعتبار.

كان السيد وترهاوس قد استعدّ للذهاب إلى مقر عمله في مكتب المحاماة. كان رجلاً أنيقاً ذا كتفين تهدّلتا قليلاً وشعر رمادي ووجه رمادي أكثر مما هو وردي، رغم أنه لم يَبدُ مفتقراً إلى العافية. أما الآنسة وترهاوس فقد كانت طويلة القامة بارزة العظام، من نوع لا يذكر أحداً بسوء ولا يُحب أن يذكره أحد بسوء. قالت له: هل يوجد مبرر يدعو لقتلي هذا اليوم لمجرد أن شخصاً ما قُتل في البيت المجاور يا جيمس؟!

قال السيد وترهاوس: حسناً يا إديث، الأمر يتوقف على

مرتكب الجريمة، أليس كذلك؟

- أتعتقد حقاً أن شخصاً ما يروح ويغدو في هلال ولبراهام منتقياً ضحية من كل بيت؟! حقاً يا جيمس إن هذا نوع من العبث. ليتني أدرك مَن عساه يأتي هنا محاولاً قتلي أنا.

فكّر أخوها محدّثاً نفسه بأن ذلك يبدو مستبعَداً جداً بالفعل، فلو كان هو نفسه الذي يختار الضحية لما اختار أخته، ولو حاول شخص ما شيئاً كهذا فالاحتمال كبير جداً أن يُضرب بقضيب الموقد أو مسند الباب، ثم يتم تسليمه إلى الشرطة مُهاناً ينزف بشدة!

قال ولهجة الاعتذار تزداد عمقاً: إنما كنت أعني أنه من الواضح وجود شخصيات غير مرغوب فيها بالجوار.

- ما زلنا نجهل الكثير حول ما حدث، وقد راجت في الأنحاء كل أنواع الإشاعات، وكان لدى السيدة هيد عدد من القصص الغريبة هذا الصباح.

- أتوقّع ذلك، أتوقع ذلك.

ونظر إلى ساعته. لم تكن لديه رغبة حقيقية في سماع قصص تأتي بها الشغالات الثرثارات يومياً، وأخته لم تبدد وقتها قط في تبديد تلك الأباطيل المزيَّفة، بل كانت تستمتع بها. قالت الآنسة وترهاوس: يقول بعض الناس إن ذلك الرجل كان أمين الصندوق أو مسؤول الخزانة في معهد آرونبرغ، وإنه وُجد تلاعب في الحسابات فجاء إلى الآنسة بيمارش ليتحقق من ذلك.

فعقّب السيد وترهاوس وقد بدا أنه انسجم بالموضوع: والآنسة بيمارش قتلته؟ امرأة كفيفة!

قالت الآنسة وترهاوس: لقد لفَّت قطعة سلك حول رقبته وخنقته، وهو لم يكن محتاطاً لهجوم كما يبدو؛ مَن سيفعل ذلك أمام امرأة كفيفة؟ أنا شخصياً لا أصدق ذلك. أنا متأكدة أن الآنسة بيمارش امرأة ذات شخصية ممتازة، وإذا كنت لا أتوافق معها في الرأي حول مواضيع مختلفة فلا يعني هذا أنني أحاول أن أنسب إليها طبيعة إجرامية. وعلى أية حال فتوجد أمور أخرى إلى جانب التعليم... وكل هذه المدارس الثانوية الغريبة المظهر، ولا سيما المبنية من الزجاج، يخال المرء أن الغرض منها هو زراعة الخضار! أنا واثقة أنها ضارة بالأطفال في أشهر الصيف؛ فالسيدة هيد ذاتها حكت لي أن ابنتها سوزان لا تحب فصولهم، وهي تقول إن من الصعب الانتباه للدروس بسبب تلك النوافذ الكثيرة التي لا تستطيع أن تُحجم عن النظر من خلالها طول الوقت.

قال السيد وترهاوس وهو ينظر إلى ساعته من جديد: يا إلهي، يا إلهي! حسناً، حسناً، سأتأخر كثيراً. وداعاً يا عزيزتي، اعتني بنفسك؛ يُستحسَن أن تُبقي الباب موصَداً بالسلسلة.

أغلقت الباب خلف أخيها، ثم أوشكت أن تصعد إلى الدور العلوي، لكنها توقفت مفكرة، ثم ذهبت إلى حقيبة الغولف فأخرجت مضرباً ووضعته في مكان بارز قرب الباب الأمامي، ثم قالت بشيء من الرضا: هذا مناسب تماماً.

وبالطبع فإن ما قاله جيمس هراء ليس أكثر، ومع ذلك فمن الأفضل الحذر دائماً، فطريقتهم في ترك المختلّين عقلياً خارج مصحاتهم هذه الأيام بقصد حثهم على ممارسة حياة عادية كانت في رأيها محفوفة بالمخاطر لجميع الناس الأبرياء.

* * *

كانت الآنسة وترهاوس في غرفة نومها عندما صعدت السيدة هيد الدرَج مسرعة. كانت السيدة هيد قصيرة القامة أشبه بالكرة المطاطية، وقد استمتعت عملياً بكل ما حدث فقالت بشغف: اثنان من السادة يريدان مقابلتك... ليسا سيدَين في الحقيقة، إنهما من الشرطة.

ودفعت إليها ببطاقة أخذتها الآنسة وترهاوس فقرأت فيها: «مفتش التحري هاردكاسل». ثم قالت للسيدة هيد: هل أدخلتهما إلى غرفة الاستقبال؟

- لا، بل إلى غرفة الطعام. كنت قد رفعت أطباق الإفطار وأحسب أن ذلك سيكون مكاناً مناسباً، أعني أنهما من الشرطة فحسب.

لم تنتبه الآنسة وترهاوس تماماً لتبريرها، وعلى أية حال فقد قالت: سأنزل إليهما.

قالت السيدة هيد: أتوقع أنهما سيطلبان التحدث إليك بشأن الآنسة ببمارش، ويريدان معرفة ما إذا كنتِ قد لاحظت أي شيء غريب على سلوكها. يقولون إن هؤلاء المختلين عقلياً يظهرون فجأة في بعض الأحيان فلا تتوفر سوى معلومات قليلة عنهم مقدماً، لكن يوجد دائماً شيء ما، طريقة ما في الكلام مثلاً كما تعلمين. ويمكنك معرفة ذلك من أعيُنهم حسبما يقولون، إلا أن ذلك لا ينطبق على امرأة عمياء، أليس كذلك؟

قالتها وهزت رأسها. ونزلت الآنسة وترهاوس فدخلت غرفة الطعام مع قدر من الفضول الممتع والمقنع بتظاهرها المعتاد بالشراسة. قالت: مفتش التحري هاردكاسل؟

- صباح الخير يا آنسة وترهاوس.

كان هاردكاسل قد نهض واقفاً وكان بصحبته شاب أسمر طويل القامة، ولم تكلف الآنسة وترهاوس نفسها عناء تحيته ولم تُعِر انتباهاً لقوله متمتماً: العريف لامب.

قال هاردكاسل: آمل أن لا أكون قد جئت باكراً جداً، لكن أحسبك تعرفين بالموضوع، فلا بدّ أنك سمعتِ بما حدث بجوارك يوم أمس.

- لا يمكن أن تبقى جريمة قتل في منزل مجاور للمرء دون ملاحظة، بل إنني اضطُررت لطرد عدد من المراسلين جاؤوا ليسألوني إن كنت قد لاحظت شيئاً.

- قمت بطردهم؟!

- طبعاً.

قال هاردكاسل: أنت مُحقة تماماً؛ إنهم بالطبع يحاولون أن يحشروا أنفسهم في أي مكان، ولكنني متأكد من أنك مؤهَّلة للتعامل مع أي شيء من هذا القبيل.

سمحت الآنسة وترهاوس لنفسها بأن تُبدي انعكاساً بسيطاً من السرور لهذه المجاملة، في حين قال هاردكاسل: آمل أن لا تمانعي في قيامنا بطرح أسئلة مشابهة، ولكن إن كنت قد رأيت فعلاً شيئاً قد يفيدنا فسنكون شاكرين جداً. هل كنتِ هنا في البيت في حينها؟

- لا أدري متى ارتُكبت الجريمة.

- حسب اعتقادنا ارتُكبت ما بين الساعة الواحدة والنصف والثانية والنصف.

- لقد كنت هنا في ذلك الوقت، نعم، بالتأكيد.

- وأخوك؟

- أخي لا يأتي إلى البيت لتناول الغداء. مَن القتيل بالضبط؟ يبدو أن هذا لم يُذكَر في الخبر القصير المنشور في الجريدة المحلية.

قال هاردكاسل: ما زلنا نجهل هويته.

- هل هو غريب؟

- هكذا يبدو.

- هل تعني أنه كان غريباً أيضا بالنسبة للآنسة بمارش؟

- لقد أكدت لنا الآنسة بمارش أنها لم تكن بانتظار هذا الضيف بالذات وأنها لا فكرة لديها عمّن يكون.

- لا يمكنها التأكد من ذلك؛ فهي كفيفة.

- لقد وصفناه لها وصفاً دقيقاً جداً.

- أي نوع من الرجال هو؟

أخرج هاردكاسل صورة من غلاف وقدمها لها قائلاً: هذا هو الرجل. هل لديك فكرة عمن يكون؟

نظرت الآنسة وترهاوس إلى الصورة وقالت: لا، لا، أنا متأكدة من أنني لم أرَه من قبل قط. يا إلهي! إنه يبدو شخصاً محترَماً جداً.

قال المفتش: أجل، يبدو كمحامٍ أو رجل أعمال من نوع ما.

- بالتأكيد، هذه الصورة لا تبدو محزنة أبداً، فهو يبدو كأنه نائم فحسب.

لم يخبرها هاردكاسل بأن هذه الصورة اختيرت من بين صور عديدة التقطها مصوّر الشرطة لكونها الأقل إيذاء للناظر. قال: الموت قد يكون أمراً هيناً، إذ لا أعتقد أن هذا الرجل بالذات كانت لديه أية فكرة عن أن الموت مقبل عليه عندما حدث له ذلك.

تساءلت الآنسة وترهاوس: وما الذي تقوله الآنسة بيمارش عن ذلك كله؟

- إنها في حيرة تامة.

قالت الآنسة وترهاوس معقّبة: إنه لأمر غريب!

- والآن، هل بإمكانك مساعدتنا بأي شكل يا آنسة وترهاوس؟ فلو عدتِ بذاكرتك ليوم أمس، هل كنت تنظرين خارج النافذة أو تصادف أن كنتِ في الحديقة... لنقُل في أي وقت بين الساعة الثانية عشرة والنصف والساعة الثالثة؟

أطرقت الآنسة وترهاوس قبل أن تجيب: نعم، لقد كنت في الحديقة فعلاً. دعني أفكر... لا بد أن ذلك كان قبل الساعة الواحدة، فقد دخلتُ البيت في نحو الساعة الواحدة إلا عشر دقائق عائدة من الحديقة، وغسلت يدي وجلست أتناول الغداء.

- هل رأيت الآنسة بيمارش تدخل أو تخرج من البيت؟

- أظن أنها دخلت لأنني سمعت صرير البوّابة، نعم، في وقت ما بعد الثانية عشرة والنصف.

- ألم تكلميها؟

- لم أفعل؛ صرير البوّابة هو الذي جعلني أرفع بصري فحسب. إنه موعد عودتها المعتاد، فهي تُنهي دروسها عندئذ كما أظن. إنها تدرّس في معهد الصغار المعاقين كما تعلم.

- استناداً إلى أقوالها خرجت الآنسة ببمارش ثانية في نحو الساعة الواحدة والنصف، فهل توافقين على ذلك؟

- حسناً، ليس باستطاعتي أن أخبرك بالوقت الصحيح، ولكن نعم، أتذكر بالفعل مرورها من أمام البوابة.

- معذرة يا آنسة وترهاوس، لقد قلتِ: مرورها من أمام البوابة؟

- بالتأكيد، فقد كنت في غرفة الجلوس التي تُطلّ على الشارع، في حين تُطل غرفة الطعام التي نجلس فيها الآن على الحديقة الخلفية كما ترى، إلا أنني أخذت قهوتي إلى غرفة الجلوس بعد الغداء وكنت جالسة أحتسيها على كرسي قرب النافذة. كنت أطالع جريدة «التايمز»، وأعتقد أنني كنت أقلب الصفحة عندما لمحت الآنسة ببمارش تجتاز البوابة الأمامية. هل من شيء غريب في ذلك يا حضرة المفتش؟

قال المفتش مبتسماً: لا، ليس غريباً، بل فهمت فقط أن الآنسة ببمارش كانت خارجة لشراء بعض الحاجات ثم الذهاب إلى مكتب البريد، وفكرت أن أقرب طريق إلى المتاجر والبريد هو أن تسلك الطريق المعاكس في الاتجاه الآخر من الهلال.

ردّت الآنسة وترهاوس: يعتمد ذلك على أي المتاجر تقصد. بديهي أن المتاجر أقرب في ذلك الاتجاه، كما أنه يوجد مكتب بريد في طريق ألباني.

- لكن الآنسة ببمارش ربما كانت تمر عادة من أمام بوابتكم في ذلك الوقت.

- حسناً، في الحقيقة لا أعرف في أي وقت كانت الآنسة ببمارش تخرج عادة أو في أي اتجاه، فلست مولَعة بمراقبة الجيران بأي شكل في الواقع يا حضرة المفتش؛ أنا امرأة كثيرة المشاغل ولديّ الكثير مما ينبغي عمله فيما يتعلق بشؤوني الخاصة. بعض من أعرف من الناس يُمضون وقتهم بالكامل ينظرون من النافذة ويرصدون من يمر ومن يزور مَن... هذه في الغالب عادة العاطلين أو الذين لا شيء عندهم يفعلونه أفضل من مراقبة جيرانهم والتطفل على شؤونهم الخاصة.

كانت الآنسة وترهاوس تتحدث بمزاج عكِر لدرجة أن المفتش أيقن أنها كانت تقصد شخصاً بعينه، فقال متعجلاً: "حسناً، حسناً". ثم أضاف قائلاً: ما دامت الآنسة ببمارش قد اجتازت بوابتكم الأمامية فلربما كانت ذاهبة لتُجري اتصالاً هاتفياً، أليس هذا محتمَلاً؟ أليس كشك الهاتف العمومي موجوداً هناك؟

- بلى، قبالة المنزل رقم ١٥.

- السؤال المهم الذي ينبغي أن أوجّهه إليك يا آنسة وترهاوس هو ما إذا كنت قد رأيت وصول هذا الرجل، «الرجل اللغز» كما أطلقَت عليه صحف هذا الصباح؟

هزت الآنسة وترهاوس رأسها بالنفي وقالت: لا، لم أرَه ولا رأيت أي زائر آخر.

- ماذا كنت تفعلين بين الواحدة والنصف والثالثة؟

- أمضيت نصف ساعة أحل جدول الكلمات المتقاطعة في

«التايمز» (أو أكبر قدر ممكن منه)، ثم ذهبت إلى المطبخ لأغسل صحون الغداء و... دعني أفكر، نعم، وكتبت رسالتين وحررت بعض الشيكات لدفع بعض الفواتير، ثم صعدت إلى الطابق العلوي وقمت بتصنيف بعض الأشياء التي كنت أريد أخذها للتنظيف. أعتقد أنني لاحظت في أثناء وجودي في غرفة نومي قدراً ما من الجلبة في الجوار... سمعت صراخاً واضحاً، فكان من الطبيعي أن أذهب إلى النافذة، وقد رأيت شاباً وفتاة عند البوابة وكان يبدو أنه يحتضنها.

حرك العريف لامب قدمه، لكن الآنسة وترهاوس لم تكن تنظر إليه وكان واضحاً أنها لا تعلم بأنه هو بالذات الشاب المقصود. وأكملت قائلة: تمكنت من رؤية مؤخرة رأس الرجل الشاب الذي بدا كأنه يتحاور مع الفتاة، وأخيراً أقعدها أرضاً بجانب عمود البوابة. أمر غير عادي! ومن ثَم أسرع بخطى واسعة إلى المنزل.

- ألم تشاهدي الآنسة بيمارش عائدة إلى البيت قبل ذلك بوقت قصير؟

هزت الآنسة وترهاوس رأسها بالنفي وقالت: لا أظن أنني نظرت من النافذة أصلاً قبل سماع هذا الصراخ غير الاعتيادي. ومهما يكن فإنني لم أُعِر اهتماماً لكل هذا، فالفتيات والشبّان يقومون بمثل هذه الأشياء دائماً، يصرخون ويدفع بعضهم بعضاً ويقهقهون أو يصدرون أنواعاً من الأصوات مما لا أحسبه شيئاً جاداً، ولكنني لم أدرك حدوث أي شيء غير اعتيادي حتى وصلت بعض سيارات الشرطة.

- ماذا فعلت آنذاك؟

- حسناً، طبعاً خرجت من البيت ووقفت على درجات الباب،

ثم استدرت وذهبت إلى الحديقة الخلفية. كنت أجهل ما حدث، ولم يكن ممكناً رؤية الكثير من تلك الجهة. وعندما عدتُ ثانية كان قد تجمع حشد قليل من الناس، وأخبرني شخص ما بوقوع جريمة قتل في البيت، وبدا لي الأمر غير طبيعي، غير طبيعي أبداً!

قالت ذلك بقدر كبير من الاستنكار، فقال هاردكاسل: هل لديك شيء آخر يمكن أن تخبرينا به؟

- لا شيء حقيقة.

- هل كتب لك أحد مؤخراً يعرض تأميناً أو زارك أحد أو وعد بزيارتك؟

- لا، لا شيء من هذا؛ فكلانا، جيمس وأنا، مؤمن مع شركة «جمعية ميوتْشُوَل هِلْب إنشورانس». والمرء بالطبع يتلقى الكثير من الرسائل، وهي في الحقيقة نشرات دورية أو إعلانات من نوع ما، ولكني لا أتذكر شيئاً من هذا مؤخراً.

- ولا رسائل موقعة من قِبَل شخص يُدعى كاري؟

- كاري! لم أتلق شيئاً من شخص يُدعى كاري قط.

- واسم كاري، ألا يعني لك شيئاً مطلقا؟

- على الإطلاق. وهل ينبغي أن يعني لي شيئاً؟

تبسّم هاردكاسل وقال: لا، لا أظن ذلك حقاً... إنه فقط الاسم الذي أطلقه الرجل المقتول على نفسه.

- أليس ذلك هو اسمه الحقيقي؟

- لدينا أسباب للاعتقاد بأنه ليس اسمه الحقيقي.

- لعله نصّاب من نوع ما، أليس كذلك؟

- لا يمكننا القول بذلك حتى يكون عندنا الدليل لإثباته.

قالت الآنسة وترهاوس: بالطبع، فينبغي أن تكونوا حريصين، أعلم ذلك، وليس كبعض الناس من حولنا هنا الذين يمكن أن يقولوا أي شيء، وأعجب من أن بعضهم لا يمكنه الكف عن القدح في الآخرين طول الوقت.

صحّح كلامها العريف لامب متحدثاً للمرة الأولى قائلاً: تقصدين الافتراء؟

نظرت إليه الآنسة وترهاوس بشيء من الدهشة كأنها لم تلاحظ قبل ذلك أن له وجوداً في حدّ ذاته، وكأنه لم يكن سوى تابع ضروري للمفتش هاردكاسل! فقالت: أنا آسفة لكوني لا أستطيع أن أساعدكم، آسفة حقاً.

قال هاردكاسل: وأنا أيضاً آسف؛ فشخص في مثل ذكائك وحكمك مع حاسة الملاحظة هذه جدير بأن يكون شاهداً مفيداً جداً.

قالت الآنسة وترهاوس: أتمنى لو كنت رأيت شيئاً.

ولفترة وجيزة كان صوتها في مثل شغف الفتيات الشابات، فقال لها هاردكاسل: وماذا عن أخيك السيد جيمس وترهاوس؟

قالت الآنسة وترهاوس بازدراء: جيمس لا يعرف شيئاً، ولن يعرف أبداً. على أية حال فقد كان في مكتب جينز فورد وسوتينهام في الشارع العام. لا، لن يستطيع جيمس مساعدتكم، وكما أقول فإنه لا يعود لتناول الغداء.

- أين يتناوله عادة؟

- يتناول الشطائر والقهوة في مطعم «الريشات الثلاثة» عادة، وهو مكان محترَم جداً، وهُم متخصصون في الوجبات السريعة لأصحاب المهن.

- شكراً لك آنسة وترهاوس. حسناً، لن نأخذ المزيد من وقتك، علينا أن لا نشغلك أكثر من هذا.

نهض الرجلان وخرجا إلى البهو ورافقتهما الآنسة وترهاوس. التقط كولن لامب مضرب الغولف من جانب الباب ثم قال: مضرب جميل؛ كثير من الثقل في الرأس.

وراح يرفعه ويخفضه كأنه يزنه بيده، ثم قال: أرى أنك متأهّبة لأية طوارئ يا آنسة وترهاوس؟

فوجئت الآنسة وترهاوس قليلاً وقالت: حقاً؟ لا يمكنني أن أتخيل كيف صار هذا المضرب هناك!

ثم خطفته من يده وأعادته إلى حقيبة الغولف، فقال هاردكاسل: إنه احتياط حكيم جداً.

* * *

قال كولن لامب متنهداً بعد خروجهما: حسناً، لم نظفر منها بالكثير رغم إطرائك البالغ لها طول الوقت. أهذا هو أسلوبك الثابت؟

- إنه يأتي بنتائج جيدة أحياناً مع شخص من صنفها؛ فالنوع المتصلب يستجيب للإطراء دائماً.

قال كولن: لقد كانت تهرّ كقطة أُعطيَت صحناً من الحليب!

لسوء الحظ لم يأتِ ذلك بنتيجة مهمة.

- أتظن ذلك؟

نظر إليه كولن بسرعة قائلاً: ما الذي يجول في ذهنك؟

- نقطة صغيرة جداً، وربما غير مهمة: عندما خرجت الآنسة بيمارش ذاهبة إلى البريد والمتاجر انعطفت إلى اليسار بدلاً من اليمين، وذلك الاتصال الهاتفي تم إجراؤه في الساعة الثانية إلا عشر دقائق طبقاً لأقوال الآنسة مارتنديل.

رمقه كولن بنظرة فضولية وقال: أما زلتَ تحسب أنها قد تكون قامت بذلك رغم إنكارها؟ لقد كانت متأكدة جداً.

قال هاردكاسل: نعم، لقد كانت متأكدة جداً.

كانت نبرته لا توحي بمعنى محدد وهو يكمل قائلاً: ولكن إن كانت قد أجرت المكالمة فعلاً، فلماذا؟

ثم قال بنفاد صبر: آه، الأمر كله لماذا، لماذا؟ لماذا كل هذا التعقيد؟! إذا كانت الآنسة بيمارش هي التي أجرت تلك المكالمة فلماذا أرادت إحضار تلك الفتاة هناك؟ وإذا كان ذلك شخصاً آخر فلماذا يريدون توريط الآنسة بيمارش؟ نحن لا نعرف شيئاً بعد، وإذا كانت المرأة المدعوّة مارتنديل تعرف الآنسة بيمارش شخصياً فلا بد أنها كانت ستعرف ما إذا كان ذلك صوتها أم لا، أو على أقل تقدير ما إذا كان ذلك الصوت شبيهاً بصوت الآنسة بيمارش إلى حد معقول. حسناً، لم نحصل على الكثير من رقم ١٨. دعنا نرَ ما إذا كان رقم ٢٠ سيفيدنا أكثر.

* * *

الفصل الثامن

كان رقم ٢٠ في هلال ولبراهام يحمل اسماً بالإضافة إلى رقمه، فقد كان يُدعى «ديانا لودج»، وكانت بوّاباته مزوَّدة بأسلاك من الداخل ضد المتطفلين، كما أن نبات الغار الرديء التقليم يحبط محاولات من يريد الولوج عبر البوابة.

قال كولن لامب: لو كان ممكناً إطلاق اسم «غابة الغار» على بيت ما لأُطلِق على هذا البيت.

ثم تابع قائلاً: لماذا سُمي «ديانا لودج» يا ترى؟

ونظر إلى ما حوله بنظرة تقييم. لم يكن مكاناً أنيقاً ولم يحتوِ على أية أحواض للزهور، فالشجيرات النامية والمتشابكة كانت سمته المميزة، أضف إلى ذلك رائحة الأمونيا المنفّرة. بدا البيت متداعياً وبحاجة للإصلاح، والعلامة الوحيدة على أي اهتمام به كانت الباب الأمامي المطلي حديثاً باللون اللازوردي الغامق، مما يجعل المنظر العام الأشعث لسائر أجزاء البيت والحديقة ملحوظاً أكثر، كما لم يكن هناك جرس كهربي بل مقبض من نوع ما يُقصَد منه أن يُسحَب، فسحب المفتش المقبض وسمع صوتاً خافتاً لجلبة بعيدة آتية من الداخل. قال كولن: هذا الصوت أشبه ما يكون بأصداء قادمة من غابة!

وانتظرا دقيقة أو اثنتين، ثم سُمعت أصوات من الداخل، أصوات غامضة نسبياً كنوع من الدندنة العالية نصفها غناء ونصفها كلام، وكاد هاردكاسل أن يهتف: "تباً! ما هذا؟!"، ولكن إذا بالمغنّي أو المدندن يقترب من الباب الأمامي والكلمات تزداد وضوحاً فكان يقول: "لا يا حلوة، إلى الداخل، هناك يا حبي، تيلمز، شاشا ميمي، كليو، كليوباترا... آه، دي دودلمز، لولو...

وسُمعت أبواب تُغلق، ثم انفتح الباب الأمامي أخيراً وظهرت قبالتهم سيدة ترتدي إزاراً مخملياً بالياً نسبياً ذا لون أخضر باهت، وكان شعرها بخصلاته الرمادية مبروماً بإحكام في تسريحة تعود إلى ثلاثين سنة خلت، وحول رقبتها فرو برتقالي.

قال المفتش متردداً: السيدة همينغ؟

- نعم، أنا السيدة همينغ.

وراحت تردد: على مهلك، بلطف يا دودلمز.

عندئذ فقط أدرك المفتش أن الفرو البرتقالي لم يكن في الحقيقة سوى ذيل قطة، ولم تكن القطة الوحيدة، فقد ظهرت ثلاث قطط أخرى في البهو اثنتان منها تموءان، واتخذت القطط أماكنها محدّقة إلى الزائرَين ملتفّة بدلال حول ساقَي صاحبتها، وفي نفس الوقت زكمت أنفَي الرجلين رائحةُ القطط التي عمّت المكان.

قدّم هاردكاسل نفسه قائلاً: أنا المفتش هاردكاسل.

قالت السيدة همينغ: آمل أن تكون قد جئت بصدد ذلك الرجل الكريه الذي جاء لمقابلتي من قِبَل جمعية الرفق بالحيوان. شيء مخجل! لقد أبلغت عنه؛ فهو يدّعي أن قططي تعيش في حالة تضر بصحتها وسعادتها. أمر مخجل حقاً! أنا أحيا من أجل قططي

يا حضرة المفتش، إنها بهجتي وسروري الوحيدَين في الحياة، وكل شيء يجري عمله من أجلها... ليس هناك يا شاشا ميمي...

لم تُعِر شاشا ميمي انتباهاً ليدها المانعة وقفزت فوق طاولة البهو محدقة إلى الغريبَين. قالت السيدة همينغ: تفضلا بالدخول. آه، لا، ليس في تلك الغرفة، لقد فاتني ذلك.

ثم دفعت باباً على اليسار فانفتح، حيث كانت الرائحة أكثر حدة، وقالت: هيا يا جميلاتي، هيا.

في الغرفة كانت أمشاط عديدة علق بها شعر القطط ملقاة هنا وهناك على الكراسي والطاولات، وكانت هنالك وسائد مغطاة بالغبار وقد بهت لونها، كما كانت هناك ست قطط أخرى على الأقل.

قالت السيدة همينغ: أنا أعيش من أجل أحبائي، فهم يفهمون كل كلمة أقولها لهم.

تشجع المفتش هاردكاسل ودخل الغرفة، ولسوء حظه فقد كان من الذين يشكون من حساسية ضد القطط، وكما يحدث عادة في أمثال هذه المناسبات اتجهت كل تلك القطط نحوه فوراً، فقفزت إحداها فوق ركبته وأخرى أخذت تتمسح ببنطاله بلطف، واكتفى مفتش التحري هاردكاسل، الرجل الشجاع، بأن يزمّ شفتيه ويتحمل، ثم قال: هل تسمحين بأن أطرح عليك بعض الأسئلة يا سيدة همينغ حول...

قاطعته السيدة همينغ قائلة: حول كل ما يعجبك؛ ليس عندي شيء أخفيه. يمكنني أن أريكم طعامها، أسرّتها التي تنام عليها، خمسة منها في غرفتي والسبعة الباقية هنا. إنها تأكل أفضل أنواع

السمك، أطبخه لها بنفسي.

فقال هاردكاسل رافعاً صوته: ليس لهذا علاقة بالقطط، لقد جئت لأتحدث معك عن القضية المحزنة التي حدثت في البيت المجاور، لعلك سمعت بها.

- في البيت المجاور! هل تعني كلب السيد جوشوا؟

- لا، لا أعني أي كلب! بل أعني في المنزل رقم ١٩ حيث وُجد قتيل يوم أمس.

اكتفت السيدة همينغ بأن تقول باهتمام وتهذيب وعيناها ما انفكّتا تتابعان قططها: حقاً؟

- هل كنتِ في البيت عصر يوم أمس، إن جاز لي السؤال؛ أيْ ما بين الساعة الواحدة والنصف والثالثة والنصف؟

- آه، نعم، بالتأكيد، فأنا أتسوق في وقت مبكر من النهار ثم أعود لكي أُعِدّ الغداء لأحبائي، ومن ثَم أمشطهم وأنظفهم...

- ألم تلاحظي أي نشاط في المنزل المجاور، سيارات شرطة، سيارة إسعاف، أو ما شابه ذلك؟

- حسناً، لم أنظر من خلال النوافذ الأمامية، فقد خرجتُ من خلف المنزل إلى الحديقة لأن عزيزتي آرابيلا لم تكن موجودة. إنها قطة صغيرة جداً، وقد تسلقت إحدى الأشجار فخشيتُ أن تعجز عن النزول، وحاولت إغراءها بصحن من السمك لكن الصغيرة المسكينة كانت خائفة، فاضطُررت إلى الاستسلام أخيراً وعدت إلى داخل البيت. هل تصدقان؟ فبمجرد أن دخلتُ من الباب نزلَت وتبعَتني!

ثم راحت تنقل بصرها من رجل إلى آخر لترى مدى تصديقهما، فقال كولن وقد عجز عن البقاء صامتاً مدة أطول: في الواقع أنا أصدق ذلك.

فنظرت إليه السيدة همينغ وقد فوجئت قليلاً وقالت: أرجو معذرتك؟

قال كولن: أنا مولَع جداً بالقطط، ولهذا فقد أجريت دراسة على طبيعة القطط، وما أخبرتِني به يوضح بشكل صحيح نمط سلوك القطط والقواعد التي وضعَتها لنفسها؛ فكما تجمعت قططك حول صديقي الذي لا يكترث للقطط صراحة فإنها لم تنتبه إليّ رغم كل مداهناتي.

إن كان تبيّن للسيدة همينغ أن كولن تحدث في أمور لا تتناسب مع دوره كعريف شرطة فإن ذلك لم يترك أثراً على وجهها، فقد اكتفت بأن تمتمت بغموض: إنها تفهم دائماً هذه الأشياء، أليس كذلك؟

وضعت قطة فارسية رمادية جميلة كفيها على ركبتَي المفتش هاردكاسل وهي تنظر إليه بنشوة المسرور، وغرست مخالبها بقوة كما لو كان المفتش مغرزة دبابيس! وإثر شعوره بوخز يفوق التحمل هب المفتش هاردكاسل واقفاً على قدمَيه وقال: هل يمكنني أن ألقي نظرة على حديقتك الخلفية هذه يا سيدتي؟

بدا على كولن الضيق قليلاً، ونهضت السيدة همينغ قائلة: آه، طبعاً، كما تحب.

فكّت القطة البرتقالية من حول رقبتها وبدلت بها دون تفكير القطة الفارسية الرمادية، وتبعها هاردكاسل وكولن إلى الخارج. قال

كولن مخاطباً الهرّ البرتقالي: لقد التقينا من قبل. ثم أضاف مخاطباً قطة فارسية رمادية أخرى جالسة على طاولة بجوار مصباح صيني تهز ذيلها على مهل: وأنتِ جميلة حقاً.

حرك كولن كفه فوقها برفق ودغدغها خلف أذنَيها والقطة مستسلمة تماماً، ثم سمع صوت السيدة همينغ وهي في البهو تقول بصوت متقطع لشعورها ببرودة مفاجئة: أغلق الباب رجاء يا سيدي؛ توجد ريح قارسة اليوم ولا أريد أن تصاب عزيزاتي بالبرد، كما أنه يوجد أولئك الأولاد المزعجون، فلا أمان حقاً في ترك هذه المخلوقات الحبيبة تتجول في الحديقة وحدها.

وسارت إلى مؤخرة البهو لتفتح باباً جانبياً، فسألها هاردكاسل قائلاً: من تقصدين بالأولاد المزعجين؟

- ابنَي السيد رامزي. إنهم يسكنون في القسم الجنوبي من الهلال، وحدائقنا يعطي بعضها ظهره للبعض تقريباً. إنهما مخرّبان بشكل مطلَق، هكذا هما، ولمعلوماتك فلديهما مقلاع لرمي الحجارة... أو كان لديهما، فقد أصررت على مصادرته منهما، لكنني ما زلت أشك. إنهما يشنّان الغارات ويتواريان ويرميان التفاح في الصيف.

قال كولن: يا له من أمر مخجل!

كانت الحديقة الخلفية كالحديقة الأمامية، بل أسوأ؛ فالحشيش مهمَل وأشجارها مكتظة وغير مقلَّمة وفيها عدد كبير من أشجار الغار المتنوعة الترقيط وأشجار كبيرة أخرى، واعتقد كولن أنهما كانا يهدران وقتهما هناك؛ فقد كان هنالك حاجز منيع من أشجار الغار والأشجار والشجيرات التي تحول دون رؤية أي

شيء في حديقة الآنسة ببمارش، وكان من الممكن وصف «ديانا لودج» بالبيت المستقل كلياً، ومن وجهة نظر ساكنيه لم يكن له أي جيران.

قالت السيدة همينغ وهي تقف حائرة وسط حديقتها الخلفية: هل قلت رقم ١٩؟ ولكنني ظننت أن شخصاً واحداً فقط يعيش فيه، امرأة كفيفة.

ردّ عليها المفتش قائلاً: لم يكن الرجل المقتول ساكناً في ذلك البيت.

فقالت السيدة همينغ بإبهام: آه، فهمت، لقد جاء هنا لكي يُقتَل. غريب جداً!

* * *

الفصل التاسع

اتجه الاثنان بالسيارة من خلال هلال ولبراهام، وانعطفا إلى اليمين نحو شارع ألباني ثم إلى اليمين من جديد نحو القسم الثاني من هلال ولبراهام. علّق هاردكاسل قائلاً: بسيط حقاً.

فردّ عليه كولن قائلاً: هو كذلك إذا كنت تعلم.

- رقم ٦١ يعطي ظهره لمنزل السيدة همينغ في الواقع، لكن ركناً منه يتصل برقم ١٩، وهذا حسن بما فيه الكفاية لأنه يمنحك الفرصة لتلقي النظر على بُغيتك، أعني السيد بلاند، وبلا مساعدة خارجية.

توقفت السيارة وخرج منها الرجلان فقال كولن: لطيف، لطيف جداً؛ إنها حديقة أمامية رائعة.

كانت مثالاً لكمال الضواحي بشكل مصغَّر بحق، فهنالك أحواض من النبات ومعرض لطيف لتحف الحدائق من ضفادع وأقزام هزلية... قال كولن برجفة خفيفة: أنا واثق أن السيد بلاند رجل وجيه وطيب، وإلا لما كانت لديه مثل هذه الأفكار المرعبة.

ثم أضاف عندما كان هاردكاسل يضغط على زر الجرس: هل تظنه موجوداً في مثل هذه الوقت من الصباح؟

أوضح هاردكاسل قائلاً: لقد اتصلت به هاتفياً وسألته إن كان الوقت يناسبه.

عندها اقتربت سيارة صغيرة وانعطفت لتدخل المرأب الذي كان من الواضح أنه آخر ما أضيفَ إلى البيت، ونزل السيد غوازيا بلاند صافقاً الباب وتقدم نحوهما. كان رجلاً متوسط القامة ذا رأس أصلع وعينين زرقاوين صغيرتين، وكان سلوكه وَدوداً. قال: المفتش هاردكاسل؟ تفضل بالدخول.

وسار أمامهما نحو غرفة الجلوس التي كانت تحتوي على شواهد عديدة من الغِنى؛ كان فيها مصابيح ثمينة مزخرَفة ومنضدة كتابة إمبراطورية ومجموعة من التحف المذهَّبة البراقة على رف المدفأة وخزانة لعرض التحف وأصيص خزفي كبير مليء بالزهور في النافذة، أما الكراسي فقد كانت حديثة فاخرة التنجيد. قال السيد بلاند بمودة: تفضلا بالجلوس. هل أحضر لكما القهوة؟

- لا، شكراً لك.

قال السيد بلاند: حسناً، ما سبب زيارتك هذه؟ تلك القضية في المنزل رقم ١٩ كما أظن، أليس كذلك؟ إن ركنَي حديقتَينا متصلان، لكننا لا نستطيع رؤيتها إلا من نوافذ الدور العلوي. قضية غريبة على ما يبدو، على الأقل من خلال ما قرأته في صحفنا المحلية هذا الصباح. لقد سُررت عندما تلقيت رسالتك؛ إنها فرصة لكسب معلومات حقيقية، وليتك تعلم بالشائعات التي تحوم في الأنحاء! لقد أثارت أعصابَ زوجتي لشعورها بوجود قاتل طليق كما تعلم.

ثم هز كتفَيه وقال باستخفاف: المشكلة أن القائمين على المصحات العقلية يتركون هؤلاء المجانين يخرجون منها في هذه

الأيام ويرسلونهم إلى بيوتهم بموجب تصريح مشروط أو أياً كان اسمه، ثم يقتلون شخصاً ما فيرمونهم في المصحة من جديد! وكما قلت لك: إنها الإشاعات؛ أعني أنك ستعجب مما تقوله المنظفة اليومية والصبي موزع الحليب والصحف، فهذا يقول إن الرجل خُنق بسلك، وآخر يقول إنه طُعن، وثالث يقول إنه ضُرب بالهراوة... على أية حال فالقاتل كان رجلاً، أليس كذلك؟ أعني أنها لم تكن الفتاة هي الفاعلة. تقول الصحيفة إن القتيل مجهول الهوية.

وأخيراً توقف السيد بلاند، فتبسّم هاردكاسل وقال بصوت فيه تقريع: حسناً، فيما يخص كونه مجهولاً فقد كان يحمل بطاقة وعنواناً في جيبه.

فقال بلاند: إذن فيوجد الكثير حول تلك القصة، ولكنك تعرف الناس، فأنا لا أعرف من يخترع كل هذه الأشياء.

- ما دمنا بصدد جثة الضحية فربما استطعتَ النظر إلى هذه.

ومرة أخرى أخرج الصورة، فقال بلاند: هذا هو إذن؟ إنه يبدو رجلاً طبيعياً تماماً، أليس كذلك؟ طبيعي مثلي ومثلك. هل لي أن أسأل إن كان لقتله أي سبب؟

ردّ عليه هاردكاسل قائلاً: ما زال الوقت مبكراً للتحدث عن ذلك. ما أريد معرفته هو إن كنت قد قابلت هذه الرجل من قبل يا سيد بلاند؟

هز بلاند رأسه وقال: لم أقابله بالتأكيد، أنا أحسن تذكر الوجوه.

- ألم يَزُرك لأي شأن شخصي، كبيع أو تأمين أو مكانس كهربية أو غسالات أو أي شيء من ذلك؟

- لم يفعل بالتأكيد.

- ينبغي أن نسأل زوجتك إذن، فلا بد أنه قابل زوجتك إن كان قد زار البيت.

- هذا صحيح تماماً، ولكن صحة فاليري ليست على ما يُرام ولا أود إثارتها. ما أقصده هو... حسناً، أعتقد أن تلك هي صورته وهو ميت، أليس كذلك؟

قال هاردكاسل: بلى، لكنها ليست صورة مؤلمة بأية حال.

- أجل، أجل، إنها طبيعية جداً؛ فالرجل يبدو كالنائم.

ارتفع صوت ضعيف في تلك اللحظة لسيدة تقول: هل تتحدثون عني يا غوازيا؟

وانفتح باب من الغرفة المجاورة ودخلت غرفةَ الجلوس سيدة في منتصف العمر، وجزم هاردكاسل مع نفسه بأنها كانت تسترق السمع من وراء الباب. قال لها السيد بلاند: آه، ها قد جئتِ يا عزيزتي، لقد حسبتك مستغرقة في إغفاءتك الصباحية.

ثم قدمها لهاردكاسل وقدم هاردكاسل لها، فغمغمت السيدة بلاند قائلة: تلك الجريمة الفظيعة... مجرد التفكير فيها يجعلني أرتعد حقاً!

ثم جلست على الأريكة لاهثة متنهدة، فقال بلاند: ارفعي قدميك يا عزيزتي.

امتثلت السيدة بلاند. كانت امرأة باهتة لون الشعر ذات صوت واهن متوجع، وكانت تبدو مصابة بفقر الدم وفيها كل مظاهر المرأة العاجزة التي تتقبل عجزها بقَدْر من الاستمتاع. ولبرهة خاطفة ذكّرَت

المفتش هاردكاسل بامرأة ما حاول أن يتذكرها، لكنه أخفق.

واصل الصوت الواهن الحزين نسبياً قائلاً: ليست صحتي بخير يا حضرة المفتش هاردكاسل، ولهذا فمن الطبيعي أن يحاول زوجي حمايتي من أية صدمة أو قلق، فأنا حساسة جداً. لقد كنت تتحدث عن صورة كما أعتقد، وهي للرجل المقتول. آه، يا إلهي؛ ما أفظع تأثيرها! لا أدري إن كنت سأطيق النظر إليها.

خاطب هاردكاسل نفسه قائلاً: بل إنك مستعدة للموت من أجل رؤيتها في الحقيقة!

وبقليل من الخبث في نبرته قال: إذن فخير لي أن لا أطلب منك النظر إليها يا سيدة بلاند؛ كنت أحسب أن بإمكانك مساعدتنا، هذا لو أن الرجل جاء إلى هذا البيت في أي وقت.

مدّت السيدة بلاند يدها وقالت بابتسامة شُجاعة وجميلة: يجب عليّ أن أقوم بواجبي، أليس كذلك؟

قال السيد بلاند: ألا ترين أن من الأفضل أن لا تزعجي نفسك يا فال؟

- لا تكن أحمق يا غوازيا. ينبغي عليّ أن أراها بالطبع.

نظرت إلى الصورة باهتمام كبير ثم (أو هكذا اعتقد المفتش) ران على وجهها قدر من خيبة الأمل وقالت: إنه يبدو... في الحقيقة إنه لا يبدو ميتاً أبداً، ولا يبدو كالمقتول أبداً! هل كان... لا يمكن أن يكون قد خُنق!

فقال المفتش: لقد طُعن.

أغمضت السيدة بلاند عينيها مرتعدة وقالت: آه، يا إلهي! ما

أفظع ذلك!

- هل تشعرين بأنك رأيتِهِ من قبل يا سيدة بلاند؟

قالت السيدة بلاند بنفور واضح: لا، لا، هل كان من النوع الذي... الذي يزور البيوت ليبيع الحاجات؟

قال المفتش مدققاً: يبدو أنه كان وكيل تأمين.

- آه، فهمت. لا، لم يأتِ أحد من هذا الصنف، أنا متأكدة. أتتذكر أنني ذكرت أي شيء من هذا القبيل يا غوازيا؟

قال السيد بلاند: لا أستطيع أن أؤكد هذا أو أن أنفيه.

سألت السيدة بلاند: هل كان ذا صلة بالآنسة ببمارش؟

قال المفتش: لا، كان مجهولاً تماماً بالنسبة لها.

- هذا غريب جداً!

- هل تعرفين الآنسة ببمارش؟

- آه، نعم، أعني أننا نعرفها كجيران، وهي تستشير زوجي بخصوص الحديقة أحياناً.

سأل المفتش السيد بلاند: أنت بستاني حاذق كما أعتقد؟

فقال بلاند منكراً: لست كذلك في الحقيقة، ليس هكذا؛ فلا وقت لديّ. بالطبع أعرف بعض الأشياء، لكن عندي شخصاً ممتازاً يأتي مرتين في الأسبوع فيرعى الحديقة ويحافظ على أناقتها وحسن تنسيقها، ويمكنني القول إنك لن تجد حديقة تفوقها في هذه الأنحاء، لكنني لست بستانياً حقيقياً مثل جاري.

سأل هاردكاسل بشيء من الاستغراب: السيدة رامزي؟!

- لا، لا، أبعد من ذلك؛ إنه في المنزل رقم ٦٣؛ السيد ماك نوتن. إنه يحيا من أجل حديقته فحسب، يُمضي يومه كله فيها، وهو مهووس بالسماد الطبيعي. إنه شخص ممل عند الحديث عن السماد الطبيعي في الحقيقة، ولكن ليس ذلك ما تريد التحدث عنه.

قال المفتش: ليس بالضبط؛ أردت فقط أن أعرف ما إذا كان أحد ما، أنت أو زوجتك على سبيل المثال، موجوداً في حديقتك أمس، فهي تلامس حدود رقم ١٩ كما تقول أنت، وتوجد فرصة لأن تكون قد شاهدت أو سمعت شيئاً مهماً البارحة.

- في منتصف النهار، أليس كذلك؟ أعني عندما وقعت الجريمة.

- التوقيت ذو الصلة هو ما بين الساعة الواحدة والساعة الثالثة.

هزّ بلاند رأسه وقال: ما كنت لأرى الكثير آنذاك، وقد كنا أنا وفاليري هنا، لكننا كنا نتناول الغداء، وغرفة الطعام تطل على رصيف الشارع، فما كنا لنرى أي شيء يجري في الحديقة.

- متى تتناولان وجبتكما؟

- في نحو الساعة الواحدة، وأحياناً في الواحدة والنصف.

- ولم تخرجا إلى الحديقة بعد ذلك؟

هزّ بلاند رأسه وقال: في الحقيقة تصعد زوجتي دائماً لتستريح بعد الغداء، وإذا لم تكن لدينا مشاغل أغفو قليلاً في ذلك الكرسي هناك. لا بد أنني غادرت البيت في نحو... آه، أعتقد أن ذلك كان في

الثالثة إلا ربعاً، ولكني لم أخرج إلى الحديقة لسوء الحظ.

فقال هاردكاسل متنهداً: آه، حسناً، علينا أن نسأل الجميع.

- طبعاً، أتمنى لو كان باستطاعتي أن أكون مفيداً أكثر.

قال المفتش: لديك مسكن جميل، ويبدو أنكما لم تدّخرا مالاً عليه إذا جاز القول.

أطلق بلاند ضحكة سعيدة وقال: آه، حسناً؛ نحن نحب الأشياء الجميلة وزوجتي لديها الكثير من الذوق. لقد جاءنا بعض المال؛ فقد ورثَت زوجتي بعض المال من أحد أعمامها، ولم تكن قد رأته منذ خمس وعشرين سنة، ويا لها من مفاجأة! يمكنني القول بأنها غيرت حالنا بعض الشيء؛ فقد أصبحنا ندبر أمورنا بيُسر ونفكر في الذهاب في إحدى تلك الرحلات البحرية لاحقاً هذا العام. إنها رحلات ثقافية جداً برأيي، فالعديد من الأساتذة يحاضرون عنها. حسناً، أنا رجل عصامي وما كنت لأجد الكثير من الوقت لهذا النوع من الأمور، لكنني سوف أستمتع بذلك كثيراً. ذلك الرجل الذي حفر طروادة كان بقّالاً كما أعتقد؟ قصة رومنسية جداً. عليّ القول إنني أحب السفر إلى بلدان أجنبية ولكنني لم أفعل ذلك كثيراً، فقط إجازة لمدة أسبوع من حين لآخر في باريس المرحة، هذا كل شيء. لقد راودتني فكرة بيع كل شيء هنا والرحيل للعيش في إسبانيا أو البرتغال أو حتى غرب الإنديز، الكثير من الناس يفعلون ذلك لأنه يوفر ضريبة الدخل، لكن زوجتي لا تروق لها الفكرة.

قالت السيدة بلاند: أنا شغوفة بالسفر، لكنني لا أكترث للعيش خارج إنكلترا، فجميع أصدقائنا هنا وأختي تعيش هنا والكل يعرفنا، ولو هاجرنا إلى الخارج فسوف نغدو غرباء، ثم إن لدينا

طبيباً جيداً جداً هنا، فهو يتفهم حالتي الصحية حقاً، ولن أرتاح إطلاقاً لأي طبيب أجنبي إذ لن تكون عندي أية ثقة فيه.

قال السيد بلاند بمرح: حسناً، سوف نرى. سنذهب في رحلة بحرية وقد تقعين في حب جزيرة يونانية.

بدا ذلك عند السيدة بلاند كما لو كان مستبعَداً جداً، فقالت مرتابة: لا بد أن في الخارج طبيباً إنكليزياً حاذقاً كما أظن.

فقال زوجها: لا بد من وجوده بالطبع.

ثم رافق هاردكاسل وكولن إلى الباب الأمامي مكرِّراً أسفه الشديد لعدم تمكنه من مساعدتهما.

في الخارج قال هاردكاسل: حسناً، ما ظنك فيه؟

- لن أدعه يبني لي بيتاً؛ فلا أنشد معمارياً عجوزاً ضئيلاً. وفيما يتعلق بقضية القتل عندك فإن موقفك منها خاطئ. والآن، لو أن بلاند أطعم زوجته الزرنيخ أو دفعها في بحر إيجة لكي يرث أموالها ويتزوج شقراء رائعة الجمال...

قاطعه هاردكاسل قائلاً: سنبحث ذلك عندما يحدث، أما الآن فعلينا تكريس جهودنا لحلّ هذه الجريمة.

* * *

الفصل العاشر

كانت السيدة رامزي في المنزل رقم ٦٢ تشجّع نفسَها قائلة: بعد يومين فقط من الآن... يومين فقط.

ثم أزاحت عن جبينها خصلة من شعرها المبلل. وجاء من ناحية المطبخ دويّ تحطم قوي فشعرت بالنفور الشديد حتى من الذهاب لرؤية ما ينبئ به ذلك الدوي، وليتها استطاعت أن تتظاهر بعدم حدوث أي تحطم! عادت تقول لنفسها: آه، حسناً، يومان فقط.

واجتازت البهو ففتحت باب المطبخ بقوة وقالت بصوت أقل شراسة مما كان يمكن أن يكون قبل ثلاثة أسابيع: ماذا فعلتما؟

فقال ولدها بيل: أنا آسف يا أماه، كنا نلعب البولنغ بهذه العلب فتدحرجت إحداها إلى خزانة الأطباق الخزفية.

قال أخوه الأصغر موافقاً: لم نقصد أن تتدحرج إلى قاع الخزانة.

- حسناً، التقطا تلك الأشياء وأعيداها إلى الخزانة، واكنسا ذلك الخزف وارمياه في النفايات.

- أماه، ليس الآن.

- بل الآن.

- تيد يمكنه ذلك.

قال تيد: لا يعجبني كلامك. دائماً أنا! لن أفعل ذلك إن لم تفعله أنت.

- أراهن أنك ستفعل.

- أراهن أني لن أفعل.

- سأجبرك.

- حقا!

واشتبك الصبيان في مباراة عنيفة للمصارعة، ودُفع تيد إلى الوراء فاصطدم بطاولة المطبخ فاهتزّ وعاء يحتوي بيضاً منذراً بالسقوط، فصاحت السيدة رامزي: آه، اخرجا من المطبخ!

ودفعت الصبيين من باب المطبخ وأغلقته، ثم شرعت في التقاط العلب وكنس الخزف وراحت تحدّث نفسها قائلة: يومان ويعودان إلى المدرسة. يا لها من فكرة جميلة، يا لها من فكرة بهيجة لأم!

ثم تذكرَت بصورة مشوَّشة تعليقاً قاسياً كتبته امرأة في عمود صحفي: «تجد المرأة ستة أيام سعيدة في السنة فقط، الأيام الأولى والأيام الأخيرة من العطلة». يا لها من كلمات صائبة! فكرت السيدة رامزي وهي تكنس حطام أفضل طقم من الصحون عندها، فكرت بسرورها وغبطتها السابقة وهي تترقّب عودة ولدَيها قبل خمسة أسابيع فقط! والآن، بعد غد، بعد غد سيعود بيل وتيد إلى المدرسة الداخلية. قالت لنفسها: أكاد لا أصدق ذلك؛ لا أستطيع الانتظار!

كم كان التقاؤها بهما بهيجاً قبل خمسة أسابيع في المحطة، ذلك اللقاء العاصف والمؤثر والطريقة التي اندفعا بها إلى البيت والحديقة وقد أعدت كعكة خاصة للعشاء. والآن ما الذي صارت تتمناه؟ يوماً واحداً من الهدوء التام، بلا وجبات كبيرة تُعدها ولا تنظيف متواصل! كانت تحب الولدين؛ فهما ولدان رائعان دون شك، وكانت فخورة بهما، إلا أنهما متعبان أيضاً؛ شهيتهما، وحيويتهما، والضوضاء التي كانا يسببانها...

في تلك اللحظة تعالت صيحات تصمّ الآذان! أدارت رأسها مذعورة بشدة، ولكن كل شيء على ما يُرام؛ فقد ذهبا إلى الحديقة فحسب. هذا أفضل؛ فلهما في الحديقة مجال أوسع بكثير، لكن ربما أزعجا الجيران؟ وتمنت -من أعماقها- أن يدعا قطط السيدة همينغ وشأنها. يجب الاعتراف هنا بأن ذلك لم يكن من أجل القطط نفسها، بل لأن الطوق الشائك المحيط بحديقة همينغ يُحتمَل أن يمزق بنطالَيهما القصيرَين!

مرت عيناها على صندوق الإسعافات الأولية الذي وُضع في متناول اليد على خزانة المطبخ، ليس لأنها ستثور بسبب حوادث الطفولة النشيطة، بل لأن تعليقها الأول والحتمي سيكون: ألم أقل لكما مئة مرة أن لا تنزفا في قاعة الاستقبال، بل تعاليا مباشرة إلى المطبخ وانزفا هنا حيث أستطيع مسح البلاط؟!

فجأة انطلقت صرخة مفزعة في الخارج بدا وكأنها قد حُبِست في وسطها، وأعقبها صمت مطبق لدرجة أن السيدة رامزي أحست بقلق حقيقي يتدفّق في صدرها! لقد كان ذلك الصمت غير طبيعي حقاً، فوقفت مترددة وفي يدها مجرفة النفايات مليئة بالخزف المكسور. انفتح باب المطبخ ووقف بيل هناك وقد لاح تعبير من

الخوف والإثارة غير معهود على وجهه ذي الأحد عشر عاماً وقال: أمي، يوجد مفتش شرطة هنا ومعه رجل آخر.

قالت السيدة رامزي بارتياح: آه، وماذا يريد يا عزيزي؟

- لقد سأل عنك، وأنا أعتقد أن الأمر يتعلق بجريمة القتل تلك التي وقعت في بيت الآنسة ببمارش يوم أمس.

قالت السيدة رامزي بنبرة مغتاظة قليلاً: لا أرى سبباً يجعله يأتي ويطلب مقابلتي.

وقالت لنفسها بأن الحياة لم تكن سوى شيء يلحقه شيء آخر، فكيف سيمكنها إعداد البطاطا لتحضير الوجبة الإيرلندية إذا جاء مفتش الشرطة في مثل تلك الساعة الحرجة؟ ثم قالت وهي تزفر: آه، حسناً، من الأفضل أن آتي.

رمت الخزف المكسور في صندوق النفايات تحت الحوض، ثم غسلت يديها وثبتت شعرها واستعدت لتتبع بيل الذي كان يُلحّ قائلاً: هيا، هيا بنا يا أماه.

دخلت السيدة رامزي غرفة الجلوس وبيل ملتصق بها وقد وقف رجلان ينتظرانها هناك، وكان ابنها الأصغر تيد حاضراً معهما يحدق إليهما بعينين فاحصتين كبيرتين. سألها هاردكاسل: السيدة رامزي؟

- صباح الخير.

- أعتقد أن هذين الشابين قد أخبراك بأنني المفتش هاردكاسل.

قالت السيدة رامزي: إنه وقت غير ملائم، غير ملائم أبداً هذا

الصباح. إنني مشغولة جداً، فهل سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً؟

قال المفتش: بل مجرد وقت قصير. أتسمحين لنا بالجلوس؟

- آه، نعم، تفضّلا، تفضلا.

جلست السيدة رامزي على كرسي منتصب ونظرت إليهما بنفاد صبر، فقد ساورتها شكوك بأن ذلك لن يستغرق وقتاً قصيراً بالتأكيد. قال هاردكاسل للولدين بلطف: لا حاجة بنا لبقائكما.

قال بيل: لا، لن نذهب.

فردّد تيد: أجل، لن نذهب.

وقال بيل: نريد أن نسمع كل شيء عن ذلك.

فقال تيد: نريد ذلك بالتأكيد.

فسأل بيل: هل كان هنالك الكثير من الدم؟

وسأل تيد: هل كان لصاً؟

وأخيراً قالت لهما السيدة رامزي: اسكتا أيها الولدان، ألم تسمعا السيد هاردكاسل يقول إنه لا يريدكما هنا؟

فأجابها بيل: لن نبرح هذا المكان، نريد أن نسمع.

فنهض هاردكاسل إلى الباب وفتحه، ثم نظر إلى الولدين وقال: إلى الخارج.

كلمة واحدة فقط قيلت بهدوء، إلا أنها أخفت وراءها صفة السلطة. وبلا مزيد من اللغو نهض الولدان فدعكا الأرض بقدميهما وخرجا يجرّان أرجلهما من الغرفة، حتى إن السيدة رامزي قالت

لنفسها بإعجاب: يا للروعة! لماذا لا يمكنني أن أكون كذلك؟!

وراحت تقول لنفسها متأملة: لكنني أم الولدين! لقد علمت من الآخرين أنهما عندما يخرجان كانا يتصرفان بسلوك يختلف كلياً عما في البيت، والأمهات نصيبهن دائماً أسوأ الأشياء. قد يفضل المرء أن تكون الأمور على هذا الحال، فلو كان عنده أولاد طيبون هادئون مطيعون مؤدبون في البيت وعند خروجهم منه أصبحوا متمردين صغاراً فعندئذ ستكون الأمور أسوأ، نعم، سيكون ذلك أسوأ.

ثم استعادت نفسها منتبهة لما هو مطلوب منها عندما عاد السيد هاردكاسل وجلس ثانية، وقالت بانفعال: إذا كان الأمر يتعلق بما حدث في المنزل رقم ١٩ أمس فليس لديّ ما أخبركما به في الحقيقة يا حضرة المفتش؛ أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك، حتى إنني لا أعرف الناس الذين يعيشون هناك.

- البيت تسكنه امرأة تُدعى الآنسة ببمارش، وهي كفيفة وتعمل في معهد آرونبرغ.

قالت السيدة رامزي: آه، فهمت، لكنني أكاد لا أعرف أحداً في الجزء السفلي من الهلال.

- هل كنتِ هنا أمس ما بين الساعة الثانية عشرة والنصف والساعة الثالثة؟

- نعم، كان عليّ أن أطبخ الغداء، وقد خرجت قبل الثالثة؛ أخذت الولدين إلى دار العرض.

أخرج المفتش الصورة من جيبه وناولها إياها وسألها: حبّذا لو أخبرتِني إن كنت قد قابلت هذا الرجل من قبل.

نظرت السيدة رامزي إلى الصورة باهتمام ثم قالت: لا، لا، لا أعتقد ذلك، لا أتذكر أني رأيته.

- ألم يأتِ إلى هذا البيت لأية مناسبة، محاولاً أن يبيعك وثيقة تأمين أو أي شيء من هذا القبيل؟

هزت السيدة رامزي رأسها مؤكدة أكثر قائلة: أنا متأكدة أنه لم يأتِ.

- اسمه كاري كما نعتقد.

ونظر إليها باحثاً عن جواب، فهزت رأسها ثانية وقالت: أخشى أنني لم يكن لدي وقت حقاً لأرى وألاحظ أي شيء خلال أيام العطلة.

فقال المفتش: تلك فترة كثيرة المشاغل، أليس كذلك؟ لديك ولدان رائعان ينبضان بالحيوية والنشاط، أو بالأحرى نشاط زائد عن اللزوم أحياناً، أليس كذلك؟

ابتسمت السيدة رامزي مؤيدة وقالت: بلى، وهذا يجعل الأمور متعبة بعض الشيء، لكنهما ولدان طيبان حقاً.

فقال المفتش هاردكاسل: أنا واثق من ذلك، ولدان رائعان وذكيان جداً كما أظن. ستكون لي معهما كلمة قبل أن أذهب إن لم يكن لديك مانع، فالصبية يلاحظون أشياء لا يلاحظها شخص آخر في البيت أحياناً.

- لا أعتقد أنهما تمكّنا من ملاحظة أي شيء، إذ لسنا متجاورين.

- لكن حديقتيكما الخلفيتين تُطلّ كل منهما على الأخرى؟

- هذا صحيح، لكنهما منفصلتان تماماً.

- هل تعرفين السيدة همينغ في رقم ٢٠؟

- حسناً، أعرفها بطريقة ما بسبب القطط وأشياء أخرى.

- وهل تحبين القطط؟

- آه، لا، لا أقصد ذلك، بل أعني الشكاوى بسببها عادة.

- آه، فهمت، الشكاوى، بشأن ماذا؟

بدا الخجل على وجه السيدة رامزي وقالت: المشكلة هي أن الناس عندما يربّون القطط بتلك الطريقة (لديها أربع عشرة قطة!) فإنهم يفقدون عقولهم بسببها، والمسألة كلها مجرد هراء. أنا أحب القطط، وقد كان عندنا قط واحد مخطط وصيّاد جرذان ماهر أيضاً، ولكن ليس مع كل الجلبة التي تُحدثها تلك المرأة وهي تطبخ طعاماً خاصاً، كما لم تكن لتسمح لتلك المسكينات الصغيرات بالخروج لتعيش حياتها الخاصة، وبالطبع ستحاول القطط أن تهرب دائماً. كنت سأفعل ذلك لو كنت إحدى تلك القطط، والولدان طيبان جداً في الحقيقة وهما لا يؤذيان أي قطة بأي شكل. ما أقوله هو أن بإمكان القطط دائماً أن تُعنى بنفسها جيداً؛ إنها حيوانات متّزنة جداً، بشرط أن تعامَل بطريقة معقولة.

قال المفتش: أنت على حق. لا بد أن حياتك مليئة بالمشاغل، حيث تحاولين إبقاءهما مشغولَين وإطعامهما خلال العطلة. متى سيعودان إلى المدرسة؟

- بعد غد.

- إذن أرجو أن تستريحي جيداً.

- أنا بصدد منح نفسي فترة من الراحة.

أما الشاب الآخر الذي كان يدوّن الملاحظات بصمت فقد فاجأها قليلاً عندما قال: عليك أن تأتي بإحدى أولئك الفتيات الأجنبيات. يسمونها المرافِقة، أليس كذلك؟ يأتين هنا ويَقُمن ببعض الأعمال مقابل تعلم اللغة الإنكليزية.

قالت السيدة رامزي متأملة: ربما كان عليّ أن أحاول شيئاً من هذا القبيل، رغم أنني أرى أن من الصعب التعامل مع الأجانب. لكن زوجي يسخر مني، وهو يعرف أكثر مني عن ذلك بالطبع؛ فأنا لم أسافر إلى الخارج بقدر ما يفعل هو.

قال هاردكاسل: إنه في الخارج الآن، أليس كذلك؟

- بلى، لقد اضطُر إلى السفر إلى السويد في بداية شهر آب (أغسطس)، وهو مهندس معماري. لقد كان من المؤسف أن يذهب في ذلك الوقت في بداية العطلة. إنه طيب جداً مع الولدين ويحب حقاً اللعب بالقطارات الكهربية أكثر منهما، وفي بعض الأحيان تمتد السكك عبر البهو إلى داخل الغرفة ويصعب اجتناب التعثر بها!

ثم هزّت رأسها وقالت باستحياء: ما أشبه الرجال بالأطفال!

- متى تتوقعين عودته يا سيدة رامزي؟

تنهّدت وقالت: لا أعرف أبداً، وهذا ما يجعل الأمر صعباً نوعاً ما.

كان صوتها مرتعشاً، فنظر إليها كولن نظرة فاحصة وقال: ينبغي أن لا نأخذ المزيد من وقتك يا سيدة رامزي.

ثم نهض هاردكاسل واقفاً وقال: هل يستطيع الولدان أن

يأخذانا إلى الحديقة لنشاهدها؟

كان بيل وتيد ينتظران في البهو فرحّبا بالاقتراح في الحال وقال بيل: بالطبع، إنها ليست حديقة كبيرة جداً.

لقد بُذل جهد قليل لتنسيق حديقة المنزل رقم ٦٢ بشكل معقول، فعلى جانب منها كان سياج من نبات الدهلية وزهرة النجمة، ثم مساحة صغيرة من الحشيش لم يُجَزّ بالتساوي، أما النبات المحيط بالممرات فقد كان بحاجة ماسة إلى التشذيب، كما كانت هناك نماذج للطائرات والبنادق الفضائية وأشياء أخرى ملقاة في الأنحاء مما يزيد المنظر سوءاً، وفي مؤخرة الحديقة شجرة تفاح تحمل تفاحاً أحمر زاهي المنظر تليها شجرة كمثرى.

أشار تيد بإصبعه إلى الفتحة بين شجرتَي التفاح والكمثرى اللتين أمكن رؤية مؤخرة بيت الآنسة بمارش من خلالهما بوضوح قائلاً: ها هو ذا، ها هو رقم ١٩ حيث وقعت الجريمة.

فقال المفتش: يمكنكم إلقاء نظرة جيدة على البيت، أليس كذلك؟ وأحسن منها أيضاً من خلال النوافذ العلوية.

قال بيل: هذا صحيح، فلو أننا كنا ننظر من هناك يوم أمس فلربما استطعنا أن نرى شيئاً، لكننا لم نفعل.

قال تيد: لقد كنا في دار العرض.

سأل بيل: هل وجدتم بصمات أصابع؟

- لم تكن من النوع المفيد جداً. هل خرجتما إلى الحديقة يوم أمس؟

قال بيل: آه، نعم، من حين لآخر، وهكذا طوال الصباح،

ولكننا لم نسمع أو نرَ شيئاً مع ذلك.

قال تيد بحدّة: لو كنا هناك عصر أمس لسمعنا الصرخات. لقد انطلقت صرخات مرعبة!

- هل تعرفان الآنسة بيمارش التي تمتلك ذلك البيت؟

تبادل الولدان النظرات ثم أومآ برأسَيهما بالإيجاب، وقال تيد: إنها مكفوفة، لكن يمكنها التجوّل في الحديقة بشكل طبيعي ولا تحتاج إلى عصا عندما تمشي ولا لأي شيء من ذلك، وقد أعادت إلينا كرة ذات مرة... لقد كانت طيبة حيال ذلك.

- ألم تشاهداها يوم أمس؟

هزّ الولدان رأسيهما بالنفي، وأوضح بيل قائلاً: لا نراها في الصباح؛ فهي تغادر بيتها دائماً، وتخرج إلى الحديقة بعد العشاء.

راح كولن يتفحص أنبوباً مطاطياً موصولاً بصنبور داخل البيت. كان الأنبوب يجري على امتداد ممر الحديقة حتى الركن قرب شجرة الكمثرى، ثم قال: لم أكن أعلم أن أشجار الكمثرى تحتاج إلى الري.

فقال بيل محرَجاً بعض الشيء: آه، ذلك...

أكمل كولن ملاحظته قائلاً: ومن الناحية الأخرى فلو تسلقتما هذه الشجرة...

ونظر إلى الولدين وكشّر فجأة ثم أكمل قائلاً: لأمكنكما استخدام الماء لتعبثا مع إحدى القطط، أليس كذلك؟

راح الولدان يعبثان بالحصى بأقدامهما وهما ينظران في كل اتجاه إلا اتجاه كولن الذي قال: هذا هو ما تفعلانه، أليس كذلك؟

أجاب بيل: آه، حسناً، هذا لا يؤذيها، فهو لا يشبه استخدام المقلاع.

قال بيل عبارته الأخيرة بنبرة فاضلة، فقال كولن: أعتقد أنكما استخدمتما المقلاع ذات مرة؟

فقال تيد: ليس بشكل صحيح، يبدو أننا لا نستطيع إصابة أي شيء أبداً.

قال كولن: على أية حال فأنتما تمرحان قليلاً بذلك الأنبوب ثم تأتي السيدة همينغ لتشتكي.

قال بيل: إنها تشتكي دائماً.

- هل دخلتما من خلال سياجها قط؟

قال تيد بلا تحفّظ: ليس من خلال تلك الأسلاك.

- لكنكما تعبران أحياناً إلى الحديقة، أليس هذا صحيحاً؟ كيف تفعلان ذلك؟

- حسناً، يمكنك اختراق السياج إلى حديقة الآنسة بيمارش، وبعد مسافة قصيرة على اليمين يمكن الاندفاع من خلال السياج النباتي إلى داخل حديقة الآنسة همينغ، توجد ثغرة في الأسلاك الشائكة.

هتف بيل: ألا يمكنك أن تخرس أيها الأحمق؟

فقال هاردكاسل: أعتقد أنكما قمتما بجولة بحثاً عن حل للّغز منذ وقوع الجريمة؟

نظر الولدان كل إلى الآخر، فأكمل هاردكاسل قائلاً: عندما

عدتما من دار العرض وسمعتما بما حدث، أراهن على أنكما تسللتما من خلال السياج إلى حديقة المنزل رقم ١٩ وقمتما بجولة بحث جيدة في أرجائها.

قال بيل: حسناً...

ثم أحجم عن الكلام محتاطاً، فقال هاردكاسل بجدية: من المحتمَل أنكما عثرتما على شيء نحن بحاجة إليه، فلو أن لديكما أي شيء من ذلك فسأكون شاكراً لو عرضتماه عليّ لمشاهدته.

اتخذ بيل قراره فقال لأخيه: أحضرها يا تيد.

فانطلق تيد يجري منصاعاً، واعترف بيل قائلاً: أخشى أن لا نكون قد حصلنا على شيء مهم حقاً. كنا نتظاهر فقط...

ثم نظر إلى هاردكاسل بقلق، فقال المفتش: أفهمك جيداً. يجري معظم عمل الشرطة على هذا النحو، كثير من الخيبة.

بدا الارتياح على بيل، في حين عاد تيد يجري وناوله منديلاً قذراً معقوداً، ففكّ هاردكاسل عقدته وبسط محتوياته وقد وقف الولدان إلى جواره من الجانبَين. كان فيه مقبض كوب وكسرة من الخزف المنقوش من كوب خزفي مكسور وشوكة طعام صدئة وقطعة نقود معدنية ومشبك ملابس وقطعة زجاج قزحية اللون ونصف مقص.

قال المفتش بوقار: إنها مجموعة مثيرة!

وأخذته الشفقة من ملاحظة وجهَي الصبيين المتشوقَين، فالتقط قطعة الزجاج وقال: سآخذ هذه، فمن المحتمَل أن تكون لها صلة بشيء ما.

وكان كولن قد التقط قطعة النقود ليتفحصها، فقال تيد: إنها ليست إنكليزية.

قال كولن: نعم، ليست إنكليزية.

ثم حوّل بصره نحو هاردكاسل وقال مقترحاً: وقد نأخذ هذه أيضاً؟

- لا تتفوها بكلمة بهذا الخصوص لأي شخص.

قال هاردكاسل ذلك كما لو كان يتواطأ معهما، فوعده الولدان بسرور بأنهما لن يفعلا ذلك.

* * *

الفصل الحادي عشر

قال كولن متأملاً: السيد رامزي.

- ماذا عنه؟

- له وقع في نفسي ليس إلاّ؛ فهو يسافر إلى الخارج بمجرد إشعار آني، وتقول زوجته إنه مهندس معماري، ويبدو أن ذلك هو كل ما تعرفه عنه.

قال هاردكاسل: إنها امرأة طيبة.

- أجل، وليست سعيدة جداً.

- متعَبة، هذا كل ما في الأمر؛ الأطفال متعِبون.

- أظن أن المسألة أكثر من مجرد ذلك.

قال هاردكاسل متشككاً: بالتأكيد فإن مَن تبحث عنه ينبغي أن لا تكون في عاتقه مسؤولية زوجة وولدَين.

- أنت لا تفهم هذا، وستعجب مما يفعله بعض العملاء للتمويه؛ فقد توافق امرأة محرومة تعول ولدين على ترتيب ما.

قال هاردكاسل بتزمّت: لا أعتقد أنها من ذلك الصنف.

- لا أعني الانغماس في الخطيئة يا صديقي العزيز، بل أعني

أنها سترضى بأن تكون السيدة رامزي فتوفر الخلفية، وبطبيعة الحال فإنه سيلفق لها قصة من النوع الواقعي مدّعياً أنه يقوم بعمل تجسسي... فلنقل لصالحنا، وكل ذلك بوطنية عالية.

هزّ هاردكاسل رأسه قائلاً: أنت تعيش عالَماً غريباً يا كولن!

- أجل، وكلنا نفعل ذلك، لكن أعتقد أنني سأخرج منه ذات يوم كما تعلم، فالواحد منا يبدأ ينسى ما هذا ومن ذاك... نصف هؤلاء النّاس يعملون لكلا الطرفين، وفي آخر المطاف هم أنفسهم لن يعلموا إلى جانب مَن يكونون حقيقة؛ إذ تلتبس عليهم المعايير! آه، حسناً، دعنا ننصرف لشأننا.

قال هاردكاسل وهو يوقف السيارة عند بوابة المنزل رقم ٦٣: يُستحسَن أن نقوم بزيارة لآل ماك نوتن، فإن قسماً من حديقتهم ملاصق لرقم ١٩ مثل بلاند.

- وماذا تعرف عن آل ماك نوتن؟

- ليس كثيراً، فقد جاؤوا إلى هنا منذ عام تقريباً. زوجان عجوزان، وأظن أن الرجل أستاذ متقاعد منصرف إلى الاعتناء بحديقته.

كانت في الحديقة شُجيرات ورد وبساط سميك من الزعفران الخريفي تحت النوافذ، وفتحت البابَ شابة تطفح بالبِشر ترتدي مريلة ببنطال مطرزة بزهور زاهية وقالت بلكنة أجنبية: ماذا تريدان؟

فغمغم هاردكاسل مع نفسه قائلاً: المساعدة الأجنبية أخيراً!

ومدّ يده بالبطاقة فقالت: الشرطة؟!

قالت الشابة ذلك وتراجعت خطوة أو اثنتين وقد نظرت إلى

هاردكاسل كما لو كان الشيطان بعينه! فقال هاردكاسل: السيدة ماك نوتن؟

- السيدة ماك نوتن؟ موجودة.

ثم تقدمتهما إلى غرفة جلوس خالية مطلّة على الحديقة الخلفية، وبلكنتها الأجنبية قالت الشابة التي فارقها المرح: إنها موجودة فوق.

وخرجت إلى البهو فنادت قائلة: سيدة ماك نوتن، سيدة ماك نوتن...

ردّ صوت آت من بعيد: ما الأمر يا غريتل؟

- إنهم الشرطة، شرطيان... إنها في غرفة الجلوس.

سُمع صوت واهن آتٍ من الدور العلوي يقول: يا إلهي! ما الأمر؟

ثم تبعه وقع أقدام، ودخلت السيدة ماك نوتن الغرفة وعلى وجهها أمارات القلق، فحكم هاردكاسل بسرعة بأن تعبيرات القلق موجودة عادة على وجه السيدة ماك نوتن التي قالت ثانية: يا إلهي! يا إلهي! حضرة المفتش... ما اسمك؟

- هاردكاسل.

- آه، نعم.

ونظرت إلى البطاقة ثم أردفت قائلة: ولكن لماذا تريد مقابلتنا؟ نحن لا نعرف شيئاً عنها، أعني أن ذلك بشأن هذه الجريمة كما أعتقد، أليس كذلك؟ أعني... إنها ليست بشأن رخصة التلفاز، أليس كذلك؟

طمأنها هاردكاسل بشأن تلك النقطة، فقالت السيدة ماك نوتن وقد أشرق وجهها: يبدو كل شيء غريباً، أليس كذلك؟ وتقريباً في منتصف النهار... يا له من وقت غريب ليأتوا فيه ويسرقوا بيتاً عندما يكون معظم الناس موجودين في بيوتهم! لقد أصبحنا نقرأ في الصحف عن أشياء مروعة في هذه الأيام، وكلها تحدث في وضح النهار! دعوني أحكِ لكم.

ثم بدأت تقول بحماسة: بينما كان بعض معارفنا خارج البيت لتناول الغداء جاءت سيارة لنقل الأثاث، فدخل الرجال وحملوا كل قطعة من الأثاث. سكّان الجوار جميعاً شاهدوا ما يجري، لكنهم بالطبع لم يتصوروا قط أن شيئاً غريباً يحدث. لقد ظننت فعلاً أنني سمعت أحداً يصرخ أمس، لكن آنغس قال إنهما ولدا السيدة رامزي البغيضان، فهما يندفعان في أرجاء الحديقة مطلقَين أصواتاً مزعجة كسفينة فضاء أو كالصواريخ أو كالقنبلة الذرية... إنها حقاً مخيفة أحياناً.

ومرة أخرى أخرج هاردكاسل الصورة وسألها: هل رأيت هذا الرجل من قبل يا سيدة ماك نوتن؟

حدقت إليها السيدة ماك نوتن بشراهة ثم قالت: أكاد أجزم أني رأيته. نعم، نعم، أنا متأكدة في الحقيقة، ولكن أين كان ذلك يا تُرى؟ هل كان هو الرجل الذي جاء ليعرض عليّ شراء الموسوعة، أم تُراه الرجل الذي جاء ومعه طراز جديد من المكانس الكهربية، فلما لم يكن معه ما أشتريه منه خرج إلى الحديقة الأمامية وأقلق زوجي هناك؟ كان آنغس يزرع بعض البُصَيلات ولم يكن يحبّ أن يقاطعه أحد، ومرة تلو المرة راح الرجل يشرح له ما تنجزه تلك الآلة، فمثلاً: كيف أن بإمكانها الانزلاق أعلى وأسفل الستائر، وأن

بإمكانها تنظيف عتبات الباب والدرَج والمقاعد فتجعل الأشياء كلها تتألق نظافة... لقد قال كل شيء، كل شيء، عندها رفع آنغس نظره إليه وقال: "هل بإمكانها أن تزرع البُصَيلات؟"، ويجب أن أقول إنني اضطُررت إلى الضحك لأن ذلك باغت الرجل فولّى ذاهباً.

- أتعتقدين فعلاً أن ذلك الرجل هو الذي في هذه الصورة؟

- حسناً، لا، لا أعتقد حقاً، لأن ذلك الرجل كان أصغر سناً بكثير، لقد أدركت ذلك الآن. ومع هذا فأنا أظن أنني رأيت هذه الرجل من قبل؛ نعم، فكلما أطلت النظر إليه ازداد تأكدي أنه جاء هنا وعرض عليّ شراء شيء ما.

- أيمكن أن يكون بائع وثيقة تأمين مثلاً؟

- لا، لا، ليس التأمين، فزوجي يتابع كل هذه الأمور. نحن لدينا تأمين من كل نوع، لكن مع ذلك، فكلما أطلت النظر إلى الصورة...

عند هذا الحد تنهد هاردكاسل وأصبح أقل أملاً مما كان عليه، فأدرج السيدة ماك نوتن -من خلال تجرِبته المتراكمة- ضمن النساء اللائي يتشوقن إلى الإثارة التي تكمن في رؤية شخص له صلة بجريمة قتل، فكلما أطالت النظر إلى الصورة تأكد لها أنها تتذكر شخصاً يشبهها بالضبط.

قالت السيدة ماك نوتن: لقد كان يقود عربة نقل، ولكن لا أتذكر متى رأيته بالضبط. أظنها عربة مخبز.

- أنتِ لم تقابليه يوم أمس، أليس كذلك يا سيدة ماك نوتن؟

تهدّل وجه السيدة ماك نوتن قليلاً وأزاحت شعرها الأشيب

المموج المبعثَر نسبياً وقالت: ليس بالأمس على الأقل... لا أظن ذلك.

ثم أشرق وجهها قليلاً وقالت: ربما كان زوجي يتذكر.

- هل هو في البيت؟

- نعم، في الحديقة.

وأشارت من خلال النافذة إلى حيث كان رجل عجوز يدفع عربة يدوية خلال الممر، فقال هاردكاسل: لعلنا نستطيع الذهاب خارجاً للتحدث إليه؟

- طبعاً، تفضّلا من هنا.

وتقدمتهما في الخروج من خلال باب جانبي إلى الحديقة حيث كان السيد ماك نوتن ينضح عرقاً، فقالت زوجته لاهثة: هذان السيدان من الشرطة يا آنغس، جاءا بخصوص جريمة القتل التي حدثت في بيت الآنسة بيمارش. لديهم صورة للرجل الميت. أتعلم؟ أنا متأكدة من رؤيته في مكان ما. أهو ذاك الرجل الذي جاء في الأسبوع الماضي وسألنا إن كان لدينا تحف قديمة للبيع؟

فقال السيد ماك نوتن: دعينا نرَ.

والتفت وقال لهاردكاسل: أمسكها لي لو سمحت؛ يداي متسختان بحيث لا يصلح أن ألمس بهما أي شيء.

وألقى نظرة مختصَرة ثم قال: لم أرَ هذا الشخص في حياتي.

فقال هاردكاسل: أخبرني جارك بأنك مولَع جداً بالعمل في الحديقة.

- من الذي أخبرك بذلك؟ لا أظنها السيدة رامزي.

- بل السيد بلاند.

فقال آنغس بدهشة: إن بلاند لا يعرف شيئاً عن البستنة. يغرس في مساكب فحسب، هذا هو كل ما يفعله، يزرع البغونية وإبرة الراعي وحواجز من ورد اللوبيليا، وليس هذا هو ما أسميه بالبستنة. من الأفضل له أن يعيش في المتنزَّهات العامة. هل تهتم بالشجيرات يا حضرة المفتش؟ ليس هذا بالطبع هو الوقت المناسب من السنة، غير أن عندي واحدة أو اثنتين من الشجيرات هنا تجعلك تعجب كيف تمكنت من زراعتها، تلك الشجيرات التي يقول البعض إنها لا تنمو جيداً إلا في كورنوول.

قال هاردكاسل: لا يمكنني الادعاء بأني بستاني متمرس.

فنظر إليه ماك نوتن نظرة فنّان إلى شخص قال له إنه لا يفهم شيئاً في الفن بل يعرف ماهيته فقط، وقال هاردكاسل: لقد جئت بخصوص موضوع أقل متعة بكثير.

- بالطبع، حادثة أمس. كنت في الحديقة عندما وقعت.

- حقاً؟!

- حسناً، أعني أني كنت هنا عندما صرخت الفتاة.

- وماذا فعلتَ؟

قال السيد ماك نوتن ببلاهة: حسناً، لم أفعل شيئاً، في حقيقة الأمر ظننت أنهما ابنا السيدة رامزي اللعينان؛ فهما يصخبان ويصرخان دائماً ويسببان الضوضاء.

- ولكن لم تأتِ تلك الصرخة من نفس الاتجاه بالتأكيد.

- ليس إذا بقي اللعينان في حديقتهما الخاصة، ولكنهما لن يفعلا كما تعلم، بل يقتحمان أسيجة وحواجز الناس ويلاحقان تلك القطط البائسة للسيدة همينغ في كل مكان. لا يوجد مَن يُحكِم قبضته عليهما، تلك هي المشكلة، فأمهما ضعيفة كالماء، وبالطبع يُفلت زمام الأمور عند الأولاد عندما لا يوجد رجل في البيت.

- لقد علمت أن السيد رامزي يسافر إلى الخارج كثيراً.

- إنه مهندس معماري كما أعتقد، وهو غائب دائماً في مكان ما... سدود كما تعلم، أعني الأعمال ذات العلاقة بتشييد السدود أو النفط أو خطوط الأنابيب... لا أعرف في الحقيقة. وقد اضطُر للسفر إلى السويد منذ شهر إثر إشعار فوري، وقد حمّل ذلك أمَّ الصبيين أعباء كثيرة؛ الطبخ والأعمال المنزلية وغير ذلك... حسناً، بالطبع سيتوحش الولدان. ليكن معلوماً لديك أنهما ليسا شريرَين، لكنها بحاجة إلى الضبط.

- أنت شخصياً، ألم تلاحظ شيئاً سوى سماع الصرخة؟ ومتى سمعتها بالمناسبة؟

- ليست لديّ فكرة، فأنا أنزع الساعة دائماً قبل أن آتي إلى هنا. لقد سلطت عليها أنبوب الماء ذات يوم ثم قمت بعمل كثير لإصلاحها فيما بعد. متى حدث ذلك يا عزيزتي؟ أنت سمعت، أليس كذلك؟

- لا بد أنه كان في الساعة الثانية والنصف؛ كان ذلك بعد انتهائنا من الغداء بنصف ساعة على الأقل.

فقال هاردكاسل: فهمت، ومتى تتناولان الغداء؟

قال السيدة ماك نوتن: في الواحدة والنصف، إذا حالفنا

الحظ؛ فالفتاة الدنمركية لا تأبه للوقت.

- وبعد ذلك هل تأخذان قسطاً من النوم؟

- أحياناً، أما اليوم فلا؛ فقد أردت مواصلة ما كنت أقوم به، كنت أزيح الكثير من الأشياء وأزيد ركام السماد وما إلى ذلك.

قال هاردكاسل بوقار: كومة السماد تلك رائعة بالفعل.

أشرق وجه السيد ماك نوتن على الفور وقال: لا مثيل له بالتأكيد. آه، ما أكثر الناس الذين تغير رأيهم. إن استعمال تلك الأسمدة الكيماوية انتحار! انظر.

سحب هاردكاسل من ذراعه بلهفة في حين كان يدفع عربته، وأخذه عبر الممر إلى حافة السياج الذي يفصل حديقته عن حديقة المنزل رقم ١٩ حيث كان ركام السماد مكشوفاً وقد حجبه ساتر من شجيرات الليلك، ودفع السيد ماك نوتن العربة الصغيرة نحو سقيفة صغيرة إلى جانبه، وفي داخل السقيفة وُضعت أدوات عديدة بترتيب حسن، فأبدى هاردكاسل ملاحظته قائلاً: أنت تحفظ الأشياء مرتبة جداً!

- ينبغي على المرء أن يحافظ على أدواته.

كان هاردكاسل ينظر نحو المنزل رقم ١٩ متفكراً، وكان على الجانب الآخر من السياج ممشى مظلل بالزهور يؤدي إلى جانب البيت، فسأل هاردكاسل السيد ماك نوتن قائلاً: ألم ترَ أحداً في حديقة المنزل رقم ١٩ ينظر من نافذة البيت أو أي شيء من ذلك عندما كنت بجانب كومة السماد؟

هز السيد ماك نوتن رأسه وقال: لم أرَ شيئاً على الإطلاق.

آسف إذ لا أستطيع مساعدتك يا حضرة المفتش.

قالت زوجته: هل تعلم يا آنغس؟ أظن أنني رأيت هيئة شخص يتسلل إلى حديقة المنزل رقم ١٩.

فقال زوجها بحزم: لا أظن أنك رأيت شيئاً يا عزيزتي، ولا أنا.

* * *

قال هاردكاسل متذمراً وهما يعودان إلى السيارة: تلك المرأة يمكنها القول بأنها رأت أي شيء.

- ألا تعتقد أنها تعرفت على الصورة؟

هز هاردكاسل رأسه وقال: أشك في ذلك؛ إنها تود أن تظن أنها رأته فحسب. أنا أعرف هذا النوع من الشهود حق المعرفة، فعندما دققت معها لم تستطع أن تميز النثر من الشعر، أليس كذلك؟

- بلى.

- وبالطبع يُحتمَل أن تكون قد جلست مقابله في حافلة ذات يوم، قد أوافقك على ذلك، لكنك لو سألتني عن رأيي فإنه ضرب من التمني. ما رأيك أنت؟

- أرى ما تراه.

تنهد هاردكاسل قائلاً: لم نحصل على الكثير، وبالطبع توجد أشياء غريبة، فمثلاً يستحيل أن لا تعرف السيدة همينغ سوى القليل جداً عن جارتها الآنسة بيمارش كما تدّعي، بغض النظر عن درجة انشغالها بقططها، أضف إلى ذلك كونها تبدو غامضة جداً وغير مهتمة بالجريمة.

- إنها امرأة غامضة بالفعل.

- بل حمقاء، المرأة الحمقاء هي التي لا تلاحظ ما يجري حولها من حرائق وسرقات وجرائم قتل.

- إنها محمية جيداً بتلك الأسلاك المتشابكة، وتلك الشجيرات الفكتورية لن تُتيح مجالاً لرؤية شيء.

* * *

عاد الاثنان إلى مركز الشرطة حيث كشر هاردكاسل لصاحبه وقال: حسناً أيها العريف لامب، يمكنك الانصراف الآن.

- ألن تقوم بمزيد من الزيارات؟

- ليس الآن، سأقوم بواحدة أخرى لاحقاً لكني لن آخذك معي.

- حسناً، شكراً لك على هذا الصباح. أيمكنك أن تأمر بطباعة ملاحظاتي هذه؟

ناوله إيّاها وأردف قائلاً: متى موعد جلسة المحكمة لمناقشة الحادثة؟

- بعد غد في الحادية عشرة.

- حسناً، سأكون هناك.

- هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟

- ينبغي عليّ الذهاب إلى لندن غداً لأقدم تقريراً عن كل شيء حتى هذه الساعة.

- أستطيع أن أخمن لمَن ستقدمه.

- غير مسموح لك بذلك.

كشّر هاردكاسل قائلاً: أبلغ حبي للفتى العجوز.

قال كولن: وأيضاً قد أذهب لزيارة اختصاصي.

- اختصاصي! لماذا؟ ممَّ تشكو؟

- لا شيء سوى الغباء. لا أعني ذلك النوع من الاختصاصين، بل واحداً من صنفك.

- سكوتلنديارد؟

- لا، بل سأزور أحد رجال التحري. إنه صديق لوالدي ولي أيضاً، وأظن أن قضيتك الممتعة هذه ستجد الحل عنده. سيحبها؛ فهي ستبعث البهجة في نفسه. يخامرني شعور بأنه يحتاج إلى الإبهاج.

- ما اسمه؟

- هيركيول بوارو.

- لقد سمعت به، ظننت أنه مات.

- لم يَمُت، لكنْ لديّ شعور بأنه يعاني من السأم، وهذا أسوأ.

رمقه هاردكاسل بنظرة فضولية وقال: أنت صديق غريب الأطوار يا كولن؛ تصادق أناساً بغيضين.

قال له كولن وهو يبتسم: وأنت من ضمنهم.

* * *

الفصل الثاني عشر

بعد أن انصرف كولن ألقى المفتش هاردكاسل نظرة على العنوان المدوَّن بخط أنيق في مفكرته، وأومأ برأسه ثم دس المفكرة في جيبه وشرع في العمل بشؤونه الاعتيادية التي تكدست على منضدته. كان يوماً حافلاً بالنسبة له، فأرسل في طلب القهوة وبعض الشطائر، واستلم تقارير من العريف كراي.

لم يبرز بعدُ خيط موصل يُرجى منه العون؛ لم يتعرف أحد في محطة القطارات أو الحافلات على السيد كاري، كما لم تُفضِ تقارير المختبَر عن ملابسه بشيء، فالحُلّة من عمل خَيّاط ماهر لكن اسمه أُزيل عنها، وهي لا تحمل أي علامة من أي مصبغة لكَيّ الملابس! تُرى هل كانت الرغبة في التكتم من جانب السيد كاري أم أنها من جانب قاتله؟ أما تقرير طبيب الأسنان فقد وُزِّع على مراكز الشرطة التي ستكون أكثر عوناً؛ قد تستغرق التحريات بعض الوقت لكنها ستحقق بعض النتائج أخيراً... إلا إذا كان السيد كاري أجنبياً.

تأمل هاردكاسل في الفكرة، فمن المحتمَل أن يكون الرجل الميت فرنسياً، رغم أن ملابسه لم تكن فرنسية بالتأكيد.

لم يكن هاردكاسل متعجلاً، فالتعرف على الأموات كثيراً ما يكون عملاً بطيئاً، ولكن شخصاً ما يتقدم في النهاية دائماً: مصبغة،

طبيب أسنان، طبيب عام، مالكة بيت... إن صورة الرجل الميت ستوزع على مراكز الشرطة ويُعاد نشرها في الصحف، وإن عاجلاً أو آجلاً سيُعرف السيد كاري بهويته الحقيقية. وفي نفس الوقت كان يتعين إنجاز عمل آخر، وليس في قضية كاري فحسب.

واصل هاردكاسل عمله دون توقف حتى الساعة الخامسة، ثم نظر إلى ساعة معصمه ثانية فقرر أن الوقت قد حان للقيام بزيارة كان يزمع القيام بها.

أفاد تقرير العريف كراي أن شيلا ويب قد استأنفت عملها في مكتب كافنديش وأنها ستكون مشغولة بالعمل مع البروفيسور بوردي في الساعة الخامسة في فندق كرليو، وأنها لن تغادر ذلك المكان إلى ما بعد السادسة على الأرجح. تذكر اسم الخالة مرة أخرى، لوتن... السيدة لوتن، ١٤ شارع بالمرستون. لم يستقلّ سيارة الشرطة بل اختار أن يمشي المسافة القصيرة.

كان شارع بالمرستون كئيباً، ولاحظ هاردكاسل أن البيوت قد تم تحويلها بصورة رئيسية إلى شُقق أو فيلات، ولدى انعطافه عند الناصية تردّدَت فتاةٌ كانت تقترب نحوه على الرصيف للحظة، وبعقل مشغول طرأت على بال المفتش فكرة آنية بأنها ستطلب منه أن يدلها على مكان ما، لكن على أية حال إن كان الأمر كذلك فقد غيرت الفتاة رأيها واستأنفت المسير مارة من جانبه. وتساءل: لماذا تبادرت إلى ذهنه فكرة الأحذية بهذه السرعة! أحذية؟ لا، بل فردة حذاء واحدة! كان وجه الفتاة مألوفاً لديه بعض الشيء، ولكن مَن تكون؟ تُرى هل قابلها مؤخراً أم أنها قد تعرفَت عليه وقد كانت على وشك أن تكلمه؟

توقف لحظة والتفت يلاحقها ببصره، وكانت في تلك اللحظة

تسير بسرعة. كانت المشكلة تكمن في أن لها وجهاً من تلك الوجوه المبهَمة التي يصعب التعرف عليها ما لم يكن لديك سبب خاص للقيام بذلك. عينان زرقاوان، لون أشقر، فم واسع قليلاً... فمٌ هو الآخر يذكّر بشيء ما كانت تفعله بفمها. تتكلم؟ تضع طلاء الشفاه؟ لا، ليس الأمر كذلك. شعر مع نفسه بشيء من الضيق؛ كان هاردكاسل يفخر بقدرته على معرفة الوجوه، وكان يمكنه القول بأنه لن ينسى وجهاً أبداً كان قد رآه في قفص الاتهام أو على منصة الشهود، ولكن توجد أماكن أخرى للاحتكاك. على أية حال فهو لن يكون قادراً على تذكّر كل نادلة قامت على خدمته ذات مرة مثلاً، ولن يتذكر كل قاطعة تذاكر في الحافلات... وصرف الفكرة من ذهنه.

لقد وصل إلى رقم ١٤ حيث كان الباب مفتوحاً قليلاً وإلى جواره أربعة أزرار تحمل أسماء، ولاحظ أن شقة السيدة لوتن كانت في الدور الأرضي، فدخل وضغط جرس الباب الذي كان على يسار البهو. مرّت بضع لحظات قبل أن يرد أحد، وأخيراً سمع وقع أقدام في الداخل وفتحت البابَ امرأةٌ نحيفة طويلة القامة ذات شعر غير منظم ترتدي بنطالاً وتبدو كأنها تلهث قليلاً، وكانت رائحة البصل تفوح من اتجاه المطبخ بشكل واضح. سألها هاردكاسل: السيدة لوتن؟

- نعم.

نظرت إليه بريبة مع شيء من الانزعاج. اعتقد أنها في الخامسة والأربعين، وكان مظهرها العام يتسم بمسحة غجرية بعض الشيء. سألته: ما الأمر؟

- سأكون مسروراً لو منحتِني شيئاً من وقتك.

سألته: "حسناً، بخصوص ماذا؟ في الحقيقة أنا مشغولة جداً

الآن". ثم أضافت بحدّة: لستَ صحفياً، أليس كذلك؟

فقال هاردكاسل بنبرة متعاطفة: بالطبع لست كذلك. أتوقع أن يكون المراسلون قد أزعجوكم كثيراً.

- لقد حدث ذلك فعلاً؛ يطرقون الباب ويدقون الجرس ويوجهون كل أنواع الأسئلة الحمقاء.

قال المفتش: إنهم مزعجون جداً، أعرف ذلك، وأتمنى لو استطعنا أن نوفر عليك كل ذلك يا سيدة لوتن. أنا المفتش هاردكاسل المكلّف بالقضية التي يزعجكم بشأنها المراسلون، وسنضع حداً للكثير من ذلك إذا استطعنا، إلا أننا عاجزون حيال ذلك كما تعلمين، فالصحافة لها حقوقها.

قالت السيدة لوتن: من المخجل أن يُقلقوا راحة الناس الآمنين هكذا مدعومين بأنهم ملزَمون بالحصول على أخبار للرأي العام. الشيء الوحيد الذي لاحظته على الأخبار التي ينشرونها هو أنها عبارة عن قصاصات من الأكاذيب من أولها إلى آخرها... إنهم يلفّقون أي شيء في اعتقادي. عذراً، تفضل بالدخول.

تراجعت إلى الوراء فاجتاز المفتش عتبة الباب، ثم أغلقته. كانت هناك رسالتان سقطتا على ممسحة الأرجل فانحنت السيدة لوتن لترفعهما، إلا أن المفتش سبقها بأدب ملقياً عليهما نظرة خاطفة وهو يناولهما لها، وكانتا معنوَنتين في أعلاهما.

شكرته ووضعتهما على طاولة البهو ثم قالت: هلاّ تفضلتَ بالدخول إلى غرفة الجلوس؟ ادخل من هذا الباب واسمح لي بلحظة فقط، يوجد طبخ يغلي على النار.

وعادت مسرعة إلى المطبخ، فألقى المفتش هاردكاسل نظرة

أخيرة متفحصة على الرسائل التي وُضعت على طاولة البهو. كانت إحداها معنوَنة إلى السيد لوتن، وكانت هناك رسالتان أخريان معنونتان إلى الآنسة «ر. ش. ويب». ثم ذهب إلى الغرفة التي أشارت إليها والتي كانت صغيرة رديئة التأثيث غير مرتبه، غير أنها لم تَخلُ هنا وهناك من بقعة زاهية اللون أو شيء غير مألوف كقطعة جذّابة تجريدية الشكل من الزجاج الإيطالي متعددة الألوان، وربما كانت غالية الثمن، ومقعدَين من القطيفة زاهية اللون، وطبق خزفي كبير مطعَّم بصدفات أجنبية. وفكر هاردكاسل بأن الخالة أو ابنة الأخت كانت تتمتع بحس فني أصيل.

عادت السيدة لوتن وهي تلهث أكثر بقليل من السابق وقالت بشك: أعتقد أن كل شيء على ما يُرام الآن.

اعتذر المفتش مرة أخرى قائلاً: أنا آسف إن كنت قد جئت في وقت غير مناسب، لكن تصادف أنني في الجوار، فأردت أن أتحقق من بضع نقاط أخرى حول هذه القضية التي يبدو أن ابنة أختك متورطة فيها لسوء الحظ الشديد. آمل أن لا تزداد تجرِبتها هذه سوءاً. لا بد أن تكون تلك صدمة كبيرة لأية فتاة.

- أجل، حقاً، فقد عادت شيلا في حالة فظيعة، لكنها تحسنت هذا الصباح وعادت إلى عملها ثانية.

- أعرف ذلك، ولكن قيل لي إنها خرجت لإنجاز عمل لأحد العملاء في مكان ما ولم أشأ عرقلة أي شيء من هذا القبيل، ولهذا رأيت أنه من الأفضل الحضور هنا والتحدث إليها في بيتها. لكنها لم تعُد بعد، أليس كذلك؟

فقالت السيدة لوتن: قد تتأخر هذا المساء. إنها تعمل مع

البروفيسور بوردي، وحسب ما تقوله شيلا فهو رجل لا يتقيد بالوقت إطلاقاً، وهو يردد دائماً: "لن تطول هذه أكثر من عشر دقائق أخرى، لذا يمكننا أن ننتهي منها أيضاً"... ثم تمتد بالطبع إلى ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة. إنه رجل طيب جداً وكثير الاعتذار، وقد ألحّ عليها مرة أو مرتين بالبقاء وتناول الغداء ليبدو بعد ذلك مهموماً لأنه أخّرها أطول بكثير مما كان يتوقع. هذا أمر مزعج في بعض الأحيان. هل يوجد شيء تريدني أن أخبرك به يا حضرة المفتش؟ قد تتأخر شيلا كثيراً.

قال هاردكاسل مبتسماً: حسناً، لقد قمنا أمس بتدوين التفصيلات المجردة فقط، ولا أدري إن كنتُ قد حصلت عليها بشكل صحيح.

تظاهر بمراجعة دفتر الملاحظات مرة أخرى ثم قال: الآنسة شيلا ويب، أهذا هو اسمها الكامل أم أن لها اسماً آخر (من الأسماء التي تُطلَق على الطفل عند الولادة أحياناً)؟ ينبغي أن تكون معلوماتنا هذه دقيقة جداً من أجل مَحاضر تحديد سبب الوفاة كما تعلمين.

- موعد الجلسة بعد غد، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن لا داعي لأن يقلقها ذلك؛ ليس عليها سوى أن تروي كيف عثرت على الجثة.

- ألم تعرفوا من يكون الرجل؟

- ليس بعد، وأخشى أن هذا سابق لأوانه. لقد وجدنا بطاقة في جيبه جعلَتنا نتصور في البداية أنه قد يكون وكيل تأمين، غير أن الأرجح الآن أن شخصاً آخر أعطاه البطاقة، وربما كان هو نفسه يفكر في التأمين.

- آه، فهمت.

بدت السيدة لوتن مهتمة بغموض، في حين قال المفتش: والآن سأتحقق من صحة هذه الأسماء فقط: أظن أن اسمها المدوَّن عندي هو «شيلا ويب» أو «الآنسة ر. شيلا ويب»، لكن ليس باستطاعتي أن أتذكر اسمها الآخر الذي يبدأ بحرف الراء. هل هو روزالي؟

قالت السيدة لوتن: بل «روزماري»؛ لقد عُمِّدت باسم روزماري شيلا، لكن شيلا اعتبرت اسم روزماري وهمياً بالأحرى، ولهذا لم تستعمله قط.

- فهمت.

لم يكن في نبرة هاردكاسل ما يدل على سروره بأن حدسه هذا أثبت صحته، وقد لاحظ نقطة أخرى، إذ لم يسبب ذكر اسم روزماري أيّ كدر للسيدة لوتن. كان اسم روزماري بالنسبة لها الاسم الأول الذي لم تستخدمه ابنة شقيقتها فقط لا أكثر.

قال المفتش باسماً: الآن فهمت ذلك بشكل صحيح. أعتقد أن ابنة أختك جاءت من لندن وأنها تعمل في مؤسسة كافنديش منذ عشرة أشهر تقريباً. ألا تعرفين تاريخ ذلك بدقة؟

- حسناً، في الحقيقة لا أجزم بالتاريخ الآن. كان ذلك في وقت ما من تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي... أظنه في أواخر تشرين الثاني على الأرجح.

- وقبل حصولها على عملها في مؤسسة كافنديش، أكانت مقيمة معك هنا؟

- لا، بل كانت تقيم في لندن قبل ذلك.

- هل لديك عنوانها في لندن؟

- حسناً، إنه عندي في مكان ما.

تلفَّتت السيدة لوتن حولها بتعبير مبهَم عن طبيعتها الفوضوية ثم قالت: "إن ذاكرتي ضعيفة حقاً". ثم أضافت: إنه شيء من قبيل «آلنغتون غروف»، وأظن أنه كان في الطريق إلى فولهام. كانت تتقاسم شقة مع فتاتين أخريَين. إنها غرف غالية جداً للبنات في لندن!

- هل تتذكرين اسم الشركة التي كانت تعمل فيها هناك؟

- آه، نعم، «هوبغود وترنت»، سماسرة عقارات في طريق فولهام.

- شكراً لك، هذا كله يبدو واضحاً جداً. الآنسة ويب يتيمة، أليس كذلك؟

قالت السيدة لوتن: "بلى". وتململت بشيء من عدم الارتياح وشرد نظرها نحو الباب ثم قالت: أتسمح لي بالذهاب إلى المطبخ ثانية؟

- بالطبع.

فتح لها الباب فخرجت، وتساءل مع نفسه إن كان على حق في تصوره أن سؤاله الأخير قد أربك السيدة لوتن بطريقة ما؛ فقد كانت أجوبتها تأتي بفورية تامة وبسهولة حتى تلك اللحظة. بقي يفكر في ذلك حتى عادت السيدة لوتن فقالت معتذرة: آسفة جداً؛ ولكنك تعرف السبب... الطبخ. لكن كل شيء على ما يُرام الآن. هل لديك أي شيء آخر تريد الاستفسار عنه؟ بالمناسبة، لقد تذكرت أن

العنوان لم يكن آلنغتون غروف، بل كان كارنغتون غروف، والرقم هو ١٧.

- شكراً لك. كنت أسألك إن كانت الآنسة ويب يتيمة.

- نعم، يتيمة؛ لقد مات والداها.

- منذ فترة طويلة؟

- منذ كانت طفلة.

كان في نبرتها شيء دفين أشبه ما يكون بالتردد، وسألها هاردكاسل قائلاً: هل هي ابنة أختك أم ابنة أخيك؟

- ابنة أختي.

- حسناً، وماذا كانت مهنة السيد ويب؟

سكتت السيدة لوتن لحظة قبل الإجابة، وعضت شفتيها ثم قالت: لا أدري.

- لا تدرين؟!

- أعني أنني لا أتذكر؛ فقد مضى على ذلك زمن طويل.

تريث هاردكاسل عارفاً بأنها ستعود لتتكلم، وقد فعلت فقالت: هل لي أن أسأل عن علاقة كل هذا بالقضية؟ أعني... ما أهمية معرفة مَن كان أبوها وأمها وماذا كانت مهنة أبيها ومن أين جاء وما إلى ذلك؟

- أحسب أن هذا لا يهم من وجهة نظرك أنت، لكن الظروف غير عادية كما تعلمين.

- ماذا تعني بظروف غير عادية؟

- حسناً، لدينا أسبابنا للاعتقاد بأن الآنسة ويب ذهبت إلى ذلك البيت أمس لأنها طُلب منها هي بالتحديد القيام بذلك في مؤسسة كافنديش، لذا فالأمر يبدو وكأن شخصاً ما قد خطط لها عمداً لكي تكون موجودة هناك، وهذا الشخص ربما... ربما كان يُضمر لها شراً.

- لا أستطيع أن أتصور وجود من يمكن أن يضمر شرّاً لشيلا؛ إنها فتاة لطيفة جداً.

قال هاردكاسل متلطفاً: أجل، هذا هو ما أعتقده شخصياً.

فقالت السيدة لوتن بتحد: ولا أحب أن أسمع أي شخص يقول العكس.

استمرّ هاردكاسل يبتسم مسترضياً وقال: بالضبط، لكن عليك أن تدركي أن المسألة تبدو وكأن ابنة أختك قد جُعلت ضحية عن عمد يا سيدة لوتن، فقد وُضعت في المشهد (كما يقولون في الأفلام السينمائية)، ولعل شخصاً ما قد خطط لها لكي تدخل بيتاً فيه رجل ميت، رجل مات لتوّه... يبدو أن للحقد علاقة بالقضية.

- هل تعني... هل تعني أن شخصاً ما يحاول أن يُظهر شيلا كأنها هي القاتلة؟ آه، لا، لا يمكنني تصديق ذلك.

وافقها المفتش قائلاً: هذا شيء يصعب تصديقه فعلاً، لكن علينا أن نتأكد تماماً من الموضوع ونفسّره. ألا يُحتمَل وجود شاب أو شخص ما وقع في حب ابنة أختك مثلاً وربما لم يَرُق لها؟ يقوم الشبّان بأشياء مريرة وانتقامية أحياناً، خصوصاً عندما يختل توازنهم.

قالت السيدة لوتن وهي تضيّق حدقتَي عينيها بتجهم: لا أرى إمكانية وجود أي شيء من هذا القبيل.

اقترح هاردكاسل متسائلاً: ألم يكن ذلك ممكناً عندما كانت تقيم في لندن؟ على أية حال لا أظن أنك تعرفين الكثير عن أصدقائها هناك.

- فعلاً، لا أظنني أعرف. يتعين عليك تقصّي ذلك بنفسك يا حضرة المفتش، لكنني لم أسمع بأي مشكلة من أي نوع.

اقترح هاردكاسل مرة أخرى قائلاً: أو ربما كانت فتاة أخرى... ربما كانت إحدى الفتيات اللائي أقامت معهن وقد غارت منها لسبب ما؟

قالت السيدة لوتن بتأمل: ربما وُجدت فتاة تريد إيذاءها، ولكن دون اقتراف جريمة قتل بالتأكيد.

كان ذلك تقييماً ذكياً، وقد لاحظ هاردكاسل أن السيدة لوتن لم تكن امرأة ساذجة بأي شكل من الأشكال، فعاجلها قائلاً: أعلم أن هذا كله يبدو غير محتمَل، ومن ثَم فهذه القضية برمّتها ليست محتمَلة.

قالت السيدة لوتن: لا بد أنه شخص مجنون.

- حتى الجنون توجد فكرة محددة تقف وراءه، شيء ما دفع بها إلى الظهور، ولهذا السبب كنت أسألك عن والد ووالدة شيلا في الحقيقة. ستُدهَشين إذا علمت كم مرة تظهر فيها الدوافع ممتدة في جذورها إلى الماضي. لقد مات والدا شيلا عندما كانت طفلة صغيرة، وبالطبع لن يمكنها أن تخبرني بأي شيء عنهما، ولهذا السبب أطلب منك ذلك.

- فهمت، ولكن... حسناً.

لاحظ أن القلق والتردد قد عاودا صوتها فقال: هل قُتلا في نفس الوقت إثر حادث أو شيء من هذا القبيل؟

- لا، لم يكن نتيجة حادث.

- هل ماتا بأسباب طبيعية؟

- إنني... حسناً، نعم، أعني... لا أدري في الحقيقة.

- لا بد أنك تعلمين شيئاً أكثر مما تقولينه يا سيدة لوتن.

قال المفتش مخاطراً بذلك التخمين وأردف قائلاً: هل كانا منفصلَين مثلاً؟

- لا، لم يكونا منفصلَين.

- أخبريني الآن يا سيدة لوتن فأنت تعلمين؛ لا بد أنك تعرفين سبب وفاة أختك.

- أنا لا أجد ما... أعني أنني لا أستطيع أن أقول... الأمر كله صعب، تقليب للمواجع و... يُستحسن عدم نبش الماضي.

لاح في نظرتها نوع من الارتباك واليأس، فنظر إليها هاردكاسل بإمعان ثم قال بلطف: هل كانت شيلا ويب طفلة غير شرعية مثلاً؟

رأى في الحال مزيجاً من التركيز والاسترخاء في وجهها وقالت: إنها ليست طفلتي أنا.

- أهي الطفلة غير الشرعية لأختك؟

- نعم، ولكن شيلا لا تعرف ذلك شخصياً لأنني لم أخبرها

قط. لقد أخبرتها بأن والديها ماتا شابين، ولهذا... حسناً، كما ترى...

قال المفتش: آه، نعم، فهمت، وأؤكد لك أنه إن لم يكن لذلك ضرورة فأنا لن أستجوب الآنسة ويب بشأن هذا الموضوع.

- أتعني أنك لن تخبرها؟

- نعم، إلا إذا كان الأمر ذا علاقة بالقضية. ويمكنني القول إن هذا غير محتمَل، ولكنني بحاجة إلى كل الحقائق التي تعرفينها بالتأكيد يا سيدة لوتن، وأؤكد لك أني سأبذل كل ما بوسعي لإبقاء ما تخبرينني به طي الكتمان تماماً.

قالت السيدة لوتن: إنه شيء كريه الحدوث، ويمكنني إخبارك بأنني كنت حزينة بسببه، فقد كانت أختي أذكى مَن في الأسرة، كانت معلّمة في مدرسة وكان عملها ممتازاً جداً وكانت محترَمة جداً، وكانت آخر من تظن أبداً أنها...

فقال المفتش بحذق: لا بأس، فكثيراً ما يحدث ذلك بتلك الطريقة: ثم تعرفَت على ذلك الرجل ويب.

قالت السيدة لوتن: لم أكن أعرف حتى اسمه ولم أقابله قط، لكنها جاءت وأخبرتني بما حدث وبأنها كانت حاملاً وبأن الرجل لم يكن أو لن يكون قادراً على الزواج بها. كانت امرأة ذات طموح، إلا أن ما حدث لها يعني التخلي عن وظيفتها إن افتُضح أمرها، ولهذا فمن الطبيعي أني... أني أبديت استعدادي للمساعدة.

- أين أختك الآن يا سيدة لوتن؟

فقالت مؤكدة: ليست عندي فكرة، لا فكرة إطلاقاً.

- إذن فهي على قيد الحياة؟

- أعتقد ذلك.

- إلا أنك لم تحافظي على الاتصال بها، أليس كذلك؟

- بلى، هذا ما أرادت. كانت ترى أن الأفضل للطفلة ولها أن ينفصلا تماماً، وهكذا فقد تمّت تسوية الأمر بتلك الطريقة. كان يأتينا إيراد صغير ورثناه عن أمنا، فحولت آن نصيبها إليّ لاستخدامه في تربية الطفلة ورعايتها. كانت عازمة على الاستمرار في وظيفتها كما قالت، لكن كان عليها تغيير المدرسة، وكانت لديها فكرة ما حول التبادل مع معلمة أخرى خارج البلاد لمدة سنة واحدة... إلى أستراليا أو مكان ما كما أعتقد. هذا كل ما يمكن أن أخبرك به، وهو كل ما أعرفه يا حضرة المفتش هاردكاسل.

نظر إليها بتأمل. هل كان ذلك كل ما تعرفه حقاً؟ سؤال تصعب الإجابة عليه بأي درجة من اليقين. لقد كان ذلك بالتأكيد كل ما أرادت أن تخبره به، وقد يكون هو كل ما تعرفه فعلاً، لكن ما ذُكر بخصوص الأخت كان قليلاً. وبنفس المقدار كوّن هاردكاسل انطباعاً عن شخصية عصبية عنيفة قوية. كانت من صنف النساء اللائي يصمّمن على أن لا تدمّر حياتَهن غلطةٌ واحدة، وبطريقة باردة وعنيدة وفّرت ما يلزم لرعاية طفلتها وسعادتها المحتمَلة، ومنذ تلك اللحظة فما بعدها أطلقت العنان لنفسها لتبدأ حياة جديدة مستقلة.

رأى المفتش أن بالإمكان فهم ما شعرت به تجاه الطفلة، ولكن ماذا عن أختها؟ قال بمرونة: يبدو غريباً أنها لم تبقَ على اتصال بك، على الأقل من خلال الرسائل. ألم ترغب في معرفة تطورات حياة ابنتها؟

هزت السيدة لوتن رأسها بالنفي وقالت: أنت لا تعرف آن؛ لقد كانت قاطعة في قراراتها، ثم إننا لم نكُن متقاربتين جداً، فقد كنت أصغر منها باثنتَي عشرة سنة ولم نكن قط متقاربتين كما قلتُ.

- وماذا كان موقف زوجك من هذا التبني؟

قالت السيدة لوتن: كنت أرملة آنذاك، فقد تزوجت وأنا صغيرة وقُتل زوجي في الحرب، فقمت بإدارة متجر حلوى صغير في حينها.

- أين حدث كل هذا؟ هل كان هنا في كراودن؟

- لا، كنا نقيم في لنكولنشاير آنذاك، ثم جئت هنا خلال العطلة ذات مرة وأعجبني المكان لدرجة أنني بعت المتجر وجئت لأسكن هنا، وفيما بعد عندما بلغَت شيلا سن الدخول إلى المدرسة حصلتُ على وظيفة في شركة روسكو تجّار الأقمشة الكبار هنا، وما زلت أعمل هناك. إنهم أناس طيبون جداً.

قال هاردكاسل وهو ينهض واقفاً: شكراً جزيلاً على صراحتك في كل ما أخبرتِني به يا سيدة لوتن.

- لن تبوح بكلمة منه لشيلا بالطبع.

- بالطبع، ما لم يكن ذلك ضرورياً. ولن يحدث هذا إلا عند ثبوت أن بعض ظروف الماضي متصلة بجريمة القتل الجديدة هذه، وهو أمر مستبعَد كما أظن.

ثم أخرج من جيبه الصورة التي عرضها سابقاً على العديد من الناس، وعرضها على السيدة لوتن قائلاً: ألديك فكرة عمّن يمكن أن يكون هذا الرجل؟

قالت السيدة لوتن: لقد عرضوها عليّ من قبل.

أخذتها وراحت تمعن النظر إليها بجدية ثم قالت: نعم، أنا متأكدة، متأكدة تماماً أنني لم أرَ هذا الرجل قط. لا أعتقد أنه من هذه المنطقة ولا أتذكر رؤيته في هذه الأنحاء.

وتوقفَت لحظة تنظر عن كثب قبل أن تضيف بصورة مفاجئة: إنه يبدو رجلاً طيباً وسيّداً محترَماً، أليس كذلك؟

كان ذلك تعبيراً عفا عليه الزمن حسب خبرة المفتش، رغم أنه خرج طبيعياً من شفتَي السيدة لوتن. وفكر في نفسه أنها نشأت في الريف وأن الناس هناك ما زالوا يرون الأشياء بتلك الطريقة، وعاد فنظر إلى الصورة بنفسه من جديد فأطرق مع قليل من التعجب متأملاً في أنه لم يفكر في الرجل بنفس الطريقة تماماً. هل كان رجلاً طيباً؟

لقد كان يفترض العكس تماماً، افتراضاً ربما كان غير مقصود أو ربما كان واقعاً تحت تأثير حقيقة مفادها أن الرجل كان في جيبه بطاقة تحمل اسماً أو عنواناً مزيفَين بوضوح، لكن التفسير الذي قدمه لتوه إلى السيدة لوتن قد يكون هو الصحيح، فالبطاقة ربما كانت تمثل وكيل تأمين مزيفاً كان قد فرض البطاقة على الرجل قبل موته، وبالتالي سيؤدي ذلك إلى جعل المسألة برمتها أكثر صعوبة حقاً، وهذا أسوأ ما في الأمر.

ألقى هاردكاسل نظرة سريعة على ساعته من جديد وقال: ينبغي أن لا أعوقك عن طبخ طعامك أكثر من هذا ما دامت ابنة أختك لم تعُد إلى البيت بعد.

نظرت السيدة لوتن بدورها إلى الساعة على رفّ المدفأة،

وقال المفتش لنفسه: في هذه الغرفة ساعة واحدة فقط، الحمد لله.

أبدت السيدة لوتن ملاحظتها بقولها: أجل، لقد تأخرَت. عجيب حقاً! حسناً فعلَت إذن إذ لم تنتظر.

وعندما شاهدت تعبيراً حائراً على وجه هاردكاسل أوضحت قائلة: إنها إحدى الفتيات من المكتب. لقد جاءت لترى شيلا هذا المساء وانتظرَتها قليلاً، لكنها قالت بعد هنيهة إنها غير قادرة على الانتظار مدة أطول لأنها كانت على موعد مع شخص ما، وقالت إن يوم غد أو أي وقت آخر سيكون مناسباً.

هبط الوحي على المفتش فجأة فتذكر الفتاة التي مرّ بها في الشارع، لقد عرف لماذا جعلته يفكر في الأحذية؛ بالطبع، إنها الفتاة التي استقبلَته في مؤسسة كافنديش، وهي الفتاة التي رآها عندما كان مغادراً تحمل فردة حذاء بكعب مدبب منفصل عنه، وكانت تناقش محتارة بائسة كيف سيمكنها العودة إلى البيت وهي في تلك الحال! فتاة يصعب وصفها حسبما يتذكر؛ ليست جذابة جداً، تمتص نوعاً من الحلوى وهي تتكلم، وقد عرفته حينما مرت بجانبه في الشارع رغم أنه لم يعرفها، وقد ترددَت هي أيضاً كما لو أنها همّت بالتحدث إليه. وتساءل دون جدوى عما أرادت أن تقوله. هل أرادت أن تشرح سبب زيارتها لشيلا أم أنها ظنت بأنه توقع منها أن تقول شيئاً؟

سأل السيدة لوتن قائلاً: هل هي صديقة حميمة لابنة أختك؟

- ليس على وجه الخصوص. أعني أنهما تعملان في نفس المكتب وما إلى ذلك، لكنها فتاة غريبة وليست ذكية جداً، وهي وشيلا ليستا صديقتين حميمتين، وفي الواقع تساءلتُ لماذا كانت تريد رؤية شيلا هذه الليلة بشدة، وقد قالت إن الأمر يتعلق بشيء لا

تستطيع أن تفهمه وتريد أن تسأل شيلا عنه.

- ألم تخبرك ما هو؟

- قالت إنه ليس مهماً ويمكن أن ينتظر.

- حسناً، يجب أن أذهب الآن.

قالت السيدة لوتن: إنه لشيء غريب أن لا تتصل شيلا هاتفياً، فهي في العادة تفعل ذلك إذا تأخرَت لأن البروفيسور يطلب منها أن تبقى للعشاء أحياناً. آه، حسناً، أتوقع أن تكون هنا في أية لحظة الآن، فطوابير الحافلات تكون مزدحمة أحياناً ولا يبعد فندق كرليو سوى مسافة بسيطة على امتداد شارع إسبلانيد. هل لديك شي أو رسالة تريدني أن أبلغ شيلا بها؟

- لا أعتقد ذلك.

وبينما كان في طريقه إلى الخارج سألها قائلاً: بالمناسبة، من الذي اختار الاسمَين روزماري وشيلا لابنة أختك؟ أنت أم أختك؟

- شيلا كان اسم والدتنا، أما روزماري فهو اختيار أختي. إنه اسم خيالي جميل حقاً، ومع ذلك فلم تكن أختي خيالية ولا عاطفية بأية صورة.

- حسناً، تصبحين على خير يا سيدة لوتن.

عندما انعطف المفتش من زاوية ممر البوابة نحو الشارع قال لنفسه: روزماري؟ حسناً، روزماري للذكرى، ذكرى عاطفية أم شيء مختلف تماماً؟

* * *

الفصل الثالث عشر
(برواية كولن لامب)

سرتُ حتى بلغتُ تقاطع تشيرنغ كروس، ثم انعطفت داخلاً في متاهة من الشوارع الملتوية بين شارع نيو أكسفورد وحدائق كوفنت... متاجر من كل الأنواع تمارس عملها هناك، محلات للتحف، مصنع للّعب، أحذية للباليه، مطاعم مأكولات أجنبية...

بلغت مقصدي أخيراً. كان متجراً صغيراً حقيراً لبيع الكتب في شارع فرعي ليس بعيداً عن المتحف البريطاني، وكانت رفوف عرض الكتب خارج المتجر كالعادة: روايات قديمة، كتب دراسية قديمة، متفرقات من شتى الأصناف أُلصقت عليها تسعيرتها: ثلاثة بنسات، ستة بنسات، شلن واحد... وحتى بعض الكتب الفخمة بكامل صفحاتها تقريباً مع غلاف سليم أحياناً.

ولجت خلال المدخل، وكان من الضروري أن أسير مائلاً ما دامت الكتب المرتبة بشكل غريب تتراكم أكثر فأكثر كل يوم عند المدخل بدءاً من الشارع، ومن الداخل بدا واضحاً أن الكتب هي التي احتوت المتجر وليس العكس، فقد تنامت في كل مكان واحتلت كل المواضع، وبدا كأنها تتكاثر ويتضاعف عددها، ولم تكن هناك يد قوية لكبحها. كانت المسافة بين رفوف الكتب ضيقة

لدرجة أنك لا تستطيع المرور إلا بمشقة عظيمة، وأكداس الكتب تزداد ارتفاعاً على كل رف وطاولة.

على معقد في الركن جلس رجل عجوز محاط بالكتب ذو قبعة مسطحة ووجه واسع كأنه سمكة محشوة وعليه أمارات شخص منسحب من صراع غير متكافئ؛ لقد أجهد نفسه للسيطرة على الكتب، إلا أن الكتب تمكنت من السيطرة عليه بشكل واضح أخيراً! وعندما رآني لانت نظرته السمَكية برهة وجيزة وأومأ برأسه، فسألتُه: هل لديك شيء من اختصاصي؟

- عليك أن تصعد لترى يا سيد لامب. أما زلت تريدها عن الأعشاب البحرية وما شابه ذلك؟

- هذا صحيح.

- حسناً، أنت تعرف أين تكون. أحياء بحرية، متحجرات، القارة القطبية الجنوبية... في الطابق الثاني. وصلتني رزمة جديدة أمس الأول، وقد بدأتُ بتقسيمها لكني لم أقُم بمعاينتها بعد. ستجدها في ركن هناك.

أومأتُ برأسي وسرتُ مائلاً قُدُماً إلى حيث كان سلم متداعٍ قذر جداً في مؤخرة المتجر يؤدي إلى الأعلى. في الطابق الأولَ كانت كتب الاستشراق والفن والطب والتقاليد الفرنسية. في هذه الغرفة زاوية صغيرة محاطة بستارة، زاوية مجهولة لدى عامة الجمهور لكنها سهلة المنال عند الخبراء حيث تقبع الكتب الغريبة والمثيرة للفضول.

اجتزتها وواصلت الصعود إلى الطابق الثاني حيث كانت كتب الآثار والتاريخ الطبيعي وكتب محترَمة أخرى صُنِّفت إلى فئات بشكل

غير متلائم نسبياً. سلكت سبيلي من خلال حشد من الطلبة والضباط القدماء ورجال الدين، ثم انعطفتُ عند زاوية إحدى خزانات الكتب وأنا أدوس على رُزَم مفكّكة من الكتب على الأرض، ومن ثَمّ أزحت ستارة كانت تواري خلفها باباً وأخرجتُ مفتاحاً من جيبي وفتحته، ثم دخلتُ لأجد نفسي بصورة مزرية في نوع من الدهاليز ذي جدران غير نظامية عُلقت عليها صور شتى وفيه باب عليه مقرعة شديدة اللمعان. عالجتُ المقرعة بحذر ففتحَت البابَ سيدةٌ كبيرة السن ذات شعر أشيب ونظارتين من طراز قديم ترتدي تنورة سوداء وكنزة مخططة باللون الأخضر غير منسجمة. قالت السيدة دون أية صيغة أخرى للتحية: هذا أنت إذن، أليس كذلك؟ لقد كان يسأل عنك يوم أمس، لم يكن مسروراً.

وهزت رأسها وكأنها مربية أطفال عجوز تفعل ذلك مع طفل مشاكس قائلة: عليك أن تحاول العمل بشكل أفضل.

قلت لها: آه، كُفّي عن ذلك يا جدتي.

قالت السيدة: لا تنادِني بجدتي... هذه وقاحة، وقد سبق أن نبّهتك.

- إنها غلطتك أنت؛ ينبغي أن لا تكلميني كما لو كنتُ صبياً صغيراً.

- لقد آن لك أن تنضج. خير لك أن تدخل وتُنهي المسألة.

ثم ضغطت زرا والتقطت سماعة الهاتف وقالت: السيد كولن... نعم، سأدخله.

أومأت لي بعد أن وضعَت السماعة، فدخلتُ من باب يقع في آخر الغرفة إلى غرفة أخرى كانت عابقة بالدخان حتى صار من

الصعب رؤية أي شيء بوضوح، وبعد أن مسحت عينَيّ الدامعتين رأيت رئيسي البدين جالساً على كرسي قديم متداعٍ وإلى جوار ذراعه منضدة قديمة دَوّارة للقراءة والكتابة.

خلع الكولونيل بيك نظارته وأزاح منضدة القراءة التي كان عليها مجلد ضخم، ثم نظر إليّ مستنكراً وقال: إذن فهذا أنت أخيراً؟

- نعم يا سيدي.

- هل حصلت على شيء؟

- لا يا سيدي.

- آه، لن يُجدي ذلك يا كولن، أتسمعني؟ لن يجدي. تلك الأهلّة بالتأكيد...

- ما زلت أعتقد أن...

قاطعني قائلاً: حسناً، ما زلتَ تعتقد، ولكننا لا نستطيع الانتظار إلى الأبد في حين تفكر أنت.

- أعترف بأنه كان مجرد تخمين.

- لا ضير في ذلك.

كان رجلاً متناقضاً، وقد أكمل قائلاً: كانت أفضل أعمالي التي أنجزتها مَبنيّة على التخمين، إلا حدسك هذا فلا يبدو صحيحاً. هل انتهيت من المقاهي؟

- نعم يا سيدي، وكما أخبرتك فقد بدأتُ بالأهِلّة... أعني بيوتاً في الشوارع التي تم تصميمها على شكل أهِلّة.

- وأنا بدوري لم أفهم من قولك أنك تعني المخابز التي توجد فيها الأرغفة! ومع ذلك تعالَ نفكر في الأمر، فلا داعي لاستبعاد ذلك، فبعض هذه المتاجر تروّج لنفسها بشكل هائل؛ تنتج الكعك الهلالي الفرنسي (وهو ليس فرنسياً في الواقع) ثم يحفظونه بالبرّادات مثل أي شيء آخر في هذه الأيام، ولهذا السبب فما من شيء تجد له أي نكهة.

انتظرت لأرى ما إذا كان رئيسي سيتوسع في هذا الموضوع لأنه موضوعه المفضَّل، ولكنه عندما وجدني أنتظر منه ذلك أحجم عنه. ثم قال مستفسراً: هل انتهيت من كل ما يحيط بها؟

- تقريباً؛ ما زال أمامي القليل لأقوم به.

- أنت تريد المزيد من الوقت إذن، أليس كذلك؟

قلت له: بلى، أريد المزيد من الوقت، لكنني لا أريد التحرك نحو مكان آخر حالياً، فقد حدث شيء مصادَفةً، وهو ربما يعني شيئاً... أقول ربما.

- لا تراوغ، أعطِني حقائق.

- إنها قضية قيد التحقيق، هلال ولبراهام.

- ورجعتَ خالي الوفاض، أليس كذلك؟

- لست متأكداً.

- وضّح ما تقول، وضح ما تقول يا فتى.

- المصادفة هي أن رجلاً قُتل في هلال ولبراهام.

- من الذي قُتل؟

- لم يُعرَف حتى الآن. كانت في جيبه بطاقة تحمل اسماً وعنواناً، لكنها مزيفة.

- هذا يوحي بشيء بالفعل. هل له علاقة بأي شكل؟

- لا يمكنني أن أقول ذلك يا سيدي، ولكن لا فرق.

- أعرف، أعرف، لا فرق. حسناً، ما الذي جئت لأجله؟ هل جئت لتطلب الإذن بالذهاب للتحري في هلال ولبراهام؟ أين يكون ذلك المكان ذو الاسم السخيف؟

- في منطقة تُدعى كراودن، وهي تبعد نحو عشرة أميال عن بورتلبري.

- نعم، نعم، منطقة جيدة جداً، ولكن ما الذي جئت لأجله؟ أنت لا تطلب إذناً عادة بل تتبع طريقتك الخاصة العنيدة، أليس كذلك؟

قلت بابتسامة خَجْلى: هذا صحيح سيدي.

- حسناً، ماذا تريد إذن؟

- أريد التدقيق بشأن شخصين.

وبتنهيدة سحب الكولونيل بيك طاولة القراءة إلى موضعها وأخرج قلم الحبر الجاف من جيبه ونفخ عليه ونظر إليّ قائلاً: حسناً، ماذا لديك؟

- بيت يسمى «ديانا لودج»، رقم ٢٠ في هلال ولبراهام، تعيش فيه امرأة تُدعى السيدة همينغ مع نحو ثماني عشرة قطة.

- حسناً، وماذا تعمل السيدة همينغ هذه؟

- لا شيء، إنها منهمكة مع قططها.

قال بيك مفكراً: يبدو هذا غطاء جيداً لعيناً، يمكنني أن أقول ذلك، إنه ممكن بالتأكيد. أهذا هو كل شيء؟

- لا؛ يوجد رجل يُدعى رامزي يسكن في ٦٢ هلال ولبراهام، ويُقال إنه مهندس معماري، ولكنه يسافر كثيراً إلى الخارج.

قال الكولونيل: هذا يعجبني، يعجبني جداً. تريد عنه معلومات، أليس كذلك؟ حسناً.

- إن لديه زوجة طيبة جداً وطفلين مشاغبين.

- حسناً، قد يكون لديه، هذا معروف. هل تتذكر بندلتون؟ كانت له زوجة وأطفال، زوجة طيبة جداً، أغبى امرأة عرفتها على الإطلاق. لم تكن لتعلم أن لزوجها زوجة ألمانية وابنتين، وكانت له زوجة أيضاً في سويسرا، ولا أدري ما إذا كانت الزوجتان الأخريان لنزواته الخاصة أم أنهما لمجرد التمويه... لكنه بالطبع كان سيقول إنهما للتمويه! حسناً، على أية حال فأنت تريد معلومات عن السيد رامزي. هل من شيء آخر؟

- لست متأكداً؛ يوجد زوجان يسكنان في المنزل رقم ٦٣، أستاذ متقاعد اسمه ماك لوتن، اسكتلندي متقدم في السن يُمضي معظم وقته في العمل في حديقته. ما من سبب يدعو للظن أنه وزوجته موضع شك، ولكن...

- حسناً. سنتحقق منهما أيضاً. لكن ما علاقة هؤلاء بالقضية أصلاً؟

- إنهم أناس تشرف حدائقهم على حديقة البيت الذي ارتُكبت

فيه جريمة القتل أو تتصل بها.

قال بيك: إنها تشبه إحدى الفوازير الفرنسية: «أين جثة عمي؟ إنها في حديقة ابن عم عمتي...». ماذا عن المنزل رقم ١٩ نفسه؟

- تسكن هناك امرأة كفيفة، معلمة سابقة، وتعمل حالياً في معهد للمكفوفين، وقد تم التحقيق الشامل معها من قِبل الشرطة المحلية.

- هل تعيش وحدها؟

- نعم.

- وما رأيك في كل أولئك الناس الآخرين؟

- رأيي أنه إذا كان أي من أولئك الأشخاص قد ارتكب جريمة قتل في أي من تلك البيوت الأخرى التي ذكرتها لك فسيكون من السهل عليه تماماً -رغم المجازفة- نقل الجثة إلى داخل المنزل رقم ١٩ في وقت مناسب من النهار. إنه مجرد افتراض، ولكنْ عندي شيء أود أن أريه لك... هذه.

أخذ بيك قطعة النقود الملوَّثة بالطين التي وجدها الولدان في الحديقة، وقال: قطعة نقد تشيكية! أين وجدتَها؟

- لم أجدها أنا، لكن عُثر عليها في الحديقة الخلفية للمنزل رقم ١٩.

- هذا مثير للاهتمام. إذن فقد تكون حققتَ شيئاً من خلال تركيزك المتواصل على الأهلّة والأقمار!

ثم أضاف قائلاً وهو يتأمل: في الشارع الذي يلي هذا الشارع مقهى يُدعى «القمر الصاعد»، لِمَ لا تذهب وتجرب حظك هناك؟

- لقد ذهبت إلى هناك فعلاً.

- أنت حاضر الجواب دائماً، أليس كذلك؟ أتشرب شيئاً من القهوة؟

هززت رأسي وقلت: شكراً لك؛ لا وقت عندي اليوم.

- هل ستعود إلى كراودن؟

- نعم، أريد حضور جلسة التحقيق هناك.

- الجلسة ستؤجَّل فحسب. هل أنت متأكد من أنها ليست فتاة ما تجري وراءها في كراودن؟

أجبته بحدة: بالتأكيد يا سيدي.

طفق بيك يضحك بصورة مفاجئة وقال: راقب خطواتك يا فتى؛ فالعلاقات المشبوهة تطلع بقرنها القبيح كالمعتاد! منذ متى تعرفها؟

- لا شيء من ذلك، أعني... حسناً، كانت هناك الفتاة التي اكتشفَت الجثة.

- ماذا فعلَت عندما اكتشفت الجثة؟

- صرخت.

- جميل جداً. اندفعت نحوك وبكت على كتفك وأخبرتك عن الجريمة، أليس كذلك؟

قلت ببرود: لا أدري عمّ تتحدث! ألقِ نظرة على هذه.

ناولتُه مجموعة من صور الشرطة، فسأل قائلاً: من هذا؟

- القتيل.

- بنسبة عشرة إلى واحد فإن هذه الفتاة التي تهتمّ بها هي التي قتلته. القصة كلها مشكوك فيها في رأيي.

- رغم أنك لم تسمع القصة بعد إذ لم أروِها لك!

لوّح الكولونيل بيك بلفافة الدخان في يده قائلاً: لا تلزمني الراوية. هيا، عُد إلى تحقيقك يا فتى وراقب تلك الفتاة بدقّة. هل لاسمها علاقة بالهلال أو القمر؟

- لا.

- حسناً، تذكر أنه قد يكون كذلك.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع عشر
(برواية كولن لامب)

لقد مرّ زمن طويل على آخر زيارة قمت بها لمجمّع وايتهافن. كان المجمع فيما مضى مبنى بارزاً مؤلفاً من شقق حديثة، أما الآن فتوجد مجموعة من المباني المهيبة على جانبَيه تفوقه حداثة. لاحظت من الداخل أنه قد جُمِّل مؤخراً وأعيد طلاؤه بألوان باهتة من الأصفر والأخضر.

صعدتُ بالمصعد وقرعت جرس الشقة رقم ٢٠٣، ففتح لي البابَ ذلك الخادم الوفي جورج، وارتسمَت على مُحيّاه ابتسامة ترحيب وقال: السيد كولن؟ لقد مرّ زمن طويل على رؤيتك هنا.

- أجل، أعرف. كيف حالك يا جورج؟

- أنا بصحة جيدة، وسعيد لأن أقول ذلك يا سيدي.

قلت له بصوت خفيض: وكيف حاله؟

خفض جورج صوته (رغم أن ذلك لم يكن ضرورياً حيث كان يتحدث بصوت منخفض منذ البداية) وقال: أعتقد أنه يُصاب أحياناً بشيء من الكآبة يا سيدي.

أومأت برأسي متعاطفاً فقال: تفضل من هنا يا سيدي.

وأخذ قبعتي فقلت له: قدّمني باسم كولن لامب لو سمحت.

- كما تشاء سيدي.

ففتح باباً وقال بصوت واضح: "السيد كولن لامب يودّ مقابلتك يا سيدي". ثم تراجع ليسمح لي بتجاوزه فدخلت الغرفة.

كان صديقي هيركيول بوارو جالساً كالعادة في كرسيه الكبير المربَّع ذي الذراعين أمام المدفأة، ولاحظت أن أحد قضبان المدفأة الكهربائية كان يتوهّج باحمرار. كنا في أوائل أيلول (سبتمبر) وكان الطقس معتدلاً، لكن بوارو كان أول رجل يشعر ببرد الخريف ويتخذ الحيطة لذلك. كان على جانبَيه كومة من الكتب المرتَّبة على الأرض بأناقة، وكتب أخرى كانت جاثمة على الطاولة إلى يساره، وإلى يمينه كوب يتصاعد منه البخار، فخمّنت أنه شراب الزّهورات الذي كان شَغوفاً به وكثيراً ما كان يفرضه عليّ، رغم أنني كنت أجده سيئ المذاق وحاد الرائحة.

قلت له: لا تنهض.

لكنه كان قد وقف على قدميه وأقبل نحوي مسرعاً بذراعَين مفتوحتين قائلاً: هذا أنت يا صديقي؟ صديقي الشاب كولن! كيف حال صديقي العزيز والدك؟

- أبي بخير، وهو منشغل تماماً بأزهار الخطمي أو الأقحوان... لا أدري بالتحديد؛ المواسم تتوالى بسرعة وتجعلني غيرَ قادر على تذكّر نوعها في هذا الوقت.

- إذن فهو يشغل نفسه بالبستنة؟

قلت له: الجميع سينتهون إلى الشيء ذاته.

فقال هيركيول بوارو: أما أنا فلا؛ ما دمتُ أؤتي ثماري. كنت أتصور أن الرجل الطيب سيكتب مذكراته؟

- لقد باشر ذلك، لكنه وجد أن ما يستبعده منها كثير لدرجة أنه استنتج أخيراً أن ما سيبقى منها ليس مثيراً بحيث يستحق الكتابة.

- أجل، على المرء أن يكون ملتزماً. هذا من سوء الحظ لأن بإمكان والدك أن يروي أشياء ممتعة للغاية بالنسبة لي؛ فقد كان دائماً مباشراً ويستخدم المفضوح كما لم يفعل ذلك أحد من قبل. ينصب الفخ، الفخ المكشوف جداً، فكان الأشخاص الذين يريد الإيقاع بهم يقولون: "إنه واضح جداً، لا يمكن أن يكون حقيقياً"... وهكذا يقعون فيه.

ضحكت وقلت: حسناً، الدارج بالنسبة للأبناء في هذه الأيام أن لا يُعجَبوا بآبائهم لأن أغلبهم يجلسون وأقلامهم مليئة بالسم، ويسترجعون كل ما يمكنهم تذكّره من أمور قذرة ويدوّنونها بقناعة تامة! أما أنا شخصياً فإنني أكنّ احتراماً كبيراً لوالدي، حتى إنني أرجو أن أكون مثله... مع أن مسلكي المِهَني لا يشبه مسلكه.

- لكن له صلة به، له صلة وثيقة به، رغم أنك ملزَم بالعمل خلف الأضواء بطريقة لم يكن يفعلها.

وسعل قليلاً ثم استمر قائلاً: أحسب أن عليّ أن أهنئك على ما حققتَه من نجاح باهر مؤخراً بشأن قضية لاركن، أليس كذلك؟

قلت: لا بأس حتى الآن، لكن أودّ الحصول على المزيد من الأشياء، فقط من أجل أن أختمها بشكل صحيح. على أنني لست هنا لأحدثك بهذا الشأن في الحقيقة.

- نعم، بالطبع.

طلب مني الجلوس على كرسي وعرض عليّ كوباً من الزهورات فرفضته على الفور، ودخل جورج في اللحظة المناسبة تماماً وبيده كوب من الشاي فوضعه على مقربة مني. وسألت بوارو: ما الذي تفعله أنت في هذه الأيام؟

وبعد أن ألقيتُ نظرة سريعة على الكتب المختلفة من حوله قلت: يبدو وكأنك تُعد بحثاً صغيراً؟

تنهّد بوارو وقال: يمكنك تسميته كذلك، أجل، ربما كان هذا صحيحاً بشكل ما. لقد شعرت في الآونة الأخير بحاجة ماسة إلى معضلة، وقلت لنفسي إنه لا يهم ما تكون المعضلة، بل يمكنها أن تكون على غرار مشكلات شيرلوك هولمز، العمق الذي غاص به عرق البقدونس في قالب الزبدة... كل ما يهمني هو أن تكون لديّ معضلة، إذ ليست العضلات هي ما أسعى إلى تدريبها كما ترى، بل هي خلايا الدماغ.

- مجرد مسألة حفاظ على اللياقة كما أفهم.

- كما تقول.

وتنهّد ثم أردف قائلاً: لكن المعضلات ليس من السهل أن تأتي يا عزيزي. صحيح أن إحداها حصلت معي يوم الخميس الماضي، أعني ظهوراً غير مسموح به لثلاث قطع من قشر البرتقال الجاف في حمّالة المظلات في بيتي! كيف جاءت؟ كيف أمكن وصولها هناك؟ أنا شخصياً لا آكل البرتقال، وجورج لن يضع أي قشر برتقال جاف في حمّالة المظلات، ولا يُحتمَل أن يجلب أحد الزوار ثلاث قطع من قشر البرتقال معه! نعم، كانت تلك معضلة حقاً.

- وهل قمت بحلها؟

- نعم، بالطبع قمت بحلها.

كان يتكلم بكآبة أكثر منه بفخر، وأكمل قائلاً: ولم تكن ممتعة على أية حال. كانت المسألة أن عاملة التنظيف الاعتيادية قد حلت محلها أخرى جديدة، وقد أحضرت العاملة الجديدة -على عكس كل التعليمات- أحد أولادها معها. مع أن القضية لا تبدو ممتعة إلا أنها استوجبت الكشف عن الكذب بنفاذ بصيرة وثبات. لنقُل إنها كانت مرضية، لكنها لم تكن ذات أهمية.

قلت: مخيّبة للآمال.

- وفي النهاية فإنني رجل معتدل، إذ لا ينبغي على المرء أن يستخدم سيفاً ليقطع شريطاً من قماش!

هززت رأسي بوقار فواصل بوارو قائلاً: كنت أشغل نفسي في الآونة الأخير بقراءة ألغاز لم تُحَلّ من الحياة الواقعية وأقوم بتطبيق حلولي الخاصة عليها.

- هل تعني قضايا مثل قضية برافو وما يشبهها من قضايا؟

- بالضبط، لكن هذه القضية كانت سهلة نوعاً ما؛ لا يوجد أي شك برأيي بشأن قاتل تشارلز برافو، فالمرافِقة قد تكون متورطة، لكنها لم تكن الشخصية المحركة في القضية. ثم لدينا المراهقة التعِسة كونستانس كنت، فالدافع الحقيقي من وراء قيامها بشنق الأخ الصغير بقي لغزاً غامضاً حتى الآن رغم أنها كانت تحبه بلا أدنى شك، ولكن ليس بالنسبة لي، فقد اتضحت الحقيقة لي بمجرد أن قرأت ما يتعلق بالقضية. إن المرء يتمنى فقط لو أنه تمكن من طرح بضعة أسئلة ضرورية على الأشخاص ذوي العلاقة. أنا واثق من ماهية الأجوبة بما فيه الكفاية، لكن أخشى أن يكون الكل

قد ماتوا الآن للأسف.

قلت لنفسي (كما في كثير من المرات السابقة) إن التواضع لم يكن السمة الواضحة عند هيركيول بوارو بالتأكيد! وواصل هو قائلاً: وماذا فعلتُ بعد ذلك؟

فخمنتُ أنه لم يجد منذ فترة أحداً يتحدث إليه وأنه كان يستمتع بسماع نبرة صوته، ولكنه أكمل قائلاً: تحولتُ من الحياة الواقعية إلى القصص، وها أنا مع أمثلة متنوعة من القصص الإجرامية على يميني وشمالي كما ترى. لقد كنت أعمل إلى الوراء. ها هي...

والتقط المجلد الذي كان قد وضعه على ذراع كرسيه حينما دخلت وأكمل قائلاً: ها هي قصة «قضية لافنورث» يا عزيزي كولن.

وناولني الرواية فقلت له: إنها تعود لزمن بعيد، وأعتقد أن والدي ذكر أنه قرأها في صباه وأني قد قرأتها ذات مرة. لا بد أنها تبدو قديمة الطراز الآن.

- إنها تثير الإعجاب؛ فالمرء يتذوق أجواء زمانها. إنها مأساة مدروسة ومتأنية.

قلت: يجب أن أعيد قراءتها.

- نعم، إنها دراسة نفسية ممتازة.

أدركت أنني أقحمت نفسي في محاضرة فتأهّبت لسماعها، في حين قال: ثم لنتناول هذه؛ «لغز الغرفة الصفراء». آه، إنها الكلاسيكية الحقيقية. إنها تعجبني من البداية إلى النهاية. يا له من أسلوب منطقي! لقد وُجِّهَت إليها انتقادات تقول -على ما أذكر-

بأنها غير منطقية، لكنها ليست كذلك يا عزيزي كولن، لا، ربما قليلاً لكن ليس تماماً. كل ما فيها هو الحقيقة المحجوبة بحرص باستخدام حَذِر وساخر للكلمات، فكل شيء ينبغي أن يكون جلياً في تلك اللحظة الأشد خطورة عندما يلتقي الرجال عند تقاطع الممرات الثلاثة...

وضع الكتاب جانباً باحترام وهو يتابع قائلاً: إنه عمل متميز بالتأكيد، ولكن النسيان طواه تقريباً في هذه الأيام.

ثم تخطى بوارو عشرين عاماً أو نحوها ليصل إلى أعمال الكتّاب المتأخرين نسبياً ويقول: وقد قرأت أيضاً بعض الأعمال المبكرة للسيدة أريادني أوليفر، وهي سيدة محترمة يربطني بها (كما يربطك بها أيضاً) شكل من أشكال الصداقة، لكنني لا أتقبل أعمالها عموماً؛ فالأحداث فيها غير منطقية بحال... لقد استُخدِمت الذراع الطويلة للمصادفة بحرّية أكثر من اللازم. ولكونها شابة صغيرة في ذلك الحين فقد كانت غبية بما فيه الكفاية لتجعل شخصية رجل التحري رجلاً فنلندياً، ويبدو واضحاً أنها لا تعرف شيئاً عن الفنلنديين أو فنلندا! ولكن لديها -مع ذلك- بنية عقلية أصيلة، فهي تطرح بين الحين والآخر استنتاجاً بارعاً، وقد تعلّمَت في السنوات الأخيرة الكثير عن أشياء كانت تجهلها سابقاً، كإجراءات الشرطة على سبيل المثال. أيضاً يمكن الآن الاعتماد على صحة ما تذكره بخصوص موضوع الأسلحة النارية، وقد عرفَت أيضاً ما كان يلزمها أكثر من ذلك، إذ كسبت صديقاً من العاملين في حقل القانون فأطلعها على نقاط قانونية كانت تجهلها.

وضع كتاب السيدة أريادني أوليفر جانباً والتقط كتاباً آخر وقال: والآن، هذا هو السيد سيريل كوين. آه، السيد كوين أستاذ،

أستاذ في «دفع التهمة بالغياب».

- إنه كاتب ممل جداً... إن كان ما أتذكره صحيحاً.

- صحيح، ما من شيء مثير على وجه الخصوص يحدث في كتبه، لديه جثة بالطبع، وأكثر من واحدة أحياناً، إلا أن الفكرة بأكملها تكمن في «دفع التهمة بالغياب» دائماً. جدول حركة القطارات، خطوط الحافلات، خرائط الطرق عبر البلاد... أعترف بأنني أستمتع بهذا الاستخدام المعقَّد والمفصَّل لفكرة دفع التهمة بالغياب، وأجد متعة في محاولتي لكشف اللغز.

قلت: وأعتقد أنك تنجح في ذلك دائماً.

كان بوارو نزيهاً حين قال معترضاً: ليس دائماً، لا، ليس دائماً. بالطبع بعد فترة من الزمن يدرك المرء أن الواحد من كتبه يكاد يكون مثل الآخر بالضبط، فحالات دفع التهمة بالغياب تمثل إحداها الأخرى في كل مرة حتى لو لم تكن متطابقة بالضبط، وكما تعلم يا عزيزي كولن فأنا أتخيل سيريل كوين هذا جالساً في غرفته يدخن غليونه كما يفعل في صوره المنشورة، جالساً هناك وحوله القواميس والموسوعات القارّية وكراسات الخطوط الجوية وجداول من كل الأنواع، وحتى حركة سفن الركاب... لكن حدّث ولا حرج يا كولن، فإن لدى السيد سيريل كوين منهجاً وأسلوباً.

وضع كتاب السيد كوين والتقط كتاباً آخر وقال: وها هو السيد غاري غريغسون كاتب المغامرات والألغاز المشهور. لقد كتب أربعة وستين كتاباً على الأقل حسبما أعلم، ويكاد يكون نقيض السيد كوين بالضبط؛ فكتب السيد كوين تخلو من الإثارة، أما في كتب غاري غريغسون فتحدث أشياء كثيرة جداً، وهي تحدث

بشكل لا يُطاق وبفوضى عامة، وكلها باهرة الألوان. إنها مأساة اجتماعية قُلبت بعصا، مليئة بسفك الدماء والجثث والأدلة والإثارة المكدسة... كلها شنيعة، كلها بعيدة عن الحياة العادية. يمكنك القول إنه ليس الكاتب المفضَّل عندي.

توقف بوارو وتنهد ثم استأنف محاضرته قائلاً: ثم نأخذ أمريكا.

سحب كتاباً من الكومة اليسرى وقال: الآن فلورنس ألكس. لديها نظام ومنهج وأحداث مبهرة، نعم، لكن فيها الكثير من القوة. إنها قصص مبهجة ونابضة بالحياة.

سألته: وماذا عن مدرسة العنف؟

لوّح بوارو بيده مستبعداً أسلوب العنف تماماً كما لو كان يهش ذبابة متطفلة أو بعوضة، ثم قال: العنف من أجل العنف؟ متى كان ذلك ممتعاً؟ لقد شاهدت الكثير من العنف في حياتي كضابط شرطة. لا، ومع ذلك فأنا أضع القصة البوليسية الأمريكية في مرتبة عالية. خذ لويزا أومالي على سبيل المثال.

غاص مرة أخرى بحثاً عن كتاب وهو يقول: يا لكتاباتها من نموذج رائع ومدروس! ومع ذلك ففيها ما فيها من إثارة وترقّب. إنها جيدة جداً، لويزا أومالي هذه جيدة جداً حقاً.

ثم تنهّد وانحنى إلى الخلف، وهز رأسه وأتى على ما في كوب الزهورات من بقية وقال: وبعد، فلديّ دائماً المفضّلون القدماء.

وغاص من جديد باحثاً عن كتاب ثم قال: «مغامرات شيرلوك هولمز».

ثم تمتم بسرور ناطقاً باحترام كلمة واحدة: الأستاذ!

فسألته: شيرلوك هولمز؟

- آه، لا، ليس شيرلوك هولمز، بل المؤلف السير آرثر كونان دويل هو الذي أحبّه. حكايات شيرلوك هولمز مصطنَعة بتكلّف، لكن التفنن في الكتابة أمر مختلف كلياً. لغتها ممتعة، وفوق كل شيء ابتكار تلك الشخصية الرائعة، الدكتور واطسن. آه، كان ذلك انتصاراً بحق!

تنهّد وهز رأسه ثم تمتم بتسلسل طبيعي لأفكاره قائلاً: وذلك العزيز هيستنغز، صديقي هيستنغز الذي سمعتَني أتحدث عنه كثيراً. لقد مضى زمن طويل منذ تلقيت آخر الأخبار عنه. يا لها من بلاهة أن يذهب المرء ويدفن نفسه في أمريكا الجنوبية حيث تحدث الثورات باستمرار!

أوضحت له قائلاً: هذا لا يقتصر على أمريكا الجنوبية؛ الثورات تندلع في جميع أنحاء العالم في هذه الأيام.

- دعنا من مناقشة العنف.

قلت له: في الواقع... لقد جئت لأناقش شيئاً مختلفاً تماماً معك.

- آه، أنت على وشك الزواج، أليس كذلك؟ أنا مسرور يا عزيزي، مسرور جداً.

قلت له متسائلاً: ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك يا بوارو؟ لا شيء من ذلك.

قال بوارو: هذا يحدث، هذا يحدث كل يوم.

قلت بحزم: ربما، لكن ليس لي. في الواقع جئت لأخبرك بأنني قد صادفت معضلة صغيرة تتعلق بجريمة قتل.

- حقاً؟ تقول معضلة في جريمة قتل؟ وقد جئت بها إليّ أنا! لماذا؟

كنتُ محرَجاً بعض الشيء فقلت: حسناً، لقد... لقد تصورت أنك قد تستمتع بها.

نظر إليّ بوارو متأملاً وبرم شاربه بلطف ثم قال: السيد يرفق بكلبه غالباً، فيخرج ويرمي إلى الكلب الكرة، والكلب بمقدوره أن يكون هو الآخر طيباً مع سيده، فالكلب يقتل أرنباً أو فأراً ويأتي ليلقي به تحت أقدام السيد... وماذا يفعل بعد ذلك؟ يهزّ ذيله.

ضحكتُ على الرغم مني وقلت: وماذا يقول السيد؟ هل يطلب رؤية الفأر؟ هل يريد أن يعرف كل شيء عنه؟

- بالتأكيد، فهي جريمة تعتقد بأنها سوف تثير اهتمامي، أليس كذلك؟

قلت: محتواها بأكمله هو أنها لا مغزى لها.

- هذا مستحيل؛ فكل شيء له مغزى، كل شيء.

- حسناً، حاول أنت أن تجد لها مغزى، أما أنا فلا أستطيع. ليس لأن لها أية صلة بي، بل لقد تصادف أنْ جُرِرت إليها. أذكّرك أنها قد تصبح واضحة المعالم تماماً إذا ما تم التعرف على الرجل الميت.

قال بوارو بقسوة: أنت تتحدث بلا أسلوب أو نسق؛ أرجو أن تعطيني الحقائق. أنت تقول إنها جريمة قتل، هل هذا صحيح؟

أكدت له قائلاً: إنها جريمة قتل فعلاً. حسناً، إليك التفصيلات.

شرحت له بالتفصيل الأحداث التي جرت في المنزل رقم ١٩ في هلال ولبراهام، فاستلقى بوارو إلى الوراء في كرسيه وأغمض عينيه وراح يربت بلطف بسبابته على ذراع كرسيه وهو يُصغي إلى سردي، وعندما توقفت أخيراً مكث لحظة لا يتكلم، ثم سألني بعد ذلك دون أن يفتح عينيه: أتُراك تمزح؟

أجبته: لا، مطلقاً.

فقال: عظيم.

راح يتذوق الكلمة بلسانه ويعيدها مقطعاً مقطعاً، ثم واصل التربيت على ذراع كرسيه وأومأ برأسه بلطف، فقلت بعد بضع لحظات إضافية وقد بدأ صبري ينفد: حسناً، هات ما عندك.

- ماذا تريدني أن أقول؟

- أريد منك أن تعطيني الحل. لقد فهمت منك دائماً بأن المرء يمكنه أن يستلقي في كرسيه مفكراً في الموضوع فيتوصل إلى الحل، وأنه ليس من الضروري أن يذهب ويستجوب الناس ويجري هنا وهناك باحثاً عن أدلة.

- هذا ما أقوله دائماً.

- حسناً، وأنا أدعوك لإثبات ادّعائك. لقد زودتك بالأدلة، والآن أريد منك الحل.

- هكذا بهذه البساطة؟ ولكن يوجد الكثير مما تجب معرفته يا صاحبي. نحن في مستهل الحقائق، أليس كذلك؟

- ما زلت أريد منك أن تخلص إلى شيء.

- فهمت.

أطرق لحظة ثم قال: يوجد شيء واحد أكيد؛ لا بد أن تكون جريمة بسيطة جداً.

تساءلت بشيء من الذهول: بسيطة؟!

- طبعاً.

- ولماذا يجب أن تكون بسيطة؟

- لأنها تبدو في ظاهرها معقَّدة، فإن كان ينبغي لها أن تكون معقدة فلا بد أن تكون بسيطة. هل تستوعب ذلك؟

- لا أدري حقاً إن كنت أفهم!

قال بوارو متأملاً: عجيب ما أخبرتني به؛ أظن أن فيه شيئاً مألوفاً بالنسبة لي. والآن، أين ومتى صادفتُ شيئاً كهذا؟

أحجم عن الكلام فقلت له: لا بد أن تكون ذاكرتك مخزناً كبيراً للجرائم، لكنك غير قادر على تذكرها كلها، أليس كذلك؟

- بلى، لسوء الحظ، إلا أن هذه الذكريات تكون مفيدة من آن لآخر. كان في لييج على ما أذكر صانع صابون، وقد سمّم زوجته لكي يتزوج كاتبة اختزال شقراء، فأصبحت تلك الجريمة نمطاً، وبعد فترة طويلة ظهر ذلك النمط من جديد فأدركته عندئذ. كانت القضية هي اختطاف كلب بكيني، لكن النمط كان هو نفسه، فبحثت عن مرادف لكاتبة الاختزال الشقراء وصانع الصابون فوجدته... ذلك هو ما أعنيه.

ثم نظر إليّ وقال متمّماً كلامه: وفي هذه القضية ومن خلال ما أخبرتني به يخالجني ذلك الشعور بالمعرفة.

قلت وأنا أطرح الفكرة مفعَماً بالرجاء: الساعات، وكلاء تأمين مزيَّفون...

فهز بوارو رأسه قائلاً: لا، لا... امرأة كفيفة؟ لا، لا، لقد تشوّش تفكيري.

قلت: أشعر بخيبة الأمل فيك يا بوارو؛ كنت أظن أنك ستعطيني الجواب فوراً.

- لكنك لم تزودني حتى الآن إلا بنمط يا صديقي، فينبغي معرفة أمور أكثر بكثير. سنفترض أن الرجل سيتم التعرف عليه... فالشرطة ممتازون في هذا النوع من العمل ولديهم سجلات بالمجرمين ويمكنهم أن ينشروا صورته، ولديهم سبل للوصول إلى قائمة بأسماء المفقودين، ولديهم الفحص العلمي لملابس الرجل الميت، وهكذا وهكذا... نعم، والوسائل الأخرى في متناول أيديهم. سيتم التعرف على هذا الرجل بلا أدنى شك.

- إذن فلا شيء يمكن عمله حالياً، أهذا ما تراه؟

قال هيركيول بوارو بغلظة: بل يوجد دائماً ما يمكن القيام به.

- مثل ماذا؟

هزّ سبابته في وجهي مؤكداً قائلاً: تحدّث إلى الجيران.

- لقد فعلت ذلك وذهبت مع هاردكاسل عندما كان يستجوبهم. إنهم لا يعرفون أي شيء يمكن أن ينفع.

- هذا ما تعتقده أنت، لكني أؤكد لك أن الأمر ليس

كذلك. أنت تذهب إليهم وتسألهم: "هل رأيتم شيئاً مثيراً للشك؟" فيقولون: "لا"، فتعتقد أنت أن هذا هو كل شيء. لكنني لا أقصد ذلك عندما أقول لك: "اذهب وتحدث إلى الجيران"، إنما أقول «تحدّث» إليهم ودعهم «يتحدثون» إليك، ومن خلال حديثهم وفي موضع ما يمكنك دائماً أن تجد دليلاً؛ فقد يتحدثون عن حدائقهم أو حيواناتهم المدللة أو تسريحة شعرهم أو خيّاط ملابسهم أو أصدقائهم أو طعامهم المفضل... وستجد دائماً كلمة مضيئة. أنت تدّعي أنه لم يكن في تلك الأحاديث شيء نافع، وأنا أقول إن هذا لا يمكن أن يكون، وإذا استطعتَ فأعِدها علي كلمة كلمة.

قلت له: حسناً، هذا ما قمتُ به في الواقع، لقد دونت أقوالهم بالاختزال وأنا أمثل دوري كضابط شرطة مساعد، وقد جئتك بها بعد أن تمّت كتابتها وطباعتها، ها هي.

- آه، أنت فتى طيب حقاً، أنت فتى طيب جداً بالتأكيد. ما فعلتَه هو عين الصواب. أشكرك شكراً لا حدود له.

شعرت بإحراج شديد لكنني سألته: هل لديك أية اقتراحات أخرى؟

- نعم، لديّ اقتراحات دائماً. عليك بتلك الفتاة، يمكنك التحدث إليها. اذهب وقابلها فأنتما حالياً صديقان، أليس كذلك؟ أوَلم تُحِطها بذراعيك عندما فرت من البيت مذعورة؟

قلت: أنت متأثر بمطالعتك لكتابات غاري غريغسون؛ لقد اكتسبتَ أسلوب الدراما في تفكيرك في القضية.

فأقر بوارو قائلاً: ربما كنتَ على حق؛ فالمرء يُصاب بالعدوى من أسلوب العمل الذي يقرؤه، هذا صحيح.

قلت: فيما يخص الفتاة...

ثم توقفت فنظر إلي بوارو مستفهماً قائلاً: ماذا؟

- لا أود أن... لا أريد أن...

- آه، تلك هي المسألة إذن. في خلفية ذهنك تعتقد أنها متورطة في هذه القضية بشكل أو بآخر.

- لا، لا أعتقد، فقد كان وجودها هناك مصادفة محضة.

- لا، لا يا صديقي، لم تكن مصادفة محضة. أنت تعرف ذلك جيداً لأنك أنت الذي أخبرتني به، فقد طُلِبت شخصياً بالهاتف، طُلبت شخصياً.

- ولكنها لا تعرف السبب.

- لا يمكنك الاطمئنان إلى ادّعائها بأنها لا تعرف السبب. الأرجح أنها تعرفه فعلاً لكنها تُخفي الحقيقة.

قلت بعناد: لا أظن ذلك.

- من الممكن أن تجد السبب بالتحدث إليها شخصياً حتى لو لم تعرف هي الحقيقة.

- لا أعرف كيف، أعني... أنا لا أكاد أعرفها.

أغمض هيركيول بوارو عينيه ثانية وقال: إنها فتاة جذابة، أليس كذلك؟

- حسناً، بلى، جذابة جداً.

قال بوارو آمراً: ستقوم بالتحدث إليها لأنكما الآن صديقان،

وستنتحل عذراً ما لتذهب وتقابل تلك المرأة الكفيفة ثانية وتتحدث معها، وستذهب إلى مؤسسة الطباعة متظاهراً بحاجتك لطبع مخطوطة مثلاً، وستكون علاقة صداقة مع إحدى السيدات الشابات الأخريات ممن يعملن هناك. ستتحدث مع جميع أولئك الأشخاص وستأتي لتقابلني ثانية لتخبرني بكل ما سيقولون.

قلت متوسّلاً: ارحمني!

فقال بوارو: أبداً، ستجد متعة في ذلك.

- يبدو أنك لا تدرك بأن لديّ عملي الذي ينبغي أن أقوم به.

قال بوارو يُطَمْئنني: ستفعل ما هو أفضل من أجل أن تنعم بشيء من الراحة.

نهضت وقلت له ضاحكاً: حسناً، فأنت الطبيب. ألديك المزيد من الحِكَم لأجلي؟ ما إحساسك إزاء مسألة الساعات الغريبة تلك؟

استلقى بوارو إلى الوراء في كرسيه من جديد وأغمض عينيه وردد كلمات لم تكن متوقّعة تماماً: «قالت الفقمة: آن الأوان لأتحدث عن أشيائي، عن الأحذية والسفن وعن الملفوف والملوك».

ثم فتح عينيه وسألني: هل تفهم؟

- هذا اقتباس من كتاب «أليس في بلاد العجائب»!

- بالضبط، وهو أفضل ما يمكن أن أفعله لأجلك حالياً يا عزيزي، ففكّر فيه.

* * *

الفصل الخامس عشر

حضر جلسةَ التحقيق جمهورٌ غفير من الناس، فبعد أن أثارتهم جريمة قتل وسط حيهم خرج أهل كراودن تحدوهم الآمال تَوّاقين لمعرفة فضائح مثيرة، وكانت الإجراءات جافة قدر المستطاع على أية حال، ولم تكن شيلا ويب بحاجة إلى تهوين محنتها، فقد انتهى الأمر في غضون دقيقتين. لقد جاءت رسالة هاتفية إلى مؤسسة كافنديش تطلب منها أن تتوجه إلى المنزل رقم ١٩ في هلال ولبراهام، وقد ذهبت امتثالاً لما طُلب منها ودخلت غرفة الجلوس واكتشفت الرجل الميت هناك، فصرخت وفرّت هاربة من البيت لتطلب النجدة. ولم توجَّه إليها أسئلة أخرى.

أما الآنسة مارتنديل (التي أدلت بشهادتها أيضاً) فقد كان استجوابها أقصر. لقد تلقت مكالمة تفيد بأنها من الآنسة بيمارش تطلب منها إرسال كاتبة اختزال إلى منزلها رقم ١٩ في هلال ولبراهام، وقد طلبت الآنسة شيلا ويب بالاسم، مع إعطاء تعليمات معينة. وقد قامت بتدوين وقت المكالمة بالضبط في الساعة ١:٤٩. وبذلك تم الأمر مع الآنسة مارتنديل.

ثم نوديَت الآنسة بيمارش فأنكرت بشكل قاطع قيامها بطلب أي طابعة في ذلك اليوم من مؤسسة كافنديش.

أما مفتش التحري هاردكاسل فقد قدّم تقريراً موجَزاً دونما انفعال، حيث ذهب بعد أن تلقى مكالمة هاتفية إلى المنزل رقم ١٩ في هلال ولبراهام فوجد الرجل الميت. سأله قاضي التحقيق قائلاً: هل تمكنت من معرفة الرجل؟

- ليس بعد يا سيدي، ولهذا السبب سأطلب تأجيل هذا التحقيق.

- وهو كذلك.

ثم جاء دور الشاهد الطبي، وبعد أن قدم الطبيب الشرعي تعريفاً بنفسه وبمؤهلاته تحدث عن ذهابه إلى المنزل المذكور وإجرائه الفحص الطبي على الرجل المتوفى، فسأله القاضي: هل يمكنك أن تعطينا فكرة تقريبية عن وقت حدوث الوفاة أيها الطبيب؟

- لقد فحصته في الساعة الثالثة والنصف، ويمكنني تحديد وقت الوفاة بما بين الساعة الواحدة والنصف والثانية والنصف.

- ألا يمكنك تحديده بأقرب من ذلك؟

- أفضّل عدم التحديد. كتخمين فإن الوقت الأرجح هو الساعة الثانية أو قبلها بقليل، لكن توجد عوامل عديدة يجب أخذها في الحسبان، كالسن والحالة الصحية وما إلى ذلك.

- هل قمت بالتشريح؟

- لقد فعلت.

- ما أسباب الوفاة؟

- لقد طُعن الرجل بسكين رفيعة حادة، شيء قد يكون أشبه

بسكين مطبخ فرنسية ذات شفرة تستدقّ تدريجياً، وقد نفذ رأس السكين.

وهنا أصبحت شهادة الطبيب تقنية وهو يشرح الموضع الدقيق لدخول السكين في القلب، فسأله القاضي قائلاً: وهل كانت الوفاة آنية؟

- لقد حدثت في غضون بضع دقائق.

- ألم يكن بمقدور الرجل أن يستغيث أو يقاوم؟

- ليس في الظروف التي طُعن فيها.

- هل يمكنك أن تشرح لنا ما تقصده بهذه العبارة يا حضرة الطبيب؟

- لقد قمت بفحص وأجريت بعض الاختبارات، ويمكنني القول بأنه عندما قُتل كان في حالة غيبوبة بسبب تناوُله دواء.

- هل تستطيع أن تخبرنا بنوع هذا الدواء؟

- نعم، لقد كان هيدرات الكلورال.

- هل يمكنك أن تصف لنا كيف أُعطيَ له؟

- أظن أنه قد أُعطيَه في مشروب ما. إن مفعول هيدرات الكلورال سريع جداً، وعندما يشرب المرء هذا السائل دون أن يشكّ في محتواه سيترنّح بعد بضع دقائق ويقع مُغمَىً عليه.

- وفي رأيك هل طُعن حينما كان فاقد الوعي؟

- هذا هو رأيي، وهو ما يفسر عدم وجود آثار للمقاومة، وكذلك مظهره الهادئ.

- كم من الوقت كان قد مضى على فقدانه الوعي عندما قُتل؟

- هذا ما لا أستطيع قوله بدقة، فهنا يعتمد الأمر أيضاً على الميزات الشخصية للضحية، لكنه بالتأكيد ما كان ليفيق في أقل من نصف ساعة، وقد يحدث الأمر في مدة أطول.

- شكراً لك أيها الطبيب. هل لديك أي شيء يدل على وقت تناوُل هذا الرجل لآخر وجبة؟

- إنه لم يتناول الغداء إن كان ذلك ما ترمي إليه، بل هو لم يتناول طعاماً صلباً لمدة لا تقل عن أربع ساعات.

- شكراً يا حضرة الطبيب، أعتقد أن هذا هو كل شيء.

أعلن المحقق بعد ذلك: يؤجَّل التحقيق لمدة أسبوعين.

انتهت جلسة التحقيق وشرع الناس يغادرون قاعة المحكمة، وتردَّدت إدنا برنت عند خروجها من الباب. كانت حاضرة مع أغلب الفتيات الأخريات العاملات في مؤسسة كافنديش التي كانت مغلقة في ذلك الصباح، فكلمَتها مورين ويست (إحدى الفتيات الأخريات) قائلة: ما رأيك يا إدنا؟ هل نذهب إلى مطعم بلوبيرد لنتناول الغداء؟ لدينا وقت كثير، ولا سيما أنت.

- ليس عندي من الوقت أكثر مما عندك.

قالت إدنا ذلك بصوت منكسر وأردفت قائلة: فقد أبلغتني ساندي كات أن أتناول الغداء خلال فترة الاستراحة الأولى. حقارة منها؛ فقد ظننت أنني سأحصل على أكثر من ساعة للتسوق مثلاً.

قالت مورين: هكذا هي ساندي كات! سيفتح المكتب من

جديد في الساعة الثانية، وعلينا جميعاً أن نكون هناك. هل تبحثين عن أحد؟

- شيلا فقط، فلم أرَها تخرج.

قالت مورين: لقد غادرَت باكراً بعد أن أدلت بشهادتها، غادرت بصحبة شاب لا أعرفه. هل ستأتين؟

بقيَت إدنا مترددة ثم قالت: اذهبي أنت، فأنا بحاجة إلى التسوّق على أية حال.

انصرفت مورين مع فتاة أخرى في حين ظلت إدنا تتسكع، وأخيراً أرغمت نفسها على التحدث إلى شرطي شاب أشقر الشعر كان واقفاً عند المدخل فتمتمت بتهيب قائلة: هل يمكنني الدخول من جديد؟ أريد أن أكلم الشخص الذي جاء إلى المكتب، المفتش... لا أعرف اسمه.

- المفتش هاردكاسل؟

- نعم، ذلك الذي كان يُدلي بشهادته هذا الصباح.

- حسناً.

نظر الشرطي الشاب إلى داخل المحكمة فلاحظ المفتش منهمكاً في الحديث مع قاضي التحقيق ورئيس شرطة المقاطعة، فقال: يبدو مشغولاً حالياً يا آنسة ويفضِّل أن تعرجي على المركز فيما بعد أو تعطيني رسالة له إن شئت. هل لديك شيء مهم؟

- لا يهم في الحقيقة، إنه... حسناً، المسألة هي فقط أنني لا أفهم كيف يمكن أن يكون ما قالته صحيحاً لأنني... أقصد...

ثم تركت الشرطي وابتعدت عن المحكمة متجهة على امتداد

الشارع الرئيسي، وكانت ما تزال عابسة متحيرة وتحاول التفكير، ولم يكن التفكير صفة مميزة في إدنا، فكلما حاولت إيضاح الفكرة أكثر ازداد عقلها حيرة.

ومرة أخرى قالت بصوت عالٍ: لكن الأمر ليس كذلك، لا يمكن أن يكون كما قالت!

وفجأة انحرفت عن الشارع الرئيسي إلى شارع ألباني متجهة نحو هلال ولبراهام، وكأنها عزمت على أمر ما.

* * *

منذ اليوم الذي نشرت فيه الصحف نبأ ارتكاب جريمة قتل تجمّع الناس كل يوم أمام البيت الذي وقعت الجريمة فيه ليُلقوا نظرة فاحصة عليه. الجاذبية التي تكمن في مجرد أحجار وطلاء بالنسبة لعامة الناس في ظروف معينة هي أمر غامض حقاً؛ فخلال الساعات الأربع والعشرين الأولى وُضع شرطي هناك ليأمر الناس بحزم بالابتعاد عن البيت، ومنذ ذلك الحين تناقص الاهتمام، لكنه لم يتوقف نهائياً؛ فسيارات التجار المتجولين تخفف سرعتها قليلاً عندما تمر هناك، والنساء اللائي يدفعن عربات أطفالهن يتوقفن لأربع أو خمس دقائق على الجانب الآخَر من الشارع يحدقن بتأمل في بيت الآنسة بمارش الأنيق، والنساء المتسوقات يتوقفن ويحملقن بأعينهن النهمة ويتبادلن أحاديث الغيبة الأثيرة مع صاحباتهن:

- ذلك هو البيت، ذاك هناك.

- لقد كانت الجثة في غرفة الجلوس.

- أظن أن غرفة الجلوس هي التي في المقدمة على اليسار؟

- لقد أخبرني مساعد البقال بأنها الغرفة التي على اليمين.

- حسناً، من الممكن أن تكون كذلك، فقد زرت المنزل رقم ١٠ ذات مرة وأتذكر جيداً أن غرفة الطعام كانت على اليمين وغرفة الجلوس كانت على اليسار.

- ما من شيء يدل على وقوع جريمة قتل هناك، أليس كذلك؟

- أعتقد أن الفتاة خرجت تصرخ من الباب وقد جُنّ جنونها.

- يقولون إنها لم تستعِدْ قواها العقلية بعد! الصدمة فظيعة طبعاً.

- يقولون إنه اقتحم البيت من خلال نافذة خلفية. كان يضع بعض الأشياء الفضية في حقيبته عندما دخلت الفتاة ووجدته هناك.

- مسكينة صاحبة البيت، إنها كفيفة تلك المسكينة، وبالطبع ما كانت لتعرف ما يجري.

- أجل، لكنها لم تكن هناك في ذلك الوقت.

- حقاً؟! ظننتُ أنها كانت في البيت... يا إلهي! يجب أن أذهب إلى السوق.

هذه المحادثات وأمثالها استمرت في معظم الأوقات، وأغلب مَن لا يُتوقَّع مجيئهم إلى هلال ولبراهام كانوا ينجذبون إليه كما لو كان مغنطيساً، فيتوقفون ويحدقون، ومن ثَم يمرون وقد أشبعوا حاجة دفينة.

وهنا، وبذهن ما زال مشوشاً، وجدت إدنا نفسها تتدافع مع مجموعة صغيرة من خمسة أشخاص أو ستة كانوا منشغلين بتسليتهم

المفضلة وهي النظر إلى بيت الجريمة، وحيث إن إدنا سهلة الانقياد دائماً فقد حدقت هي الأخرى. قالت لنفسها: إذن فهذا هو البيت الذي حدثت فيه الجريمة؟ على نوافذه ستائر شبكية ويبدو كأجمل ما يمكن، ومع ذلك فقد قُتل فيه رجل، قتل بسكين مطبخ، سكين مطبخ عادية، وكل الناس لديهم سكاكين في مطابخهم!

حدقت إدنا هي الأخرى مأخوذة بسلوك الناس من حولها وكفت عن التفكير. لقد نسيَت تقريباً ما جاء بها إلى ذلك المكان!

جفلت إدنا عندما سمعت صوتاً يتكلم في أذنها، فأدارت رأسها دهشة حيث تعرفت على الصوت!

* * *

الفصل السادس عشر
(برواية كولن لامب)

لمحتُ شيلا ويب وهي تنسلّ بهدوء خارجة من محكمة التحقيق. لقد أدلَت بشهادتها بشكل جيد جداً، وقد بدت عصبية ولكن دونما إفراط. كانت طبيعية في الواقع. تُرى ما الذي كان سيقوله بيك؟ كان سيقول: "أداء جيد جداً"... كان باستطاعتي سماعه وهو يقولها.

استوعبتُ الخاتمة المفاجئة لشهادة الطبيب. لم يكن ديك هاردكاسل قد أخبرني بذلك، لكن لا بد أنه كان يعلم. وبعد ذلك انطلقتُ وراءها فقلت لها بعد أن لحقتُ بها: لم يكن الأمر سيئاً جداً على كل حال، أليس كذلك؟

- كان الأمر سهلاً في الحقيقة، فالمحقق كان طيباً جداً.

وترددَت قبل أن تقول: ماذا بعد ذلك؟

- قد يؤجَّل التحقيق لأسبوعين من أجل المزيد من الشهود، أو إلى أن يتمكنوا من معرفة الرجل المتوفى.

- هل تعتقد أنهم سيتعرفون عليه؟

- نعم، سيتعرفون عليه، لا شك في ذلك.

ارتعشت قائلة: الجو بارد اليوم.

لم يكن الجو بارداً على وجه الخصوص، بل لقد كنت أرى أن الجو دافئ نسبياً. قلت لها مقترحاً: ما رأيك في غداء مبكر؟ فلستِ ملزَمة بالعودة إلى مكتب الطباعة، أليس كذلك؟

- بلى، فهو مغلَق حتى الساعة الثانية.

- هيا معي إذن. ما رأيك في الطعام الصيني؟ أرى مطعماً صينياً صغيراً في نهاية الشارع.

لاح شيء من التردد على شيلا وقالت: أريد الذهاب للتسوق.

- يمكنك القيام بذلك فيما بعد.

- لا، لا أستطيع؛ بعض المتاجر تغلق بين الواحدة والثانية.

- حسناً، هل سنتقابل هناك إذن في غضون نصف ساعة؟

أجابت قائلة إنها ستفعل، فافترقنا. وسرتُ متجهاً نحو شاطئ البحر فجلستُ هناك في حين كانت الريح تهبّ قادمة من البحر مباشرة. أردت أن أفكر. إنه لأمر يثير الحنق أن يعرف الناس عنك أكثر مما تعرف عن نفسك، لكن بيك العجوز وهيركيول بوارو وديك هاردكاسل كلهم كانوا يرون بوضوح تام ما أنا الآن مرغَم على الاعتراف بصحته؛ لقد شُغلت بتلك الفتاة، شُغلت بها بطريقة لم تحدث مع أية فتاة أخرى من قبل! لم يكن ذلك بسبب جمالها (وإن كنت سأعترف بأنها جميلة). لا، بل كان الأمر منذ بدايته تقريباً أنني أدركت بأنها كانت «فتاتي»، ولكن لم أكن أعرف أي شيء عنها!

كانت الساعة بعد الثانية بقليل عندما دخلتُ المركز وسألت عن ديك، فوجدته جالساً إلى منضدته يقلّب أكداساً من الورق.

رفع نظره وسألني عن رأيي في التحقيق، فقلت له إن اعتقادي أنه كان حسن التنظيم وتم بأداء لائق، فقال: إننا نفعل ذلك بشكل جيد في هذا البلد.

- ما رأيك في الأدلة الطبية؟

- صدمة شديدة! لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟

- كنت بعيداً. هل استشرت اختصاصيك؟

- نعم، فعلت.

- أظن أنني أتذكره بصورة غامضة. شارباه كثيفان، أليس كذلك؟

قلت مؤيّداً: كثيفان جداً، وهو فخور بهما.

- لا بد أنه عجوز جداً.

- عجوز، لكنه لم يخرف بعد.

- لماذا ذهبتَ لمقابلته هناك؟ أهي فطرة اللطف الإنساني؟

- يا له من عقلٍ لشرطي كثير الشك يا ديك! قد يكون هذا هو السبب أصلاً، ولكنني أعترف بالفضول أيضاً، فقد أردت أن أسمع رأيه بشأن قضيتنا، فهو يتشدق كثيراً حول بساطة العثور على حل لأية قضية بمجرد جلوسك في كرسيك ومطابقة رؤوس أناملك وإغلاق عينيك ثم التفكير! لقد أردت منه أن يثبت نظريته.

- وهل مارس تلك الطريقة من أجلك؟

- لقد فعل.

سألني ديك بشيء من الفضول: وماذا قال؟

- قال إنها لا بد أن تكون جريمة قتل بسيطة جداً.

قال هاردكاسل متفضاً: بسيطة؟ يا إلهي! لماذا هي بسيطة؟!

قلت: كما فهمت لأن ظروف القضية تبدو معقدة جداً.

هزّ رأسه وقال: أنا لا أرى ذلك. وهل قال شيئاً آخر؟

- حسناً، لقد طلب مني أن أتحدث إلى الجيران، فأكدت له أننا قمنا بذلك.

- الجيران الآن أكثر أهمية بالنظر إلى الشهادة الطبية.

- أتقصد الافتراض القائل بأن الرجل قد تم تخديره في مكان آخر ثم نُقل إلى المنزل رقم ١٩ لكي يُقتَل هناك؟

فاجأني شيء مألوف حول تلك الكلمات فقلت: ذلك ما قالته السيدة... ما اسمها؟ صاحبة القطط، وقد تلقيته كملاحظة مثيرة في حينه.

- تلك القطط!

قالها ديك وهز كتفيه، ثم واصل كلامه قائلاً: بالمناسبة، لقد عثرنا على سلاح الجريمة يوم أمس.

- حقا؟! أين؟

- في بيت القطط، وأغلب الظن أن القاتل رماه بعد الجريمة.

- ما من بصمات كما أظن، أليس كذلك؟

- لقد مُسحت بعناية، ويمكن أن يعود السكين لأي شخص،

وهو مستعمَل قليلاً، وقد شُحذ مؤخراً.

- إذن فالقضية بهذا الشكل: خُدِّر الرجل ثم نُقل إلى رقم ١٩. بسيارة أم كيف؟

- من الممكن أن يكون قد جيء به من أحد البيوت ذات الحدائق المتلاصقة.

- أليس في ذلك شيء من المجازفة؟

- إنه يحتاج إلى جرأة.

- ويقتضي معرفة جيدة جداً بعادات الجيران أيضاً. أغلب ظني أنه نُقل بسيارة.

- وحتى تلك الطريقة فيها مخاطرة؛ فالناس يلاحظون السيارة.

- أوافقك على أن القاتل ما كان ليجهل قدرة الناس على ذلك؛ فالمارة كانوا سيلاحظون سيارة واقفة عند المنزل رقم ١٩ في ذلك اليوم.

- أتساءل إن كانوا سيلاحظون فعلاً؛ فالكل معتاد على رؤية السيارات، ما لم تكن سيارة فاخرة جداً طبعاً بشكل غير مألوف، لكن هذا مستبعَد.

- وقد كانت تلك ساعة الغداء طبعاً. هل تدرك يا كولن أن ذلك يُعيد الآنسة ميليسنت بيمارش إلى الصورة؟ إذ يبدو مستبعَداً التفكير في أن رجلاً قوي البنية يُطعن من قِبَل امرأة مكفوفة، ولكن لو كان مخدَّراً...

- بكلمات أخرى: "لو جاء هناك لكي يُقتل" كما قالتها

صاحبتنا السيدة همينغ، فسيكون قد جاء حسب موعد مسبَق دون أن يثير ذلك أي شك، ثم قُدم له شراب منوِّم، ثم باشرت الآنسة بيمارش عملها، وبعد ذلك قامت بغسل الكوب ورتّبت وضع الجثة على الأرض ورمت السكين في حديقة جيرانها وخرجت كالمعتاد.

- وفي طريقها تتصل هاتفياً بمؤسسة كافنديش للسكرتارية.

- ولكن لماذا تفعل ذلك؟ ولماذا تطلب شيلا ويب خصوصاً؟!

- أتمنى لو عرفنا.

نظر إليّ ثم قال: هل كانت الفتاة نفسها تعرف؟

- إنها تنفي ذلك.

"إنها تنفي ذلك"... أعادها هاردكاسل دونما نغمة ثم أردف قائلاً: ولكن ما رأيك أنت في المسألة؟

سكتّ برهة وجيزة. ماذا كان رأيي أنا؟ كان لزاماً عليّ أن أقرر الآن بخصوص ما سأفعله، فالحقيقة لا بد أن تنجلي في النهاية، ولن يضير شيلا شيء إذا كانت كما أعتقد فيها. وبحركة سريعة سحبت بطاقة بريدية من جيبي ودفعتها عبر الطاولة قائلاً: لقد تلقّت شيلا هذه بالبريد.

قرأها هاردكاسل بسرعة. كانت واحدة من سلسلة بطاقات بريدية تحمل صوراً لمباني لندن، وكانت تمثل محكمة الجنايات المركزية. قلبها هاردكاسل على الوجه الآخر. كان العنوان على اليمين بطباعة أنيقة: الآنسة «ر. ش. ويب، ١٤ شارع بالمرستون، كراودن»، وعلى الجانب الأيسر بالحرف المطبوع أيضاً عبارة

«تذكّري» وتحتها ١٣:٤.

قال هاردكاسل: ١٣:٤؟ هذا هو التوقيت الذي كانت الساعات تشير إليه في ذلك اليوم!

هزّ رأسه قائلاً: صورة محكمة الجنايات وكلمة «تذكّري» وتوقيت ١٣:٤! يجب أن تكون لهذا كله علاقة بشيء ما.

أضفتُ قائلاً: هي تقول إنها لا تعرف ما يعنيه ذلك، وأنا أصدقها.

أومأ هاردكاسل برأسه وقال: سأحتفظ بهذه، فقد تُوصلنا إلى شيء.

- آمل ذلك.

كان الموقف محرجاً فقلت مخفّفاً منه: لديك الكثير من الوثائق الرسمية هنا؟

- كلها كالمعتاد، وأغلبها لا خير فيها. ليس للرجل المتوفى سجل سوابق ولا بصمات له في الملفات، وكل هذه الأشياء وردتنا من أشخاص يدّعون أنهم تعرفوا عليه في الواقع.

وأخذ يقرأ: "سيدي العزيز، أنا متأكد أن الصورة المنشورة في الجريدة مشابهة تماماً لرجل كان يستقلّ قطاراً في مفرق ولسدن في اليوم السابق. كان يتمتم مع نفسه ويبدو متوحشاً ومهتاجاً، فتصورت عندما رأيته أن شيئاً ما قد أصابه"، "سيدي العزيز، أعتقد أن هذا الرجل يشبه كثيراً جون ابن عم زوجي. لقد سافر خارج البلاد إلى جنوب أفريقيا، إلا أنه قد عاد كما يبدو. كان له شاربان عندما سافر، ولكن يُحتمل أنه قد حلقهما بالطبع"، "سيدي العزيز،

لقد رأيت الرجل المنشورة صورته في الجريدة في قطار الأنفاق ليلة أمس، وفكرت في حينها أن شيئاً غريباً كان يكتنفه"...

ثم أطلق تنهيدة قوية وقال: وبالطبع لدينا النساء اللائي يتعرفن على أزواجهن، نساء في الحقيقة لا يعرفن كيف يبدو أزواجهن! وأمهات مفعَمات بالأمل ممن يستطعن أن يميزن أولادهن الذين لم يجتمعنَ بهم منذ عشرين عاماً. وهذه قائمة بأسماء المفقودين وليس فيها شيء يمكن أن يساعدنا: "جورج بارلو، ٦٥ سنة، غاب عن بيته، وتعتقد زوجته بأنه ربما فقد ذاكرته"، وتحتها ملاحظة: "مدين بالكثير من المال، شوهد يتجول مع أرملة حمراء الشعر، يمكن التأكيد على أنهما هربا".

ثم نظر في فقرة أخرى وقال: وهنا "الأستاذ هارغريفز الذي كان متوقعاً أن يلقي محاضرة الثلاثاء الماضي، ولكنه لم يَعُد ولم يُبرِق ولم يرسل ملاحظة اعتذار".

لم يَبدُ على هاردكاسل أنه أخذ موضوع الأستاذ هارغريفز على محمل الجد، فقد قال: ربما فكر أن موعد المحاضرة كان الأسبوع الماضي أو الأسبوع القادم، ولعله تصور أنه أخبر مدبرة منزله بالمكان الذي سيذهب إليه، لكنه لم يفعل ذلك... يصلنا الكثير من هذا.

انطلق جرس هاتف كان على مكتب هاردكاسل، فالتقط السماعة وقال: نعم، ماذا؟ مَن الذي عثر عليها؟ هل أعطَت اسمها؟ فهمتُ. واصل عملك.

ثم أعاد السماعة مكانها، وعندما التفت نحوي كان وجهه قد تغير؛ كان متجهماً وقال: لقد عثروا على فتاة ميتة في كُشك الهاتف

في هلال ولبراهام.

حملقت إليه وقلت: ميتة! كيف؟!

- مشنوقة... بشالها الخاص.

وفجأة شعرتُ بالبرد وقلت: أي فتاة؟ ليست...

رمقني هاردكاسل بنظرة باردة لم تعجبني وقال: اطمئن، ليست فتاتك إن كان ذلك ما تخشاه. يبدو أن الشرطي هناك يعرف من تكون؛ يقول إنها إحدى الفتيات اللائي يعملن في نفس المكتب مع شيلا، واسمها إدنا برنت.

- من الذي عثر عليها؟ الشرطي؟

- عثرت عليها الآنسة ووترهاوس الساكنة في المنزل رقم ١٨. يبدو أنها ذهبت إلى الكشك لتُجري اتصالاً هاتفياً لأن هاتفها تعطّل فوجدت الفتاة وقد تكوّمت هناك.

انفتح الباب وأطل رجل الشرطة قائلاً: لقد اتصل الطبيب هاتفياً وقال إنه في طريقه يا سيدي، وسيلتقي بك في هلال ولبراهام.

* * *

الفصل السابع عشر

مضت ساعة ونصف حين جلس مفتش التحري هاردكاسل خلف مكتبه وتقبل بارتياح كوباً من الشاي، وكان وجهه لا يزال يحمل نفس الوجوم والحنق. قال له شرطي: معذرة يا سيدي، يود بيرس أن يتحدث إليك.

هيأ هاردكاسل نفسه وقال: بيرس؟ آه، حسناً، دعه يدخل.

دخل بيرس الذي كان يبدو شرطياً عصبياً وقال: معذرة يا سيدي، لقد رأيت أن من الواجب أن أخبرك.

- ما الأمر؟

- كان ذلك بعد جلسة التحقيق يا سيدي. كنت في مهمتي عند الباب، وتلك الفتاة... الفتاة التي قُتلت، لقد... لقد كلمتني.

- كلمتك! حقاً؟ وماذا قالت؟

- كانت تريد أن تتحدث إليك سيدي.

استقام هاردكاسل منتبهاً وقال: إليّ؟ هل قالت لماذا؟

- ليس بالضبط يا سيدي. أنا آسف يا سيدي إن كان... إن كان ينبغي عليّ أن أفعل شيئاً بصدد ذلك، فقد سألتها إن كانت تستطيع

أن تعطيني رسالة أو... أو إن كان بإمكانها الحضور إلى المركز فيما بعد، فقد رأيتك مشغولاً مع رئيس الشرطة والمحقق فظننتُ...

قال هاردكاسل بهمس: تباً! ألم تستطع أن تخبرها بأن تنتظر حتى أفرغ؟

احمرّ وجه الفتى وقال: آسف يا سيدي، لو كنت أعلم لفعلت ذلك، إلا أنني لم أتصور أي أهمية للموضوع، فهي نفسها لم تكن تعتقد أن ذلك مهم. كانت قلقة فقط بخصوص شيء ما.

قال هاردكاسل: قلقة؟!

ولاذ بالصمت برهة وجيزة يقلب في ذهنه حقائق معينة. إنها نفس الفتاة التي مرّ بها في الشارع عندما كان متجهاً إلى بيت السيدة لوتن، الفتاة التي أرادت مقابلة شيلا ويب، الفتاة التي عرفَته عندما مرت به حيث تردّدَت لحظة كما لو كانت غير متيقنة هل تستوقفه أم لا... كانت تفكر في شيء ما، شيء يقلقها. لقد أخطأ لأنه لم يكن سريع البديهة، فبينما كان منهمكاً في البحث عن المزيد حول خلفية شيلا ويب أهمل نقطة ثمينة، وهي أن هذه الفتاة كانت قلقة، فلماذا كانت قلقة؟ أما الآن فمن غير المحتمَل أن يعرفوا السبب أبداً.

التفت إلى بيرس وقال: واصل كلامك يا بيرس، أخبرني بكل ما يمكنك تذكّره.

كان يعلم أنه لا يصح منه تحويل غضبه وإحباطه بإلقاء اللوم على الفتى؛ فكيف له أن يعلم؟ كما أن جزءاً من تدريبه كان للحفاظ على النظام وتأمين عدم اقتراب أحد من رؤسائه إلا في الأماكن والأوقات المناسبة، ولو كانت الفتاة قد ألمحت إلى أن الموضوع مهم أو ملحّ لاختلف الأمر، لكنها -حسبما يتذكر من لقائهما

الأول في المكتب- لم تكن ذكية، بل كانت بطيئة التفكير ضعيفة في قدراتها العقلية. سأل هاردكاسل الشرطي بيرس قائلاً: هل تستطيع تذكر ما حدث وما ذكرَته لك بالضبط يا بيرس؟

نظر بيرس إليه بنوع من الامتنان ثم قال: حسناً يا سيدي، لقد أقبلت نحوي عندما كان الجميع يغادرون القاعة، ثم ترددَت لحظة وتلفّتت حولها كما لو كانت تبحث عن أحد... ليس عنك يا سيدي، لا أظن ذلك، بل عن شخص آخر. ثم جاءت إليّ وطلبت السماح لها بأن تحدث الضابط الذي أدلى بشهادته، وهكذا وكما قلتُ رأيتك مشغولاً مع رئيس الشرطة فبينت لها أنك مشغول وأن بإمكانها تسليمي رسالة أو الاتصال بك لاحقاً في المركز، وأظن أنها قالت إن هذا مناسب، فسألتها إن كان لديها شيء مهم...

حنى هاردكاسل نفسه إلى الأمام وقال: تابع.

- فقالت: "حسناً، لا شيء في الحقيقة، إنه مجرد شيء قالته، ولا أدري كيف يمكن أن يكون ذلك كما قالته".

أعاد هاردكاسل قوله متسائلاً: «لا أدري كيف يمكن أن يكون ذلك كما قالته»؟

- هذا صحيح يا سيدي، لست متأكداً من الكلمات تماماً؛ ربما كانت «لا أدري كيف يمكن أن يكون ما قالته صحيحاً». كانت متجهّمة ومتحيرة، لكنني عندما سألتها أجابت بأنه شيء غير مهم.

قال هاردكاسل لنفسه بسخرية مريرة: ليس مهماً حقاً كما قالت، الفتاة نفسها التي وُجدت مخنوقة في كشك الهاتف بعد مضي فترة قصيرة! ثم عاد يسأل بيرس: هل كان أي شخص على مقربة منك عندما كانت تكلمك؟

- حسناً، لقد كان كثير من الناس يخرجون كما تعلم يا سيدي، فالكثير من الناس حضروا التحقيق. لقد أحدثَت هذه الجريمة ضجة كبيرة بسبب الطريقة التي تناولتها بها الصحف.

- ألا تتذكر أحداً بالذات كان على مقربة منك في حينها، أحد الأشخاص الذين أدلوا بشهادتهم مثلاً؟

- أخشى أنني لا أتذكر أحداً على وجه التحديد يا سيدي.

قال هاردكاسل: حسناً، لا جدوى من ذلك. حسناً يا بيرس، إذا تذكرت أي شيء آخر فأخبرني به على الفور.

عندما بقي وحده حاول هاردكاسل أن يخفف من غضبه المتزايد ومن توبيخه لنفسه. تلك الفتاة، تلك الشبيهة بالأرنب كانت تعرف شيئاً. لا، لا يمكن الادّعاء بأنها تعرف شيئاً، ولكنها لاحظت أو سمعت شيئاً، شيئاً أثار قلقها، وقد تضاعف قلقها بعد حضورها التحقيق، فماذا عساه أن يكون؟ شيء ما في الشهادة؟ شيء في شهادة شيلا ويب؟ هل كان ذهابها إلى بيت خالة شيلا قبل يومين بقصد مقابلة شيلا؟ بالتأكيد كان يمكنها التحدث إلى شيلا في المكتب. لماذا أرادت مقابلتها على انفراد؟ هل كانت تعرف عن شيلا ويب شيئاً يحيرها؟ هل أرادت أن تطلب تفسيراً من شيلا عن شيء ما في مكان ما على انفراد وليس أمام باقي الفتيات؟ يبدو أن الأمر كذلك. هكذا كان الأمر بالتأكيد.

أعطى هاردكاسل بعض التعليمات للعريف كراي الذي سأله: لماذا ذهبَت الفتاة إلى هلال ولبراهام حسب رأيك؟

قال هاردكاسل: كنت أفكر في ذلك. من المحتمَل طبعاً أنها كانت فضولية تريد أن ترى كيف يبدو البيت، وهذا طبيعي؛ فيبدو

أن نصف سكان كراودن يشعرون بنفس الشعور... ومن ناحية أخرى فلعلها ذهبت لتقابل أحداً يسكن هناك.

وبعد أن خرج العريف كراي ثانية كتب هاردكاسل ثلاثة أرقام على ورقة صغيرة أمامه؛ كتب «٢٠؟»، ثم أضاف «١٩؟» ثم «١٨؟»، ثم كتب أسماء مقابلها: همينغ، بيمارش، وترهاوس. أما البيوت الثلاثة في الجانب العلوي من الهلال فقد كانت خارج القضية؛ فلكَي تزور إدنا برنت أحد هذه البيوت لم يكن ينبغي عليها أن تسلك الطريق الأدنى أصلاً.

درس هاردكاسل الاحتمالات الثلاثة مبتدئاً بالمنزل رقم ٢٠ أولاً. لقد وُجدت السكين التي استُخدمت في الجريمة الأولى هناك، والأكثر احتمالاً -كما يبدو- هو أن السكين قد رُميت هناك من حديقة المنزل رقم ١٩، لكنهم ليسوا متأكدين من ذلك، ومن الممكن أن تكون قد دُفعت بين الشجيرات من قِبَل مالكة المنزل رقم ٢٠ نفسها.

عندما استُجوبت كان رد فعل السيدة همينغ الوحيد هو السخط! "يا لها من قسوة! من ذلك الذي قذف بسكين مقرف كذلك على قططي؟"، هذا ما قالته، فما علاقة إدنا برنت بالسيدة همينغ؟! حسم المفتش هاردكاسل رأيه بأنه لا علاقة بينهما، واستمر يدرس الآنسة بيمارش.

هل ذهبت إدنا برنت إلى هلال ولبراهام لتزور الآنسة بيمارش؟ لقد أدلت الآنسة بيمارش بشهادتها في جلسة التحقيق، فهل كان في تلك الشهادة شيء أثار الشكوك عند إدنا؟ لكنها كانت قلقة قبل جلسة التحقيق، فهل كانت تعرف شيئاً مسبَقاً عن الآنسة بيمارش؟ فمثلاً هل كان لديها علم سابق بوجود صلة من نوع ما بين

الآنسة ببمارش وشيلا ويب؟ يمكن أن ينسجم ذلك مع كلماتها التي قالتها لبيرس «لا يمكن أن يكون ما قالته صحيحاً».

وفكر هاردكاسل بغضب وهو يقول: تخمين، تخمين، تخمين، الأمر كله قائم على التخمين!

ثم عاد يفكر مرة أخرى... المنزل رقم ١٨؟ الآنسة وترهاوس هي التي عثرت على جثة إدنا، وبسبب طبيعة عمله كان المفتش هاردكاسل سيء الظن بمن يعثرون على جثث؛ فالعثور عليها كان يُبعد متاعب جمة عن القاتل لأنه يُبعد مخاطر التخطيط لدفع التهمة بالغياب، وهو يأخذ في الحسبان أية بصمات قد تكون أُغفِلت، وهو من نواح عدة موضع محمي على أن يتوفر شرط قانوني واحد، وهو أن لا يوجد دافع واضح للجريمة. بالتأكيد لم يكن للآنسة وترهاوس أي دافع واضح كي تتخلص من إدنا برنت الصغيرة، كما لم تُدلِ الآنسة وترهاوس بشهادة في التحقيق، ومع ذلك فربما كانت موجودة هناك. هل كان لدى إدنا أي سبب للمعرفة أو للاعتقاد بأن الآنسة وترهاوس هي التي انتحلت شخصية الآنسة ببمارش حيث أجرت الاتصال الهاتفي وطلبت إرسال كاتبة اختزال إلى رقم ١٩؟

قال لنفسه مرة ثانية بسخط: المزيد من التخمين! ولدينا شيلا ويب نفسها بالطبع.

امتدت يد هاردكاسل إلى الهاتف واتصل بالفندق الذي يقيم فيه كولن لامب، وفي الحال كان كولن لامب بنفسه على الخط، فقال هاردكاسل: هاردكاسل يتكلم. كم كانت الساعة عندما تناولتَ الغداء مع شيلا ويب اليوم؟

مرت فترة صمت قبل أن يردّ كولن قائلاً: وكيف عرفت أننا تناولنا الغداء معاً؟

- تخمين جيد. لقد حدث هذا، أليس كذلك؟

- وما الذي يمنعني من تناول الغداء معها؟

- ما من سبب إطلاقاً، أنا أسألك عن الوقت فحسب. هل خرجَت لتناول الغداء مباشرة بعد جلسة التحقيق؟

- لا، فقد كان عليها القيام بالتسوق فالتقينا في المطعم الصيني في الشارع التجاري عند الساعة الواحدة.

- فهمت.

ألقى هاردكاسل نظرة على ملاحظاته. لقد ماتت إدنا برنت بين الساعة الثانية عشرة والنصف والساعة الواحدة. سأله كولن لامب قائلاً: ألا تريد معرفة ما تناولناه في الغداء؟

- حافظ على هدوء أعصابك، أردت الوقت بالضبط فحسب.

- فهمت، وهو كذلك.

مرّت فترة وجيزة من الصمت، فقال هاردكاسل محاولاً تخفيف التوتر: إذا لم يكن لديك ما يشغلك هذه الليلة...

قاطعه كولن قائلاً: أنا في مهمة وأُعِدّ حقائبي، فقد وجدت رسالة في انتظاري وعليّ أن أسافر إلى الخارج.

- ومتى ستعود؟

- لا أحد يعرف ذلك... أسبوع على الأقل، وربما أكثر من ذلك، وربما لن أعود أبداً.

قال كولن ذلك ووضع السماعة.

* * *

الفصل الثامن عشر

وصل هاردكاسل إلى المنزل رقم ١٩ في هلال ولبراهام حينما كانت الآنسة بيمارش تهمّ بالخروج من المنزل، فقال لها: لحظة من فضلك يا آنسة بيمارش.

- آه، هل هذا مفتش التحري هاردكاسل؟

- نعم، أتسمحين لي بكلمة معك؟

- لا أريد التأخر على المعهد. هل سيطول ذلك؟

- ثلاث أو أربع دقائق فقط.

دخلت البيت وهو يتبعها، وسألها قائلاً: هل سمعت بما حدث عصر هذا اليوم؟

- وهل حدث شيء؟

- ظننتُ أنك سمعت. لقد قُتلت فتاة في كشك الهاتف في أول الطريق.

- قُتلت! متى؟

نظر إلى الساعة وقال: قبل ساعتين وثلاثة أرباع الساعة.

قالت الآنسة بيمارش: لم أسمع أي شيء عن ذلك.

ظهر أثر من نوع من الغضب في صوتها، وبدا وكأن ما تشكوه من إعاقة قد تعزز بطريقة جارحة. ثم أردفت قائلة: فتاة قُتلت! أي فتاة؟

- اسمها إدنا برنت، وكانت تعمل في مؤسسة كافنديش للسكرتارية.

- فتاة أخرى من هناك! هل أُرسِل في طلبها كزميلتها شيلا؟

- لا أظن ذلك. ألم تأتِ لتقابلك هنا في بيتك؟

- هنا؟ لم تأتِ بالتأكيد.

- هل كانت ستجدك في البيت لو كانت جاءت إلى هنا؟

- لست متأكدة. أي وقت قلت؟

- في نحو الثانية عشرة والنصف أو بعدها بقليل.

- نعم، كنت في البيت حينئذ.

- أين ذهبتِ بعد التحقيق؟

- عدت إلى هنا مباشرة.

وسكتَت لحظة ثم سألت: لماذا تظن أن الفتاة قد تكون جاءت لمقابلتي؟

- حسناً، لقد كانت حاضرة في أثناء التحقيق هذا الصباح ورأتك هناك، ولا بد أنه كان لديها سبب ما للمجيء إلى هلال ولبراهام، وبقدر علمنا فلم تكن على علاقة بأي شخص في هذا الشارع.

- ولكن لِمَ كان عليها أن تأتي لتقابلني؟ لمجرد أنها رأتني في أثناء التحقيق؟!

- حسناً...

ابتسم المفتش قليلاً، ثم حاول مسرعاً أن يضع ابتسامته في صوته عندما أدرك أن الآنسة بيمارش ما كانت لتستطيع تثمين قدرة ابتسامته على تلطيف المحادثة فقال: المرء لا يمكنه فهم هؤلاء الفتيات؛ فربما أرادت توقيعاً منك أو شيئاً من هذا القبيل.

قالت الآنسة بيمارش بازدراء: "توقيعاً!"، ثم قالت: نعم، ربما كنت على حق، هذا النوع من الأشياء يحدث فعلاً.

ثم هزّت رأسها بشدة وقالت: يمكنني أن أؤكد لك -يا حضرة المفتش هاردكاسل- أن ذلك لم يحدث اليوم، فلم يأتِ أحدٌ هنا منذ عدتُ من جلسة التحقيق.

- حسناً، شكراً لك يا آنسة بيمارش. لقد حسبنا أن من الأفضل أن ندقق في كل احتمال.

سألت الآنسة بيمارش: كم كان سنها؟

- أعتقد أنها كانت في التاسعة عشرة.

- التاسعة عشرة؟ صغيرة جداً!

تغيّر صوتها قليلاً وهي تكمل: صغيرة جداً... يا لتلك الطفلة المسكينة! من يُريد قتل فتاة في هذه السن؟

قال هاردكاسل: هذا يحدث أحياناً.

- هل كانت جميلة أو جذابة؟

قال هاردكاسل: لا، لا بد أنها كانت تودّ أن تكون كذلك، لكنها لم تكن.

قالت الآنسة بيمارش: "إذن فليس هذا هو السبب". ثم هزّت رأسها ثانية وقالت: يؤسفني هذا بشدة، يؤسفني أكثر مما أستطيع التعبير عنه لعدم قدرتي على مساعدتك يا حضرة المفتش.

وخرج متأثراً كما كان يتأثر دوماً بشخصية الآنسة بيمارش.

* * *

كانت الآنسة وترهاوس هي الأخرى في البيت، وكانت هي أيضاً مطابقة لصنفها، تفتح الباب بغتة وكأن ذلك ينمّ عن رغبتها في اقتناص أناس كانوا يفعلون ما لا ينبغي لهم أن يفعلوه. قالت: "آه، هذا أنت!"، ثم أضافت: لقد قلت لأصحابك كل ما أعرفه.

- أنا متأكد أنك قد أجبت على جميع الأسئلة التي وُجهت إليك، لكنها لا يمكن أن توجَّه كلها معاً كما تعلمين. ينبغي علينا الخوض في مزيد من التفصيلات.

قالت الآنسة وترهاوس: لا أرى موجباً لذلك، فالقضية عبارة عن صدمة فظيعة.

قالت الآنسة وترهاوس ذلك وهي تنظر إليه بنظرة ناقدة كما لو كانت المسألة كلها من صنعه، ثم قالت: تفضل بالدخول، تفضل بالدخول؛ ليس معقولاً أن تظل واقفاً بالباب هكذا طوال اليوم. ادخل واجلس واطرح ما شئت من أسئلة، رغم أني لا أعرف أية أسئلة قد تكون؛ فكما بينتُ لكم خرجت لأجري اتصالاً هاتفياً وفتحت باب الكُشك فإذا بالفتاة هناك. لم أتلقّ صدمة مثلها في حياتي، فهُرعت وأحضرت رجل الشرطة.

قالتها الآنسة وترهاوس بعنف، فقال المفتش هاردكاسل:

حسناً فعلت يا سيدتي.

قالت الآنسة وترهاوس مختتمة: هذا كل شيء.

- أردت أن أعرف منك ما إذا كنتِ واثقة من أنك لم تشاهدي هذه الفتاة قط من قبل.

- قد أكون رأيتها، لكنني لا أتذكر؛ أعني أنها قد تكون خدمتني في وولورث أو جلست بجانبي في حافلة أو باعتني بطاقات في دار عرض...

- لقد كانت طابعة اختزال في مؤسسة كافنديش.

- لا أظن أنني استخدمت طابعة اختزال من قبل. ربما اشتغلَت في مكتب أخي في جينسفورد وسوتينهام، أهذا ما ترمي إليه؟

- ماذا؟ لا، ليس هو بالتأكيد؛ فلا يبدو أنه توجد أية صلة من ذلك النوع، ولكني فقط أتساءل عما إذا كانت قد جاءت لتقابلك صباح هذا اليوم قبل أن تُقتل.

- جاءت لتقابلني! لا، طبعاً لا، ولماذا ينبغي أن تفعل ذلك؟!

- حسناً، هذا هو ما نجهله، لكن هل يمكنك القول بأن كل من شاهدها تدخل من بوابة منزلك صباح هذا اليوم مخطئ؟

ونظر إليها بعينين بريئتين فقالت الآنسة وترهاوس: كل من رآها تدخل من بوابة منزلي! هذا هراء.

وترددت قليلاً ثم قالت: على الأقل...

فقال هاردكاسل بتحفّز نجح في إخفائه: على الأقل ماذا؟

- حسناً، أظن أنها قد تكون دفعت بورقة أو غيرها من تحت الباب؛ فقد كانت هناك ورقة وقت الغداء، شيء بخصوص نزع السلاح النووي كما أعتقد... كل يوم يوجد شيء من هذا، وأعتقد أنك لا يمكن أن تلومني على مثل هذا الأمر، أليس كذلك؟

- بالطبع. والآن بخصوص مكالمتك الهاتفية، تقولين إن هاتفك كان معطلاً، واستناداً إلى مركز الاتصالات لم يكن الأمر كذلك.

- مراكز الاتصالات يمكنها أن تقول أي شيء! لقد طلبتُ الرقم فسمعت ضوضاء غريبة لا علامة الانشغال، وهكذا فقد خرجت إلى كشك الهاتف.

نهض هاردكاسل من مكانه وقال: أنا آسف لإزعاجك بهذا الشكل يا آنسة وترهاوس، ولكن توجد فكرة مفادها أن هذه الفتاة قد جاءت فعلاً لتزور شخصاً ما في الهلال فذهبت إلى بيت لا يبعد عن هذا المكان.

- إذن فعليك أن تسأل كل مَن في الهلال. أعتقد أن الشيء الأكثر احتمالاً هو أنها ذهبت إلى البيت المجاور، أعني بيت الآنسة بيمارش.

- ولماذا تعتبرين ذلك الشيء هو الأكثر احتمالاً؟

- لقد ذكرتَ أنها كانت طابعة اختزال وأنها جاءت من مكتب كافنديش، وقد قيل بالتأكيد (إذا ما كنت أتذكر بشكل صحيح) إن الآنسة بيمارش طلبت حضور طابعة اختزال إلى بيتها في ذلك اليوم الذي قُتل فيه الرجل.

- لقد قيل ذلك، أجل، لكنها أنكرته.

- حسناً، لو سألتَني أنا... وما من أحد يُصغي لما أقول إلا بعد فوات الأوان، فسأقول إن هذه المرأة أصابها مسّ من الجنون، أعني الآنسة بيمارش؛ ففي اعتقادي أنها كانت تتصل فعلاً بالمكاتب وتطلب حضور طابعة اختزال، وبعد ذلك قد تنسى كل شيء عن الأمر.

- ولكن هل تعتقدين أنها يمكن أن ترتكب جريمة قتل؟

- لم أطرح فكرة جريمة قتل أو أي شيء من ذلك. أعلم أن رجلاً قُتل في بيتها، لكنني لم أعتقد قط أن للآنسة بيمارش يداً في ذلك. لا، كل ما ظننته أن لديها إحدى تلك العادات الفضولية كبقية الناس. كنت أعرف امرأة كانت تتصل دائماً بحلواني وتطلب دستة من كعك الليمون، وهي لم تكن بحاجة إليها، وعندما يأتون بها تُنكر أنها طلبتها! شيء من هذا القبيل.

قال هاردكاسل: طبعاً، كل شيء ممكن.

ثم ودّع الآنسة وترهاوس وانصرف وهو يفكر في أنها لم تنصف نفسها عندما طرحت رأيها الأخير، ومن ناحية أخرى لو كانت تعتقد أن الفتاة شوهدت وهي تدخل بيتها وأن الأمر كان هكذا حقيقة فعندئذ يكون اعتقادها أن الفتاة قد ذهبت إلى المنزل رقم ١٩ اعتقاداً حاذقاً في مثل هذه الظروف.

ألقى هاردكاسل نظرة خاطفة على ساعته وقرر أنه ما زال لديه وقت كاف لزيارة مقر مؤسسة كافنديش للسكرتارية الذي أُعيدَ فتحه في الساعة الثانية من عصر ذلك اليوم حسب علمه، فقد يحصل على بعض العون من الفتيات هناك، وسيجد شيلا ويب هناك أيضاً.

* * *

نهضت إحدى الفتيات على الفور عندما دخل المكتب فقالت: أنت مفتش التحري هاردكاسل، أليس كذلك؟ الآنسة مارتنديل تنتظرك.

ثم اقتادته إلى المكتب الداخلي، فلم تنتظر الآنسة مارتنديل لحظة قبل أن تهاجمه قائلة: عار عليكم أيها المفتش هاردكاسل، عار مطلَق! يجب عليك أن تصل إلى حل هذه المهزلة، يجب عليك ذلك حالاً. كفى تسكعاً هنا وهناك... يُفترض بالشرطة أن توفر الحماية، وهذا هو ما نحتاجه هنا في هذا المكتب... الحماية. أريد الحماية لفتياتي، وأنا عازمة على نيلها.

- أنا واثق يا آنسة مارتنديل أن...

- هل تنكر أن اثنتين من فتياتي أصبحتا ضحيتين؟ من الواضح أن شخصاً غير مسؤول يحوم حولنا، شخصاً مصاباً بنوع من... ماذا يسمونه هذه الأيام؟ النوبة أو العقدة ضد طابعات الاختزال أو مكاتب السكرتارية. إنهم يتعمّدون قتل هذا المعهد؛ فقد استُدرِجَت شيلا في البداية عن طريق حيلة قذرة لتعثر على جثة ميتة، وهو شيء قد يجعل فتاة عصبية تفقد عقلها، والآن تُقتل فتاة طيبة وديعة حقاً في كشك للهاتف. يجب عليكم إيقاف هذه المهزلة أيها المفتش!

قال المفتش هاردكاسل: أنا لا أطلب شيئاً أكثر من أن نقع على حل لها يا آنسة مارتنديل، وما جئت إلا أملاً في الحصول على بعض العون عندك.

- عون! أي عون يمكنني أن أوفره لك؟! أتظن أني ما كنت سآتيك مسرعة قبل الآن لو كان عندي أي شيء يعنيك؟ عليك أن تجد قاتل تلك الفتاة المسكينة إدنا، ومَن لعب تلك اللعبة القاسية

على شيلا. أنا صارمة مع فتياتي يا حضرة المفتش، أقيّدهن بالعمل ولا أسمح لهن بالتأخر أو التسيب، ولكنني لا أتحمل أن يذهبن ضحايا أو يُقتلن. أنا عازمة على حمايتهن وعازمة على أن أرى الناس الذين تدفع الدولة رواتبهم لكي يقوموا بحمايتهن يؤدون عملهم.

ثم حملقت إليه وقد بدت كأنها نمرة في هيئة إنسان، فقال لها المفتش: أمهلينا بعض الوقت يا آنسة مارتنديل.

- وقت! لمجرد أن ماتت تلك الطفلة السخيفة صرتم تظنون أن لديكم كل ما في الدنيا من وقت. إن ما سيحدث بعد ذلك هو أن فتاة أخرى سوف تُقتل.

- لا أرى موجباً لأن تخافي من ذلك يا آنسة مارتنديل.

- لا أعتقد أنك فكرت في أن هذه الفتاة ستُقتَل عندما صحوتَ من النوم هذا الصباح يا حضرة المفتش، فلو كان الأمر كذلك لاتخذتَ بعض الاحتياطات لحمايتها كما أظن، وعندما تُقتل إحدى فتياتي أو توضع في موقف فظيع مشبوه فإنك ستدهش بنفس المقدار. القضية بأكملها استثنائية وجنونية. يجب أن تعترف بنفسك أنها خطة جنونية، هذا إن كان ما يقرؤه المرء في الصحف صحيحاً. خذ كل تلك الساعات على سبيل المثال، فهي لم تُذكَر في جلسة التحقيق صباح هذا اليوم كما لاحظت.

- شيء قليل جداً ذُكر هذا الصباح يا آنسة مارتنديل، فقد كانت مجرد جلسة تحقيق أوّلية كما تعلمين.

قالت الآنسة مارتنديل محدقة إليه: كل ما أريد قوله هو أنكم يجب أن تفعلوا شيئاً بشأن الموضوع.

- أليس لديك أي شيء تخبرينني به؟ ألم تلمّح إدنا لك بشيء؟

ألم تَبدُ قلقة من أي شيء أو تشاورك في شيء؟

- لا أظن أنها كانت ستشاورني إن كانت قلقة، ولكن ما الذي يمكن أن يقلقها؟

كان هذا هو السؤال الذي تمنى المفتش هاردكاسل لو أُجيبَ عليه، ولكنه وجد من المستبعَد الحصول على إجابة من الآنسة مارتنديل، وبدلاً من ذلك قال: أودّ أن أتحدث إلى أكبر عدد ممكن من فتياتك هنا. أرى أن إدنا برنت لم تَبُحْ لك بأية مخاوف أو وساوس ساورتها، ولكنها قد تكون تحدثت عنها مع زميلاتها الموظفات.

- ربما كان هذا محتمَلاً، فهؤلاء الفتيات يقضين وقتهن في الثرثرة، وبمجرد أن يسمعن وقع أقدامي في الممر خارج الغرفة تبدأ جميع آلات الطباعة في العمل. ولكن ما الذي كُنّ يفعلنه قبل ذلك بالضبط؟ التحدث... ثرثرة ثم ثرثرة وكلام فارغ.

وبعد أن هدأت قليلاً قالت: ثلاثٌ منهن فقط موجودات في المكتب حالياً، فهل تودّ التحدث إليهنّ ما دمتَ هنا؟ الأخريات خرجن في مهمات عمل. يمكنني تزويدك بأسمائهن وعناوين بيوتهن إن شئت.

- شكراً لك يا آنسة مارتنديل.

- أعتقد أنك تود التحدث إليهن على انفراد؛ فلن يتحدثن بنفس الحرية إن كنتُ موجودة أراقبهن، فهذا يُوجِب عليهن الاعتراف بأنهن كن يثرثرن ويبددن الوقت كما ترى.

نهضت من مقعدها وفتحت الباب المؤدي إلى المكتب الآخر وقالت: أيتها الفتيات، المفتش هاردكاسل يودّ التحدث إليكن في

بعض الأمور. يمكنكن التوقف عن العمل حالياً، وحاولن إبلاغه بكل ما تعرفن مما يمكن أن يساعده في الكشف عن قاتل إدنا.

ثم عادت إلى مكتبها الخاص وأغلقت الباب بقوة.

نظرت إلى المفتش ثلاثةُ وجوه لفتيات مذعورات، واستجمع رأيَه فيهن بحكم سطحي وعاجل، لكن بما يكفي لاتخاذ قرار بخصوص معدنهن: فتاة شقراء تلبس نظارات يوحي وجهها بالجدية ويمكن الاعتماد عليها حسب اعتقاده، لكنها لم تكن ذكية بشكل خاص. وأخرى سمراء الشعر ذات تسريحة أشبه بمن كانت في عاصفة ثلجية قبل قليل، ولها عينان ترصدان الأشياء حولها، ولكنها قد لا تكون موضع ثقة في تذكر الأحداث لأنها قد تنقّح الأشياء بالصورة التي تلائمها. أما الثالثة فقد كانت ضَحوكاً بالفطرة، وكان متأكداً من أنها ستوافق على كل ما سيقوله الآخرون.

تكلم بهدوء وبلا تكلف قائلاً: أعتقد أنكن جميعاً قد سمعتن بما حدث لإدنا برنت التي كانت تعمل هنا.

أومأت ثلاثة رؤوس فقال: بالمناسبة، كيف عرفتن بالأمر؟

نظرت كل منهن إلى الأخرى كما لو كُنّ يحاولن اتخاذ قرار بشأن من تكون الناطقة، وبدا بالإجماع أنها الفتاة الشقراء التي كان اسمها -على ما يبدو- جانيت. قالت: لم تأتِ إدنا إلى العمل في الساعة الثانية كما ينبغي عليها أن تفعل.

قالت مورين الفتاة داكنة الشعر: وقد انزعجت ساندي كات جداً... أعني الآنسة مارتنديل.

قهقهت الفتاة الثالثة وأوضحت قائلة: ساندي كات هو مجرد لقب نطلقه عليها.

فكّر المفتش قائلاً في نفسه: وهو ليس بالاسم السيء.

قالت مورين: إنها إرهاب حقيقي عندما تريد! لقد سألَتنا إن كانت إدنا قد أخبرتنا بأي شيء بشأن عدم عودتها إلى المكتب عصر ذلك اليوم، وقالت إنها كان ينبغي أن تبعث باعتذار على الأقل.

وقالت الشقراء: لقد أبلغت الآنسة مارتنديل بأنها حضرت جلسة التحقيق معنا، لكننا لم نرَها بعد ذلك ولم نعرف أين ذهبت.

فقال المفتش هاردكاسل: وكان ذلك صحيحاً، أليس كذلك؟ ألم تعرفن أين ذهبت بعدما غادرت التحقيق؟

قالت مورين: لقد عرضتُ عليها أن تأتي معي لتناول الغداء، لكنها كانت تبدو مشغولة البال وقالت إنها لا تدري إن كانت تُطيق تناول أي غداء، ويكفيها شراء شيء وتناوله في المكتب.

- إذن فقد كانت تنوي العودة إلى المكتب؟

- أجل، بالطبع، كلنا نعلم أننا ينبغي أن نفعل ذلك.

- هل لاحظَت أي واحدة منكن أي تغيير على إدنا برنت خلال الأيام القلائل السابقة؟ هل كانت تبدو قلقة كما لو أن شيئاً يشغل بالها؟ هل ذكرت لكُنّ شيئاً عن ذلك؟ فإن وُجد شيء -مهما يكن- تعرفنه فأرجو أن تخبرنني به.

نظرت إحداهن إلى الأخرى ولكن بأسلوب لا تآمر فيه، وكان يبدو أنه مجرد تخمين مبهَم، ثم قالت مورين: كانت تبدو أكثر الوقت قلقة لشيء ما، وهي تخلط الأمور بعضها ببعض وترتكب الأخطاء، كما كانت بطيئة الفهم قليلاً.

وقالت الفتاة الضحوكة: تحدث أشياء دائماً مع إدنا. هل

تذكر يوم انخلع كعب حذائها العالي؟ مثل هذه الأمور تماماً تحدث لإدنا.

قال هاردكاسل: نعم، أتذكّر.

وتذكّر كيف كانت الفتاة واقفة تنظر بحزن إلى الحذاء بيدها. وقالت جانيت: أتعلم؟ لقد خامرني شعور بأن شيئاً مريعاً قد حدث عصر هذا اليوم عندما لم تحضر إدنا هنا في الساعة الثانية.

قالت ذلك وأومأت برأسها والوقار يكسو مُحيّاها، فنظر إليها هاردكاسل بشيء من النفور؛ فكثيراً ما كان ينفر من الذين يتحولون إلى حكماء بعد الحادثة. لقد كان متأكداً من أن الفتاة لم تفكر في شيء كهذا، وكان الأرجح من ذلك في مخيلة هاردكاسل أنها قالت في نفسها: ستنال إدنا عقابها من ساندي كات عندما تأتي!

عاد يسأل من جديد: متى سمعتن بما جرى؟

نظرت إحداهن إلى الأخرى واحمرّ وجه الفتاة الضحوكة إحساساً بالذنب، فاتجهت عيناها جانباً نحو باب المكتب الخاص بالآنسة مارتنديل وقالت: حسناً، أنا... أنا تسللت خارج المكتب لحظة. أردت شراء بعض الفطائر لآخذها معي إلى البيت وتوقعت أنها ستكون قد نفدت وقت مغادرتنا، وعند وصولي إلى المتجر (وهو عند الناصية وهم يعرفونني هناك جيداً) قالت المرأة: "كانت تعمل معكم، أليس كذلك؟" فقلت: "من تقصدين؟" فقالت: تلك الفتاة التي وُجدت مقتولة في كشك الهاتف.

وأطلقَت تنهيدة قوية وأكملت قائلة: يا إلهي! لقد سبب لي هذا صدمةً شديدة، فعُدت مسرعة وأخبرت الأخريات، وأخيراً قلنا جميعاً بأن علينا إبلاغ الآنسة مارتنديل بذلك، وفي تلك اللحظة

تماماً خرجَت من مكتبها متوثبة وقالت لنا: ماذا تفعلن؟ ولا حتى آلة واحدة تعمل!

واستأنفت الفتاة الشقراء القصة قائلة: فقلت لها: لا ذنب لنا حقاً؛ فقد سمعنا بعض الأنباء المروّعة عن إدنا يا آنسة مارتنديل.

- وماذا فعلَت أو قالت الآنسة مارتنديل؟

قالت السمراء: حسناً، لم تصدق في البداية، قالت: "هراء، لقد سمعتن بعض الشائعات في أحد المتاجر. لا بد أنها فتاة أخرى. ولماذا يجب أن تكون إدنا؟"، وعادت إلى غرفتها لتتصل بالشرطة، فعلمَت منهم أن ذلك صحيح.

قالت جانيت حالمة تقريباً: ولكنني لا أفهم، لا أفهم لماذا يريد أحدهم أن يقتل إدنا أياً كان؟

نظر ثلاثتهن إلى هاردكاسل برجاء كما لو أن باستطاعته أن يعطيهن الجواب، فتنهد وهو يزداد قناعة بأنه لا شيء هناك ينفعه، وربما كانت إحدى الفتيات الأخريات أكثر فائدة. تذكر شيلا نفسها فتساءل قائلاً: هل كانت إدنا برنت وشيلا ويب صديقتين حميمتين؟

فتبادلنَ النظرات بإبهام وقالت إحداهن: ليس على وجه الخصوص، لا أظن ذلك.

- أين الآنسة ويب بالمناسبة؟

فقيل له إن شيلا ويب كانت في فندق كرليو تؤدي عملاً للبروفيسور بوردي.

* * *

الفصل التاسع عشر

كان الغضب بادياً على البروفيسور بوردي عندما قطع ما كان يمليه ليردّ على الهاتف قائلاً: من؟ ماذا؟ أتقصد أنه موجود هنا الآن؟ حسناً، اسأله إن كان يوم غد سيكون ملائماً. آه، حسناً، حسناً، أخبره بأن يصعد.

ثم قال حانقاً: يوجد دائماً شيء مزعج! كيف يمكن للمرء القيام بعمل جاد مع هذه الإزعاجات المتكررة؟

ثم نظر إلى شيلا ويب وهو ما يزال منزعجاً قليلاً وقال: والآن، أين كنا يا عزيزتي؟

كانت شيلا على وشك أن تردّ عندما سمعت طرقة على الباب، فأخرج البروفيسور بوردي نفسه بشيء من الصعوبة من المتاعب التاريخية لثلاثة آلاف عام خلت وقال بلهجة لا تخلو من الحنق: تفضل بالدخول. ما الأمر؟ يمكنني القول بأني طلبت أن لا يزعجني أحد عصر هذا اليوم على وجه الخصوص.

- آسف جداً يا سيدي، آسف جداً حقاً لاضطراري للقيام بذلك. مساء الخير يا آنسة ويب.

كانت شيلا قد نهضت واقفة ووضعت كرّاسة الملاحظات

جانباً، وتساءل هاردكاسل إن كان قد تخيل أنه رأى توجساً طارئاً في عينيها في حين قال البروفيسور ثانية وبحدّة: حسناً، ما الأمر؟

- أنا المفتش هاردكاسل.

- حسناً.

- ما أريده حقاً هو بضع كلمات مع الآنسة ويب.

- ألا يمكنك الانتظار؟ إن هذا غير مناسب حقاً في هذه اللحظة، غير مناسب أبداً؛ كنا عند نقطة حساسة جداً، ستنتهي الآنسة ويب بعد نحو ربع ساعة، آه، حسناً، ربما نصف ساعة أو نحو ذلك. آه، يا إلهي! هل هي الساعة السادسة الآن بالفعل؟

- أنا آسف جداً يا بروفيسور بوردي.

كانت نبرة هاردكاسل صارمة فقال البروفيسور بوردي: آه، حسن جداً، ما الأمر؟ مشكلة مرورية كما أظن. كم هم متطفلون شرطة المرور هؤلاء! أحدهم أصرّ قبل بضعة أيام على أني تركت سيارتي لأربع ساعات ونصف عند عدّاد الموقف، وأنا متأكد من أن ذلك غير ممكن.

- إنها أكثر جدية من مشكلة مرورية يا سيدي.

- آه، نعم، وأنتِ لا تمتلكين سيارة، أليس كذلك يا عزيزتي؟

نظر نحو شيلا ويب مستفهِماً ثم أردف يقول: نعم، أتذكّر، فأنت تأتين إلى هنا بالحافلة. حسناً يا حضرة المفتش، ما الأمر؟

- الموضوع يتعلق بفتاة تُدعى إدنا برنت.

والتفت إلى شيلا قائلاً: أعتقد أنك سمعت بذلك.

حدّقت إليه بعينين جميلتين، عينين زرقاوين واسعتين تذكّرانه بشخص ما. ثم رفعت حاجبَيها قائلة: إدنا برنت؟ نعم، أعرفها بالطبع. ماذا عنها؟

- يبدو أن الخبر لم يصلك بعد. أين تناولتِ الغداء يا آنسة ويب؟

تصاعد الدم إلى وجنتيها وهي تقول: تناولت الغداء مع صديق في مطعم هوتانغ، إن كان... إن كان لك شأن بذلك.

- ألم تعودي إلى المكتب بعد ذلك؟

- أتعني إلى مؤسسة كافنديش؟ لقد عرجت عليها فقيل لي إنه تقرر مجيئي مباشرة إلى هنا عند البروفيسور بوردي في الساعة الثانية والنصف.

قال البروفيسور بوردي وهو يومئ برأسه مؤيّداً: هذا صحيح، الثانية والنصف، ومنذ تلك اللحظة ونحن نعمل هنا و... منذ تلك اللحظة؟ يا إلهي! كان ينبغي أن أطلب الشاي. أنا آسف جداً يا آنسة ويب، أخشى أن تكوني قد افتقدت الشاي، كان عليك أن تذكّريني.

- آه، لا عليك يا أستاذ بوردي، لا عليك إطلاقاً.

- هذا إهمال شديد مني، إهمال شديد... ولكن لا بأس، يجب أن لا أقاطعكما ما دام المفتش يريد أن يوجّه إليك بعض الأسئلة.

قال لها هاردكاسل: إذن فأنت لا تدرين بما حدث لإدنا برنت، أليس كذلك؟

قالت شيلا بحدّة: حدث لها!

أخذ صوتها يعلو وهي تقول: ما حدث لها؟ ماذا تعني؟! هل تعرضت لحادث أو أي شيء؟ هل صدمتها سيارة؟

تدخل البروفيسور قائلاً: خطيرة جداً كل هذه السرعة التي ينطلقون بها في الطرق!

قال هاردكاسل: نعم، لقد حدث لها شيء.

وسكت برهة ثم عاد ليقول بصوت قاسٍ: لقد خُنِقت وقُتلت قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف في كشك للهاتف.

قال البروفيسور مُبدياً اهتماماً بالموضوع: في كشك هاتف!

أما شيلا فلم تتفوه بأي شيء، بل حملقت إليه بفم مفتوح قليلاً وعينين متسعتين، وقال هاردكاسل لنفسه: إما أنك تسمعين بذلك لأول مرة أو أنك ممثلة ملعونة بارعة!

صاح البروفيسور: يا إلهي، يا إلهي! خُنِقت في كشك للهاتف! يبدو هذا استثنائياً جداً بالنسبة لي. ما كنت لأختار مثل هذا المكان شخصياً... أعني إذا كنت سأفعل ذلك! لا، بالتأكيد لا. يا للفتاة المسكينة! أمر مؤسف للغاية.

قالت شيلا: إدنا قُتلت! ولكن لماذا؟

- هل علمتِ يا آنسة ويب أن إدنا برنت كانت متلهّفة جداً لرؤيتك أمس الأول وأنها جاءت إلى بيت خالتك وانتظرت عودتك لفترة من الزمن؟

قال البروفيسور معترفاً بالذنب: هذا ذنبي أنا من جديد؛ أنا الذي أبقيت الآنسة ويب حتى وقت متأخر تلك الليلة. لقد تأخرَت

جداً بالتأكيد. ما زلت أشعر حقاً بالأسف الشديد لذلك. يجب عليكِ أن تذكّريني دائماً يا عزيزتي، يجب عليك هذا حقاً.

قالت شيلا: لقد أخبرَتني خالتي بذلك، ولكنني لم أتصور أنه شيء ذو أهمية خاصة، فهل كان الأمر كذلك؟ هل كانت إدنا برنت تعاني من مشكلة من أي نوع؟

قال المفتش: لا نعلم، وقد لا نعلم أبداً ما لم تخبرينا أنت.

- أنا أخبركم! وكيف لي أن أعرف؟!

- ربما كانت لديك فكرة ما بشأن ما كانت إدنا تريد رؤيتك من أجله.

هزّت رأسها بالنفي قائلة: ليست لديّ أية فكرة إطلاقاً.

- ألم تلمّح لك بأي شيء أو تكلمك في المكتب قط حول طبيعة المشكلة أياً كانت؟

- لم تفعل بالتأكيد؛ لم تكن قد فعلت لأنني لم أكن موجودة في المكتب نهائياً يوم أمس؛ كان عليّ الذهاب إلى لانديسبي لخدمة أحد مؤلفينا طوال اليوم.

- ألم تشعري أنها كانت قلقة مؤخراً؟

- حسناً، إدنا تبدو قلقة أو متحيرة دائماً، كانت ذات ذهن... ماذا عساي أقول؟ كانت من النوع المتردد، أعني أنها لم تكن قط واثقة تماماً إن كان ما تنوي القيام به صحيحاً أم غير صحيح. لقد أسقطَت صفحتين كاملتين عند طباعة كتاب آرماند ليفين ذات مرة، وكانت قلقة بشدة بشأن ما ستفعله في حينها لأنها كانت قد أرسلَته إليه قبل أن تدرك ما حدث.

- فهمت. هل سألت أياً منكنّ النصيحة حول ما ينبغي عمله في هذا الصدد؟

- نعم، وقد قلت إن الأفضل لها أن تبعث له بإشارة عاجلة لأن الناس لا يبدؤون دائماً بمراجعة ما طُبع لهم على الفور لتصحيحه. كان يمكنها أن تكتب وتبين له ما حدث وأن تطلب منه أن لا يشكوها إلى الآنسة مارتنديل، لكنها ردّت قائلة إنها لم تكن تريد القيام بذلك.

- هل كانت تأتي عادة وتطلب النصيحة عندما تبرز إحدى هذه المشكلات؟

- آه، نعم، دائماً. غير أن المشكلة طبعاً كانت تكمن في أننا لم نكُن نتفق دائماً حول ما كان ينبغي عليها القيام به، وبعد ذلك تقع في الحيرة من جديد.

- وهكذا فمن الطبيعي أنها ستأتي إلى واحدة منكن إذا كانت لديها مشكلة، فهل كان ذلك يحدث كثيراً؟

- نعم، نعم، لقد حدث هذا.

- ألا تعتقدين أنه كان شيئاً أكثر خطورة هذه المرة؟

- لا أعتقد ذلك، فمن أي نوع يمكن أن يكون ذلك الشيء الخطير؟

تساءل المفتش مع نفسه إن كانت شيلا ويب مطمئنّة البال تماماً كما تحاول أن تبدو، وتابعت كلامها لاهثة ومتحدثة بسرعة أكبر قائلة: لا أعرف ما كانت تريد أن تحدثني عنه، ليست لدي فكرة، وبالتأكيد لا أستطيع تصور السبب في ذهابها إلى بيت خالتي

لتتحدث إليّ هناك.

- ألا يمكن أن يكون شيئاً لم تُرِد الخوض فيه معك في مكتب كافنديش أمام الفتيات الأخريات مثلاً؟ ربما كان شيئاً تشعر بوجوب بقائه سراً بينك وبينها، أيمكن أن يكون الأمر كذلك؟

- أظن أن هذا غير محتمَل، بل أنا متأكدة من أن الأمر ليس كذلك إطلاقاً.

وتسارعت أنفاسها فقال: إذن فليس بإمكانك أن تساعديني يا آنسة ويب.

- لا، أنا متأسفة، متأسفة جداً بخصوص إدنا، لكنني لا أعرف أي شيء يمكنني مساعدتك به.

- أما من شيء قد تكون له صلة أو ارتباط بما حدث في التاسع من أيلول؟

- هل تعني... هل تعني ذلك الرجل... ذلك الرجل في هلال ولبراهام؟

- نعم.

- كيف يمكن ذلك؟ ما الذي كان يمكن أن تعرفه إدنا عن ذلك؟

- قد لا يكون شيئاً مهماً جداً، لكنه شيء ما، وأي شيء يمكن أن ينفع، أي شيء مهما كان صغيراً.

وتوقف قليلاً ثم أردف يقول: لقد كان كشك الهاتف الذي قُتلت فيه إدنا في هلال ولبراهام، فهل يوحي هذا بأي شيء لك آنسة ويب؟

- لا شيء إطلاقاً.

- هل كنتِ أنت بالذات في هلال ولبراهام اليوم؟

ردّت عليه بقوة قائلة: لا، لم أكن هناك، لم أذهب إلى هناك اليوم قط؛ لقد بدأتُ أشعر أنه مكان مرعب! أتمنى لو أنني لم أذهب هناك قط، أتمنى لو أنني لم أتورط في هذا كله! لماذا أرسلوا في طلبي؟ لماذا يطلبونني أنا بالذات في ذلك اليوم؟! لماذا كان يجب أن تُقتَل إدنا قرب ذلك المكان؟! يجب عليك أن تكتشف ذلك يا حضرة المفتش... يجب، يجب.

- نحن نسعى إلى اكتشاف ذلك يا آنسة ويب.

قال المفتش ذلك، ثم أردف قائلاً بشيء قليل من العدوانية في صوته: يمكنني أن أؤكد لك ذلك.

* * *

الفصل العشرون
(برواية كولن لامب)

قدمتُ تقريراً للكولونيل بيك فور وصولي إلى لندن، فقال مستنتجاً: ربما كان في فكرتك الجنونية المتعلقة بالهلال شيء ما على أية حال.

- لقد اكتشفتَ شيئاً أخيراً، أليس كذلك؟

- لن أذهب إلى هذا الحد، ولكنني أقول فقط إنك قد تكون فعلت؛ فمهندسنا الإنشائي السيد رامزي الساكن في رقم ٦٢ هلال ولبراهام ليس تماماً كما يبدو في الظاهر، فقد كُلف بمهام غامضة مؤخراً، شركات حقيقية لكنها بلا خلفية تاريخية مهمة وتاريخها غامض قليلاً. لقد سافر رامزي إلى رومانيا قبل خمسة أسابيع إثر إشعار فوري.

- ليس هذا هو ما قاله لزوجته.

- قد لا يكون كذلك، ولكن ذلك هو المكان الذي سافر إليه، وهو هناك الآن ونودّ معرفة المزيد عنه. وهكذا يمكنك أن تبدأ عملك يا فتى وتستعد للذهاب. لقد أعددتُ لك كل التأشيرات وجوازَ سفر جميلاً جديداً، وسيكون اسمك هذه المرة نايغل ترنش.

أنعش معلوماتك عن النباتات النادرة في البلقان فأنت عالِم نبات!

- هل من تعليمات خاصة؟

- لا، سنزودك بمصدر معلوماتك عندما تستلم أوراقك. اجمع من المعلومات ما يمكنك عن السيد رامزي.

ثم نظر إليّ بإمعان وقال: لا تبدو مسروراً كما توقعت؟

وحدق من خلال دخان لفافته، فقلت له مراوغاً: شيء مفرح دائماً أن يأتي حدس ما بنتيجة.

- هلال صحيح ورقم دار خاطئ. الرقم ٦١ يشغله معماري بريء تماماً، بريء حسب مفهومنا ليس إلاّ. مسكين هانبري العجوز؛ أخطأ في الرقم لكنه لم يكن بعيداً جداً.

- هل دققتم في الآخرين أم في رامزي فقط؟

- «ديانا لودج» يبدو في مثل نقاء القمر وله تاريخ طويل في القطط. ماك لوتن مثير بشكل غامض؛ فهو أستاذ رياضيات متقاعد وذكي جداً، وكما يبدو فقد استقال من منصبه بشكل مفاجئ بحجة اعتلال صحته. من الممكن أن يكون هذا صحيحاً، لكنه يبدو قوياً ومعافى تماماً، ويبدو أنه أبعد نفسه عن جميع أصدقائه القدامى، وهذا أمر غريب.

قلت: تكمن المشكلة في أن تفكيرنا يصل بنا إلى أن نشكّ في أي شخص مهما عمل.

- قد يكون في قولك شيء من الصواب؛ ففي بعض الأحيان أشك فيك يا كولن، أشك في أن تكون قد تحولتَ إلى الجانب الآخر! وفي بعض الأحيان أشك في نفسي أن أكون تحولت إلى

الجانب الآخر ثم عدت بعد ذلك فتحولت إلى هذا الجانب... ويا لهذا كله من مزيج مسلّ جداً!

* * *

كان موعد طائرتي هو العاشرة مساء، فذهبت لزيارة هيركيول بوارو قبل سفري. قال: تبدو حزيناً؟

- لا، أبداً، أنا مسافر إلى الخارج فحسب.

ونظر إليّ فأومأت برأسي، فقال: إذن فالمسألة بهذا الشكل؟

- أجل، هي كذلك.

- أرجو لك كل التوفيق.

- شكراً لك. وماذا عنك؟ ماذا تصنع بواجبك المنزلي؟

- عفواً، ماذا تقصد؟

- ماذا عن جريمة ساعات كراودن؟ هل استلقيت إلى الوراء وأطبقت جفنيك وتوصلت إلى جميع الأجوبة؟

- لقد قرأت ما تركتَه هنا باهتمام كبير.

- لم يكن فيه الكثير، أليس كذلك؟ لقد قلتُ لك إن أولئك الجيران لم يكونوا سوى خيبة أمل.

- بل على العكس؛ في حالتين على الأقل أبدى بعض الناس ملاحظات مضيئة جداً.

- أي منهم؟ وماذا كانت الملاحظات؟

أخبرني بوارو بأسلوب عصبي بأن عليّ قراءة ملاحظاتي بعناية

ثم قال: عندئذ سترى بنفسك أنها واضحة للعيان. ما ينبغي عمله الآن هو التحدث إلى المزيد من الجيران.

- لا يوجد المزيد منهم.

- لا بد من وجود المزيد، لا بد أن شخصاً ما قد لاحظ شيئاً، هذه مسألة بديهية.

- قد تكون بديهية، ولكنها ليست كذلك في هذه القضية. لديّ تفصيلات أخرى لك، فقد حدثت جريمة قتل أخرى.

- حقاً؟ بهذه السرعة؟! هذا مثير للاهتمام. أخبرني.

حكيت له، وسألني بشكل دقيق إلى أن حصل مني على كل مفردة من التفصيلات، وأخبرته أيضاً عن البطاقة البريدية التي أعطيتها لهاردكاسل وقلت: أتذكّر أنه كان مكتوباً عليها «٤١٣»، أو «الرابعة وثلاث عشرة دقيقة» حسبما فهمنا.

قال: نعم، إنها من نفس النمط.

- ماذا تعني بذلك؟

أغمض بوارو عينيه وقال: ينقص تلك البطاقةَ البريدية شيءٌ واحد فقط؛ بصمة إبهام مغموس في الدم.

فنظرت إلية بريبة وقلت: ما الذي تعتقده بشأن هذه القضية؟

- إنها تزداد وضوحاً كالعادة.

- ولكن من يكون القاتل؟

وبطريقة ماكرة لم يُجِب بوارو على ذلك، ثم قال: أتسمح لي خلال فترة غيابك بأن أقوم ببعض التحريات؟

- مثل ماذا؟

- غداً سأكلف الآنسة ليمون بكتابة رسالة إلى محام صديق لي، السيد أندربي، وسأطلب منها أن تراجع سجلات وقائع الزواج في سومرست هاوس، وستقوم أيضاً بإرسال برقية لخارج البلاد.

قلت محتجّاً: أنا لست واثقاً من عدالة ذلك؛ فأنت لست جالساً تفكر فحسب.

- هذا هو بالضبط ما أفعله؛ فما ستفعله الآنسة ليمون هو التحقق من الإجابات التي توصلتُ إليها حتى الآن. لا أطلب المعلومات، ولكن أطلب التأكد منها.

- لا أصدق أنك تعرف شيئاً يا بوارو، كل هذا خداع؛ على الأقل لم يعرف أحدٌ شخصية الرجل الميت بعد؟

- أنا أعرف.

- ما اسمه؟

- لا أعرف، فاسمه ليس مهماً. أنا أعرف ماذا يكون لا مَن هو... إن كان باستطاعتك فهم ذلك.

- أحد المبتزّين؟

أغمض بوارو عينيه، ثم فتحهما وقال: سأقول لك عبارة صغيرة مقتبَسة من أحد كتبكم المعروفة، وبعد ذلك لن أقول المزيد.

ثم راح يترنم وهو في ذروة الوقار: «أيها الرجل المشهور، تعالَ لتُقتَل»!

* * *

الفصل الحادي والعشرون

نظر المفتش هاردكاسل إلى التقويم الموجود على مكتبه والذي كان يشير إلى العشرين من أيلول (سبتمبر). لقد مرت عشرة أيام ولم يحقق من التقدم بقدر ما يرغب لأن صعوبة أولية أعاقته، وهي التعرف على القتيل. لقد استغرق الأمر أكثر مما قدّر له، وقد تلاشت الأدلة أو فشلت، ولم يُسفر الفحص المخبري على الملابس عن أي شيء مفيد، والملابس نفسها لم تقدم أية أدلة؛ كانت ملابس من نوعية جيدة ولم تكن جديدة ولكن معتنى بها جيداً. ولم يقدم أطباء الأسنان ولا المصابغ ولا محال التنظيف أي مساعدة، وهكذا بقي الرجل الميت لغزاً! ومع ذلك فقد شعر هاردكاسل بأن الرجل ليس لغزاً، فما من شيء فيه مميز أو مثير، بل كان مجرد رجل لم يتمكن أحد من التعرف عليه، وقد كان هاردكاسل متأكداً من أن ذلك هو سر المسألة.

تنهد هاردكاسل عندما فكر في المكالمات الهاتفية والرسائل التي انهالت على الشرطة بعد نشر الصورة في الصحف العامة مع تعليق تحتها يقول: «هل تعرف هذا الرجل؟»، وكان عدد الأشخاص الذين ظنوا أنهم يعرفون الرجل مذهلاً: بنات كتبن بأمل كاذب عن الآباء الذين حُرمن منهم لسنوات طويلة، وامرأة في التسعين كانت واثقة من أن الصورة موضع السؤال هي لابنها الذي ترك البيت قبل

ثلاثين سنة، وعدد لا حصر له من الزوجات اللائي كن واثقات من أنه هو الزوج المفقود... أما الأخوات فلم يكنّ متشوقات تماماً للتعرف على الإخوة، فربما كانت الأخوات هن الأقل أملاً. وبالطبع كان عدد كبير من الأشخاص قد شاهدوا ذلك الرجل بعينه في نيوكاسل وديفون ولندن، وفي قطار أنفاق أو في حافلة، يختبئ على رصيف بحري، يبدو شريراً واقفاً على إحدى نواصي الطرقات أو يسعى لإخفاء وجهه عند خروجه من دار عرض... مئات الخيوط التي لم تُفضِ إلى شيء بعد اتّباع أكثرها احتمالاً.

أما في ذلك اليوم فقد كان المفتش يشعر بالتفاؤل قليلاً، ونظر ثانية إلى رسالة كانت على مكتبه مكتوب عليها «مرلينا رايفل». لم يحب الاسم الأول كثيراً؛ فما من عاقل في رأيه يمكن أن يسمي طفلة باسم «مرلينا»، لا شك أنه اسم خيالي تبنته السيدة نفسها. لكنه أُعجب بأسلوب الرسالة لأنها لم تكن مسرفة ولا واثقة أكثر من اللزوم؛ كانت تقول ببساطة بأن الكاتبة تعتقد أن الرجل موضع البحث يمكن أن يكون زوجها الذي فارقته قبل سنوات عديدة. كان حضورها متوقعاً ذلك الصباح، فضغط زر المنبه ليدخل العريف كراي. سأله هاردكاسل قائلاً: ألم تحضر السيدة رايفل تلك بعد؟

- لقد وصلت لتوّها، وكنت قادماً لأخبرك.

- كيف تبدو؟

فقال كراي بعد أن فكر قليلاً: تبدو بمظهر مسرحي بعض الشيء، عليها الكثير من الزينة، زينة ليست من النوع الجيد، لكنها عموماً تبدو امرأة موضع ثقة لدرجة لا بأس بها، هكذا يمكنني القول.

- هل تبدو منزعجة؟

- لا، ليس بشكل ملحوظ.

- حسناً، دعها تدخل.

خرج كراي، ثم عاد ليقول: السيدة رايفل يا سيدي.

نهض المفتش وصافحها. كانت تناهز الخمسين حسب تقديره لكنها قد تبدو في الثلاثين من مسافة بعيدة، أما عن كثب فالزينة التي وضعتها بلا اعتناء جعلتها تبدو فوق الخمسين. كان شعرها قاتماً مصبوغاً، وكانت متوسطة الطول ولا تضع قبعة وترتدي معطفاً بلون قاتم وتحمل حقيبة كبيرة وترتدي سواراً رنّاناً وعدداً من الخواتم. أصدر حكمه الأخلاقي على أساس خبرته بشكل سريع فقال لنفسه: إنها امرأة طيبة على الأرجح، وربما كانت رقيقة... ولكن هل يمكن الاعتماد عليها؟ هذا هو المهم.

ما كان ليراهن على ذلك، ولكنه -على أية حال- ما كان ليتحمل المراهنة على هذا النوع من الأمور بأي شكل. قال لها: يسرني اللقاء بك يا سيدة رايفل، وآمل أن تتمكني من مساعدتنا.

قالت السيدة رايفل بلهجة معتذرة: بالطبع لست واثقة كلياً، لكن الصورة كانت تشبه هاري فعلاً، تشبه هاري كثيراً جداً، وأنا مستعدة تماماً لتقبل أنها ليست كذلك، وآمل أن لا أكون قد ضيعت وقتكم هباء.

بدت معتذرة بشأن الموضوع، فقال المفتش: يجب أن لا تشعري هكذا بأي شكل؛ فنحن في حاجة ماسة لأي عون في هذه القضية.

- أجل، فهمت، آمل أن أستطيع التأكد. لقد مضى زمن طويل منذ رأيته آخر مرة.

- أتسمحين باستعراض بعض الحقائق لتساعدنا؟ متى كانت آخر مرة رأيتِ فيها زوجك؟

قالت السيدة رايفل: لقد كنت أحاول أن أتذكر ذلك بدقة طوال الطريق وأنا في القطار. غريب أن ذاكرة المرء تخونه عند الحاجة! أعتقد أنني ذكرت لك في رسالتي أن ذلك كان قبل نحو عشرة أعوام، لكنها أكثر من ذلك. هل تعلم؟ أعتقد أنها تقارب خمسة عشر عاماً. تجري السنون بسرعة!

ثم أضافت بدهاء: لعل المرء يميل إلى الاعتقاد بأنها أقل مما هي لأنها تجعله يشعر بأنه أصغر سناً. ألا تعتقد ذلك؟

- نعم. على أية حال أنت تعتقدين أنك رأيتِهِ آخر مرة قبل خمسة عشر عاماً تقريباً، فمتى تزوجتما؟

- قبل ذلك بثلاثة أعوام تقريباً.

- وأين كنتما تعيشان؟

- في منطقة تُدعى شيبتون بوا في سافولك، وهي مدينة تجارية صغيرة جميلة نوعاً ما.

- وماذا كان عمل زوجك؟

- كان وكيل تأمين، على الأقل...

أوقفت نفسها ثم عاودت الكلام قائلة: هذا هو ما كان يقوله.

رفع المفتش نظره إلى أعلى بحدة وقال: وهل اكتشفت أن

ذلك لم يكن صحيحاً؟

- حسناً، لا، ليس بالضبط، ليس عندئذ، لكن منذ ذلك الوقت بدأت أشك في أن الأمر ليس صحيحاً. من السهل على الرجل أن يقول ذلك، أليس كذلك؟

- أعتقد أن هذا ممكن في ظروف معينة.

- أعني أن ذلك يمنح الرجل عذراً ليغيب عن البيت لفترة طويلة.

- هل كان زوجك يغيب عن البيت فترات طويلة يا سيدة رايفل؟

- نعم، ولكنني لم أفكر في ذلك كثيراً في بادئ الأمر.

- وفيما بعد؟

لم تُجِب على الفور ثم قالت: ألا يمكننا رؤيته؟ فبعد كل شيء إن لم يكن هو هاري...

تساءل عمّا كانت تفكر فيه بالضبط. كان في صوتها توتر، فهل يُحتمَل أن يكون انفعالاً؟ لم يكن متأكداً فقال: حسناً، أفهم من ذلك أنك تريدين الانتهاء من الأمر. سنذهب الآن.

نهض ورافقها عند الخروج من الغرفة باتجاه السيارة التي كانت في الانتظار. عندما بلغا وجهتهما لم يكن اضطرابها أكثر من اضطراب الأشخاص الآخرين الذين اصطحبهم إلى نفس المكان، فقال نفس العبارات المُطَمْئنة: سيكون كل شيء على ما يُرام، سيستغرق ذلك دقيقة أو اثنتين فحسب.

ثم سحب صندوق الجثة وأماط المسؤول قطعة القماش

فوقفت تحدق إلى الجثة لبضع لحظات ونفَسها يتسارع قليلاً، وصدر عنها صوت حشرجة ضعيف، ثم استدارت بسرعة وقالت: إنه هاري، نعم. لقد كبر كثيراً! يبدو أنه قد تغير، لكنه هاري.

أومأ المفتش برأسه للمسؤول، ثم وضع يده على ذراعها وأخذها خارجاً إلى السيارة وعادا إلى المركز. لم ينطق بكلمة وتركها لتستجمع نفسها، وعندما وصلا إلى غرفته دخل شرطي في الحال حاملاً صينية عليها كوب من عصير الليمون فقال لها هاردكاسل: تفضلي يا سيدة رايفل واشربي عصير الليمون؛ سيحسن حالتك وسنتحدث بعد ذلك.

- شكراً لك.

شربت العصير بسرعة ثم قالت: هكذا أفضل. الأمر لا يهمني حقيقة، فقط، فقط... حسناً، إن هذا يفاجئ المرء قليلاً، أليس كذلك؟

- هل تعتقدين أن هذا الرجل هو زوجك بالتأكيد؟

- أنا متأكدة من ذلك. لقد كبر طبعاً، لكنه لم يتغير كثيراً؛ فلطالما كان حسن المظهر أنيقاً جداً لطيفاً من طبقة راقية كما تعلم.

قال هاردكاسل لنفسه: هذا وصف جيد تماماً.

ومن المحتمَل أن هاري بدا من طبقة أفضل بكثير مما هو عليه في الواقع. بعض الرجال كانوا هكذا فعلاً، وكان هذا يعينهم كثيراً في أغراضهم الخاصة.

قالت السيدة رايفل: كان شديد الاعتناء دائماً بملابسه وبكل شيء، ولهذا السبب كن يقعن في حبه بسهولة حسبما أعتقد...

ما كان الشك ليراودهن في أي شيء بخصوصه.

- مَن هنّ اللائي وقعن في حبه يا سيدة رايفل؟

كان صوت هاردكاسل رقيقاً عطوفاً، فقالت السيدة رايفل: نساء، نساء... حيث كان يمضي أغلب وقته بعيداً.

- فهمت، ولا بد أنك علمت بذلك.

- حسناً، لقد... لقد شككت في ذلك، أعني... كان يغيب كثيراً. طبعاً كنت أعرف حقيقة الرجال، وكنت أعتقد أنه قد يكون على علاقةٍ بفتاة ما من حين لآخر، ولكن ليس من الجيد مساءلة الرجال عن هذه الأشياء فهم سيكذبون عليك وينتهي الأمر، لكنني لم أتصور حقاً أنه اتخذ من ذلك مهنة.

- وهل فعل ذلك؟!

أومأت برأسها وقالت: أعتقد أنه قام بذلك بالفعل.

- وكيف اكتشفتِ الأمر؟

هزّت كتفيها وقالت: لقد عاد في أحد الأيام من إحدى رحلاته (وكانت إلى نيوكاسل كما قال على أية حال)، عاد وقال إن عليه الرحيل بسرعة قائلاً إن اللعبة قد انتهت. كان قد أوقع امرأة في مشكلة، معلّمة في مدرسة كما قال، وربما تسبب ذلك في نوع من الفضيحة. سألته بعض الأسئلة عندئذ فلم يعبأ بالإجابة. ربما كان يعتقد أني أعرف أكثر مما أعرف في الحقيقة. لقد كن يقعن في حبه بسهولة تامة كما تعلم، يقدّم لها خاتماً فيعلنان الخطوبة، وبعد ذلك يقول إنه يريد استثمار الأموال لهن، وكن يعطينه المال بأسهل ما يكون عادة.

- هل حاول الأسلوب نفسه معك؟

- لقد فعل في الحقيقة، لكنني لم أُعطِه شيئاً.

- ولم لا؟ ألم تكوني تثقين فيه عندئذ؟

- حسناً، لم أكن من النوع الذي يثق بأي شخص. كان عندي ما يمكنك أن تسميه قليلاً من التجرِبة عن الرجال وأساليبهم والجانب الأسوأ من الأشياء. على أية حال لم أرغب في أن يقوم باستثمار أموالي لأجلي؛ كان بإمكاني استثمار أموالي بنفسي.

ثم أضافت بلهجة قوية: احتفظ بنقودك دائماً بين يديك، وعندها ستطمئنّ إلى أنك تحوزها. لقد رأيت كثيراً من الفتيات والنساء يجعلن من أنفسهن أضحوكة.

- متى عرض عليك استثمار النقود؟ قبل زواجكما أم بعده؟

- أظن أنه اقترح شيئاً من هذا القبيل مسبقاً، ولكنني لم أستجِب فقام بتغيير الموضوع فوراً، ثم أخبرني بعد زواجنا عن فرصة رائعة عُرضت له فقلت له: "لا يمكنني تلبية طلبك". لم يكن ذلك لأني لم أكن أثق فيه فحسب، لكنني كثيراً ما سمعت الرجال يقولون إنهم في طريقهم إلى شيء رائع ثم يتبين أنهم هم أنفسهم قد خُدعوا بطريقة ما.

- هل تعرّض زوجك إلى مشكلة مع الشرطة قط؟

- لا خوف عليه من هذه الناحية؛ فالنساء لا يُرِدن أن يعرف العالَم أنهن قد خُدعن. لكن الأمور ربما كانت مختلفة بوضوح في تلك المرة؛ فتلك الفتاة أو المرأة كانت امرأة مثقفة ولم يكن من السهل خداعها كالأخريات.

- هل كانت ستلد طفلاً؟

- نعم.

- هل حدث ذلك في مناسبات أخرى؟

- أعتقد ذلك على الأرجح. لا أعرف ما الذي كان يدفعه للقيام بذلك في المقام الأول. هل هو المال وحده كطريقة لكسب العيش، أم تُراه كان من ذلك النوع الذي ينبغي أن تكون له نساء ولم يكن يرى سبباً في أن لا يدفعن تكاليف متعته؟

ولم تعُد في صوتها مرارة في ذلك الوقت، فقال هاردكاسل بلطف: هل كنتِ مغرَمة به يا سيدة رايفل؟

- لا أدري؛ بصدق لا أدري! أعتقد أنني كنت كذلك بشكل أو بآخر، وإلا لما كنت تزوجته.

- عذراً، هل كنت متزوجة به؟

- حتى هذا لست متأكدة منه!

واصلت السيدة رايفل كلامها الصريح قائلة: لقد كنا متزوجَين حسب الأصول، لكنني لا أعرف إن كان قد تزوج نساء أخريات أيضاً مستخدماً اسماً آخر مثلاً. لقد كان اسمه كاسلتون عندما تزوجتُه، ولا أعتقد أن ذلك كان اسمه الحقيقي.

- هاري كاسلتون، هل هذا صحيح؟

- نعم.

- لقد عشتما في ذلك المكان، شيبتون بوا، كزوج وزوجة. فكم دام ذلك؟

- عشنا هناك لمدة عامين، وقبل ذلك سكنّا على مقربة من دونكاستر، ولا أقول إني دهشت حقاً عندما عاد ذلك اليوم وأخبرني؛ أعتقد أنني كنت أعلم لفترة من الزمن بأنه شخص مزيف. المرء لا يستطيع أن يصدق ذلك حقاً لأنه كان يبدو دائماً محترَماً جداً كما ترى، سيداً محترَماً بالمعنى الكامل.

- وماذا حدث بعدئذ؟

- قال إن عليه أن يغادر بسرعة، فقلت له إنه يستطيع الذهاب وإن في ذلك خلاصي وإني لن أحتمل أكثر من ذلك. بل لقد أعطيته عشرة جنيهات كانت كل ما عندي في البيت، فقد قال إنه في حاجة إلى النقود. ولم أرَه أو أسمع عنه بعد ذلك قط حتى هذا اليوم، أو بالأحرى حتى رأيت صورته في الجريدة.

- ألم تكن له علامات مميزة خاصة، كندبة أو عملية جراحية أو كسر، أو أي شيء من هذا القبيل؟

هزّت رأسها بالنفي قائلة: لا أظن ذلك.

- هل استخدم اسم كاري قط؟

- كاري؟ لا، لا أظن ذلك، ليس على حد علمي على أية حال.

دفع هاردكاسل بالبطاقة نحوها على المنضدة وقال: وجدنا هذه في جيبه.

- ما زال يدّعي أنه وكيل تأمين كما أرى؟

أبدت هذه الملاحظةَ ثم أردفت قائلة: أظن أنه يستخدم... أقصد أنه استخدم... أعني كل الأسماء المختلفة.

- هل قلتِ إنك لم تسمعي عنه شيئاً منذ خمس عشرة سنة؟

- لم يبعث لي أي بطاقة إن كان ذلك ما تقصده.

قالت ذلك مع ومضة مفاجئة من الفكاهة، ثم أردفت قائلة: ولا أعتقد أنه كان يعرف أين أكون على أية حال، فقد عدت إلى المسرح بعد افتراقنا بفترة وجيزة، وغالباً ما كنا نتنقل في العمل. لم تكن حياة مريحة. لقد أسقطت اسم كاسلتون أيضاً وعدت إلى اسم مرلينا رايفل.

- مرلينا ليس اسمك الحقيقي كما أظن؟

هزّت رأسها ولاحت على وجهها ابتسامة خفيفة مرحة وقالت: لقد فكرت فيه ملياً، لم يكن اسماً معتاداً. اسمي الحقيق هو فلوسي غاب، فلورنس، ولكن الجميع ينادونني دائماً بفلوسي أو فلو. فلوسي غاب ليس اسماً سلساً جداً، أليس كذلك؟

- وماذا تعملين الآن؟ أما زلت تمثّلين يا سيدة رايفل؟

قالت بشيء من التحفظ: أحياناً. أعمل وأتعطل... يمكنك أن تقول هذا.

كان هاردكاسل ماهراً فقال: مفهوم.

- وأقوم بأعمال أخرى هنا وهناك: أساعد في الحفلات... مثل تلك الأمور. ليست حياة رديئة، وعلى أي حال فهي تجعلني ألتقي بالناس. حياة صعبة، وأشياء تسرّي عن النفس بين الحين والآخر.

- ألم تسمعي شيئاً من هاري كاسلتون أو عنه منذ افترقتما؟

- ولا كلمة، لقد ظننت أنه ربما سافر إلى الخارج أو أنه قد مات.

- الشيء الآخر الوحيد الذي يمكنني أن أسألك إياه يا سيدة رايفل هو إن كانت لديك أية فكرة عن سبب مجيء هاري كاسلتون إلى هذا الجوار.

- بالطبع ليست عندي فكرة، حتى إنني لا أعرف ما الذي كان يفعله طوال تلك السنوات.

- أيكون من المحتمَل أنه كان يبيع التأمين الكاذب أو شيئاً من ذلك النوع؟

- فعلاً أنا لا أعرف، ولا يبدو هذا محتمَلاً جداً في نظري. أعني أن هاري كان دائماً شديد الحرص على نفسه، فهو لن يتورط في عمل يحاسبه عليه القانون، وأغلب ظني أن ابتزاز النساء هو الأرجح.

- هل تعتقدين أن ذلك قد يكون نوعاً من الابتزاز يا سيدة رايفل؟

- لا أدري. ربما كان كذلك بطريقة ما... قد تكون امرأة في ماضيها شيء لا تريد أن يُنبَش، وعندئذ سيشعر بالأمان التام كما أظن. لا أقول إن الأمر كذلك بل أقول إنه قد يكون كذلك. ولا أظن أنه كان سيطلب الكثير من النقود، فهو قد يكتفي بجمع مبلغ صغير.

- كانت جذّاباً للنساء، أليس كذلك؟

- بلى، كنّ دائماً يقعن في حبه بسهولة؛ بصورة رئيسية لأنه كان دائماً يبدو من طبقة راقية ومحترَماً كما أعتقد. كنّ يمنّين أنفسهن بمستقبل جميل وآمن... هذا هو أقرب سبيل أستطيع التعبير به عن ذلك. أنا شخصياً شعرت بنفس الشعور.

- توجد نقطة أخرى صغيرة.

التفت موجّهاً كلامه إلى مساعده قائلاً: هلاّ جئتَ بتلك الساعات إلى هنا؟

جيء بالساعات على صينية مغطاة بقطعة قماش رفعها هاردكاسل فكشف الساعات أمام نظرها، فدقّقت باهتمام صريح صادق ولمست الساعة المذهبة وقالت: ساعات جميلة، أليس كذلك؟ تعجبني هذه.

- ألم تشاهدي أياً منها من قبل؟ ألا تعني شيئاً بالنسبة لك؟

- لا يمكنني ادّعاء ذلك.

- هل تخطر ببالك أية علاقة بين زوجك واسم روزماري؟

- روزماري؟ دعني أفكر. أتذكّر امرأة ذات رأس أحمر و... لا، لقد كان اسمها روزالي. أخشى أنني لا أستطيع التفكير في أي شخص؛ فقد كان هاري يُبقي شؤونه في طيّ الكتمان.

- لو أنك رأيت ساعة تشير عقاربها إلى الرابعة وثلاث عشرة دقيقة...

أحجم هاردكاسل عن الكلام فأرسلت السيدة رايفل ضحكة خافتة قائلة: لكنت اعتقدت أنه وقت مناسب لتناول الغداء.

تنهد هاردكاسل وقال: حسناً يا سيدة رايفل؛ نحن نشعر بالامتنان الشديد لك. جلسة التحقيق المؤجّلة ستُجرى بعد غد كما أخبرتك. لن ترفضي الإدلاء بشهادة، أليس كذلك؟

- لا بأس بذلك، فكل ما عليّ هو أن أعلن من يكون كما أظن. لن أكون مضطرة للخوض في التفصيلات ولن أخوض في

أسلوب حياته أو أي شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

- لن يكون هذا ضرورياً في الوقت الحاضر. كل ما عليكِ هو أن تؤكّدي أنه هاري كاسلتون الذي كنت متزوجة به، وسيكون تاريخ الزواج مقيداً في سومرست هاوس. أين تزوجتما؟ هل يمكنك تذكر ذلك؟

- في مكان يُدعى دونبروك. آمل أن لا يكون ذلك قبل أكثر من عشرين سنة، فهذا سيجعلني أشعر بأن إحدى قدميّ في القبر!

نهضت ومدّت يدها، فودعها هاردكاسل ثم عاد ليجلس بجوار مكتبه يدقّ عليه بقلمه، ودخل العريف كراي في الحال فسأله: هل كان الأمر مرضياً؟

- يبدو كذلك. الاسم هاري كاسلتون قد يكون مستعاراً. علينا أن نفكر فيما يمكننا معرفته عن الرجل، يبدو محتمَلاً أن أكثر من امرأة لديها المبرر للانتقام منه.

قال كراي: لكنه يبدو محترَماً جداً!

فردّ عليه هاردكاسل قائلاً: يبدو أن هذه هي بضاعته التي يتاجر بها.

ثم عاد ليفكر في الساعة التي كان مكتوباً عليها «روزماري، للذكرى»!

* * *

الفصل الثاني والعشرون
(برواية كولن لامب)

قال هيركيول بوارو: إذن فقد عدتَ؟

ووضع المؤشر بعناية لكي يحدد موضعه في الكتاب الذي كان يقرؤه. هذه المرة كان كوبٌ من الكاكاو الساخن موضوعاً على الطاولة قريباً منه. كان لبوارو أسوأ ذوق في الأشربة بالتأكيد، إذ لم يشجّعني على مشاركته ولو مرة واحدة. سألته: كيف حالك؟

- منزعج، منزعج جداً؛ إنهم يقومون بالترميمات وإعادة الزخرفة وبتعديل في بناء هذه الشقق.

- أليس هذا من أجل تحسينها؟

- سوف يحسّنها هذا، بلى، ولكنه سيكون بغيضاً جداً بالنسبة لي إذ يتوجب عليّ أن أعيد ترتيب أموري، كما أن رائحة الأصباغ ستملأ الجو.

نظر إليّ وقد بدت عليه ملامح الغضب الشديد، ثم سألني وهو يصرف متاعبه بإشارة من يده قائلاً: لقد حققت نجاحاً، أليس كذلك؟

قلت بتمهّل: لا أدري.

- آه، هكذا إذن.

- لقد اكتشفتُ ما أُرسلتُ لاكتشافه، لكني لم أجد الرجل نفسه. أنا بالذات لا أعلم إن كان المطلوب معلومات أم جثة!

- بمناسبة ذكر الجثث، لقد قرأت التقرير المتعلق بالتحقيق المؤجل في كراودن. إنها جريمة متعمَّدة من قِبَل شخص أو أشخاص مجهولين، وقد تم التعرف على الجثة أخيراً.

أومأتُ برأسي قائلاً: هاري كاسلتون... كائناً من كان.

- لقد تعرفَت عليه زوجته. هل ذهبتَ إلى كراودن؟

- ليس بعد، فكرتُ في الذهاب إلى هناك غداً.

- آه، أنت تقضي إجازة إذن، أليس كذلك؟

- ليس بعد، فما زلتُ في العمل، وعملي يأخذني إلى هناك.

أحجمتُ لحظة عن الكلام ثم قلت: لا أعرف الكثير عمّا كان يجري في أثناء وجودي في الخارج، عرفت فقط بأمر التعرف على الميت. ما رأيك في ذلك؟

هزّ بوارو كتفيه قائلاً: كان هذا متوقَّعاً.

- أجل، فالشرطة ماهرون.

- والزوجات كريمات جداً.

- السيدة مرلينا رايفل؟ يا له من اسم!

قال بوارو: إنه يذكّرني بشيء. ما الذي يذكرني به؟

ثم نظر إليّ متأملاً، لكنني لم أكن قادراً على مساعدته.

ولمعرفتي ببوارو فقد كنت أعلم أن ذلك قد يكون ذكّره بأي شيء! وراح بوارو يتمتم مع نفسه قائلاً: زيارة صديق في بيت ريفي...

ثم هزّ رأسه وقال: لا، كان ذلك منذ زمن بعيد.

فوعدته قائلاً: عندما أعود إلى لندن سآتي وأخبرك بكل ما أحصل عليه من هاردكاسل حول السيدة مرلينا رايفل، أعدك بذلك.

لوّح بوارو بإحدى يديه قائلاً: هذا ليس ضرورياً.

- هل تعني أنك تعرف كل شيء عنها حالياً دون أن يخبرك أحد؟

- لا، بل أعني أنني لست مهتماً بها.

قلت مستغرباً: لستَ مهتماً! ولكن لماذا؟ لا أفهم.

- على المرء أن يركز على الأساسيات. أخبرني بدلاً من ذلك عن الفتاة المدعوة إدنا التي ماتت في كشك الهاتف ذاك.

- لا يمكنني أن أخبرك أكثر مما أخبرتك به حتى الآن، فأنا لا أعرف شيئاً عنها.

قال بوارو متّهِماً: أهو كل ما تعرف أم أن كل ما تستطيع أن تخبرني به هو أن الفتاة كانت أرنباً صغيراً مسكيناً التقيتَ به في مكتب للطباعة حيث كان كعب حذائها قد انخلع بمشبك حديدي؟

وفجأة قطع كلامه وسأل: أين كان ذلك المشبك الحديدي بالمناسبة؟

- حقاً يا بوارو! كيف لي أن أعرف؟

- كان بمقدورك أن تعرف لو كنتَ سألت. كيف تتوقع معرفة أي شيء إن لم تسأل الأسئلة المناسبة؟

- ولكن فيمَ يهمّ أين انخلع الكعب؟!

- قد لا يهم، ومن الناحية الأخرى علينا أن نعرف النقطة المعينة حيث كانت الفتاة، فهذا قد يرتبط بشخص قابلَته هناك أو بحادثة من نوع ما وقعَت هناك.

- لقد صرتَ خيالياً جداً! على أية حال أعرف أنه كان قريباً من المكتب لأنها هي التي قالت ذلك، وقالت إنها اشترت كعكتين وعادت تعرج على قدمها وهي ترتدي جوربها لتأكل الكعكة في المكتب، واختتمت متسائلة كيف يمكنها الوصول إلى البيت وهي في تلك الحالة.

- آه، وكيف وصلت إلى البيت؟

سأل بوارو هذا السؤال مستمتعاً، فقلت له بحدّة: ليست عندي فكرة.

- إنها فظيعة هذه الطريقة التي تتبعها في عدم توجيه الأسئلة الصحيحة! ونتيجة لذلك فلن تعرف الأشياء المهمة.

قلت له مغتاظاً: خير لك أن تأتي إلى كراودن وتوجه الأسئلة بنفسك.

- هذا مستحيل حالياً؛ إذ يوجد مزاد ممتع للغاية لبيع مخطوطات لبعض المؤلفين في الأسبوع القادم.

- أما زلتَ على هوايتك؟

- نعم، بالتأكيد.

ولمعت عيناه وهو يقول: خذ مثلاً أعمال جون ديكسون كاري، أو كارتر ديكسون كما يسمي نفسه أحياناً...

فهربت متذرّعاً بموعد مهم قبل أن يسترسل؛ إذ لم أكن في حالة مزاجية تؤهلني للاستماع إلى محاضرات عن الأساتذة القدماء في فن الروايات البوليسية!

* * *

في الليلة التالية كنت بانتظار هاردكاسل أمام باب بيته، وقد ظهرت خارجاً من الظلمة لأحيّيه عندما وصل البيت. قال: مرحباً كولن، أهذا أنت؟ إذن فقد ظهرتَ فجأة من لاشيء من جديد؟ منذ متى وأنت جالس هنا على العتبة الأمامية لمنزلي؟

- آه، منذ ما يقرب من نصف ساعة.

- آسف لعدم إمكانك الدخول إلى المنزل.

فقلت له بتواضع: كان بإمكاني الدخول إلى المنزل بأيسر ما يكون، أنت لا تعلم بمهارتنا.

- لِمَ لم تدخل إذن؟

شرحت له قائلاً: لم أشأ أن أحطّ من هيبتك بأي شكل، فمفتش التحري في الشرطة قد يفقد اعتباره إذا اقتُحمت داره بطريقة لصوصية وبسهولة تامة.

أخرج هاردكاسل مفاتيحه من جيبه وفتح الباب الأمامي قائلاً: هيا ادخل وكفاك عبثاً.

سار أمامي نحو غرفة الجلوس، ثم غاب قليلاً ليعدّ الشاي.

وجلسنا نحتسي الشاي الحارّ، ثم قال: وأخيراً بدأت الأمور تتحرك؛ لقد تعرفنا على الجثة.

- أعرف ذلك، فقد ألقيت نظرة على الصحف. من يكون هاري كاسلتون هذا؟

- رجل يدلّ ظاهره على أنه في ذروة الاحترام، وكان يكسب عيشه عن طريق الدخول في زيجات أو مجرد خطبة نساء مغفلات ميسورات الحال، فقد كُنّ يأتَمِنّه على مدّخراتهن بتأثير معرفته المالية الممتازة، وما هي إلا هنيهة بعد ذلك حتى يختفي.

- لا يبدو عليه أنه من ذلك النوع من الرجال.

قلت ذلك وأنا أعود بفكري إلى الوراء، فقال هاردكاسل: ذلك هو مصدر رزقه.

- ألم يوجَّه له اتهام سابقاً؟

- لقد قمنا بالتحريات، ولكن ليس من السهل الحصول على معلومات كثيرة، فقد قام بتغيير اسمه كثيراً. ورغم أنهم في المحكمة يعتقدون أن هاري كاسلتون ورايموند بلير ولورنس دالتون وروجر بايرون جميعاً كانوا شخصاً واحداً إلا أنهم لم يستطيعوا إثبات ذلك، وكما تعرف فالنساء لن يقلن شيئاً؛ فهنّ يفضلن خسارة أموالهن. لقد كان الرجل مجرد اسم لا أكثر، يظهر فجأة هنا وهناك بنفس النمط دائماً، لكنه مراوغ بشكل لا يصدَّق؛ كان يتملص من رغبة السيدات في التقاط صورة معه. كل هذا يرجع إلى زمن طويل مضى، من خمس عشرة إلى عشرين سنة. في ذلك الحين بدا حقاً أنه قد اختفى، وانتشرت إشاعات مفادها أنه مات، لكن بعض الناس يقولون إنه سافر إلى الخارج.

- على أية حال لم يُسمَع عنه شيء حتى وُجِد ميتاً على سجادة غرفة الجلوس في بيت الآنسة ببمارش؟

- نعم، بالضبط.

- هذا يفتح باباً للاحتمالات بالتأكيد.

- نعم.

قلت مقترحاً: أيجوز أن تكون امرأة لم تنسَ إهانتها مثلاً؟

- هذا يحدث كما تعلم. توجد بالفعل نساء لديهنّ ذاكرة قوية ولا ينسين أبداً.

- فإذا أصيبت مثل هذه المرأة بالعمى أُضيفَ إلى أساها الأول أسىً جديد.

- هذا مجرد تخمين لا شيء يعزّزه حتى الآن.

- ما شكل الزوجة السيدة...؟ ماذا كان اسمها؟ مرلينا رايفل؟ يا له من اسم! لا يمكن أن يكون اسمها الحقيقي.

- اسمها هو فلوسي غاب، أما الآخر فقد اخترعَته، وهو مناسب أكثر لنمط حياتها.

- ماذا تعمل؟

- لقد وصفت نفسها بأنها ممثلة سابقة وقالت إنها تقوم أحياناً بأعمال أخرى.

- أهي موضع ثقة؟

- كانت واثقة تماماً ولم تتردد في إجاباتها.

- هذا حسن جداً.

- نعم، فقد كدتُ أصل إلى اليأس! ومع ذلك فأنا أعتقد أن السيدة رايفل تعرف عن زوجها أكثر من الذي قالته.

- هل كانت لها يد هي نفسها في نشاطات إجرامية سابقاً؟

- لم تُذكَر في السجلات. من المحتمَل أن تكون كذلك في رأيي، وربما ما زالت على علاقة بأصدقاء مشبوهين ولكن غير خطيرين، مجرد نصابين أو شيء من هذا القبيل.

- وماذا عن الساعات؟

- لم تَعنِ لها شيئاً، وأعتقد أنها كانت تقول الحقيقة. لقد تتبعنا المصدر الذيْ جاءت منه، إنه سوق بورتوبلو، هذا بخصوص الساعة المذهّبة والساعة الخزفية، ولا يفيدنا هذا إلا بالقليل جداً؛ فأنت تعلم كيف يكون السوق يوم السبت. اشترتهما سيدة أمريكية كما يظن صاحب المتجر، ولكنني أقول إن ذلك مجرد تخمين لأن سوق بورتوبلو ممتلئ بالسياح الأمريكيين، أما زوجته فتقول إن مَن اشتراهما كان رجلاً لا يمكنها تذكر شكله. أما الساعة الفضية فقد جاءت من صائغ فضة في بورتماوث، اشترتها سيدة طويلة القامة كهدية لابنتها الصغيرة، وكل ما استطاع أن يتذكره عنها هو أنها كانت تضع قبعة خضراء.

- والساعة الرابعة، تلك التي اختفت؟

أجاب هاردكاسل قائلاً: لا تعليق.

فعرفت بالضبط ما كان يقصده بذلك.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

(برواية كولن لامب)

كان الفندق الذي أنزل فيه قرب المركز صغيراً، والشيء الوحيد الجيد الذي كان يمكن وصفه به هو أنه كان يقدّم شواء جيداً، عدا عن كونه رخيصاً.

في العاشرة من صباح اليوم التالي اتصلتُ هاتفياً بمؤسسة كافنديش للسكرتارية وقلت لهم إني أريد طابعة اختزال لتدوّن بعض الرسائل وتعيد طباعة اتفاقية عمل. كان اسمي دوغلاس وذربي وكنت أسكن في فندق كلارندون (والغريب أن الفنادق الرديئة تحمل أسماء كبيرة بشكل غير معتاد)! سألتهم إن كانت الآنسة شيلا ويب موجودة وقلت إن صديقاً لي أخبرني بأنه وجدها ذات كفاءة عالية، وكنت محظوظاً إذ كان بإمكان شيلا المجيء حالاً، لكن كان لديها موعد في الساعة الثانية عشرة، فأخبرتهم بأنني سأكون انتهيت معها قبل ذلك الموعد بوقت كاف.

كنت قد خرجت من باب الفندق الدوّار عندما ظهرت شيلا، فخطوت إلى الأمام وقلت: السيد دوغلاس وذربي في خدمتك.

- أنت الذي اتصلت؟!

- نعم، أنا الذي اتصلت.

بدت منزعجة لأنها أحسّت بالسخرية فقالت: ولكن لا يمكنك القيام بأشياء كهذه!

- ولِمَ لا؟ أنا مستعد لأن أدفع لمكتب كافنديش عن خدماتك، فماذا يهمهم إن كنا سنقضي وقتك الغالي والثمين في مقهى باتركاب عبر الشارع بدلاً من إملاء رسائل مملّة؟ هيا، فلنذهب لاحتساء قهوة لذيذه في موضع هادئ.

* * *

كان مقهى باتركاب مصبوغاً باللون الأصفر بشكل فاقع، وكانت طاولاته من الخشب الصناعي وأكوابه وصحونه ذات لون أصفر بلون الكناري. طلبتُ القهوة والكعك لشخصين، وكان الوقت مبكراً بما فيه الكفاية ليكون المكان خالياً إلا منا، وعندما أخذَت النادلة الطلب وأدبرت نظر كل منا إلى الآخر عبر الطاولة.

سألتُها: هل أنت بخير يا شيلا؟

- ماذا تعني؟

كانت تحت عينيها هالتان داكنتان لدرجة أن لون عينيها كان بنفسجياً بدلاً من زرقتهما، فقلت: هل مررتِ بأوقات عصيبة؟

- نعم، لا... لا أدري، لقد... لقد ظننت أنك رحلت.

- لقد فعلتُ، لكنني عدت.

- لماذا؟

- أنت تعرفين لماذا.

فأطرقت ببصرها برهة، وبعد صمت استمر دقيقة على الأقل (وهو وقت طويل) قالت: أنا خائفة منه.

- ممّن أنت خائفة؟!

- صديقك ذلك المفتش؛ إنه يظن... يظن أنني أنا التي قتلت ذلك الرجل وأني قتلت إدنا أيضاً.

قلت لها مُطَمْئناً: آه، هذه هي طريقته فحسب، فهو يتجول في الأنحاء دائماً ويبدو وكأنه يشكّ في كل شخص.

- لا يا كولن، ليس الأمر هكذا أبداً؛ ليس مقبولاً أن تقول أي شيء لمجرد إدخال البهجة على نفسي. لقد كان يظن بأن لي علاقة بذلك منذ البداية.

- يا فتاتي العزيزة! لا يوجد دليل ضدك لمجرد أنك كنت في مكان الجريمة ذلك اليوم لأن شخصاً ما أراد لك أن تكوني على مسرح الجريمة...

قاطعتني قائلة: إنه يعتقد أنني أنا التي وضعت نفسي في المكان وأن القصة كلها مدبَّرة، وهو يعتقد أن إدنا كانت على علم بها بشكل ما. لعله يعتقد أن إدنا تعرفت على صوتي في الهاتف وأنا أتظاهر بكوني الآنسة بيمارش.

سألتُها: وهل كان ذلك صوتك فعلاً؟

- بالطبع لا، أنا لم أُجرِ ذلك الاتصال قط، وقد أخبرتك بذلك.

قلت لها: اسمعيني يا شيلا، قولي ما شئت لغيري ولكن عليك أن تقولي لي الحقيقة.

- إذن فأنت لا تصدق كلمة مما أقول؟

- بل أصدقك، ولكن ربما أجريتِ ذلك الاتصال الهاتفي في ذلك اليوم بقصد بريء تماماً، وقد يكون أحدهم طلب منك القيام به، وربما أبلغك بأن الأمر جزء من مزحة... ومن ثَم انتابك الخوف. وما دمتِ قد كذبت بهذا الشأن أول مرة فقد اضطُررت إلى الاستمرار في الكذب. هل الأمر كذلك؟

- لا، لا، لا! كم مرة عليّ أن أقول لك ذلك؟

- حسناً جداً يا شيلا، لكن يوجد شيء لم تخبريني به. أريد منك أن تثقي بي، فإذا كان لدى هاردكاسل شيء ضدك، شيء لم يخبرني عنه...

قاطعتني من جديد قائلة: هل تتوقع منه أن يخبرك بكل شيء؟

- حسناً، لا يوجد سبب يمنعه؛ نحن زميلان في المهنة نفسها تقريباً.

جاءتنا النادلة بالطلب عند تلك النقطة، وكانت القهوة باهتة جداً فقالت شيلا وهي تقلب قهوتها مرة بعد أخرى على مهل: لم أكن أعلم أنك على علاقة بالشرطة.

- ليس الشرطة بالضبط بل شعبة مختلفة تماماً. ما كنت أريد قوله هو أنه إذا لم يخبرني ديك بأشياء يعرفها عنك فهذا يعود إلى سبب خاص، وهو أنه يعتقد أنني أهتم بك. حسناً، أنا مهتمّ بك، بل أنا أكثر من ذلك، أنا لكِ يا شيلا مهما كنتِ قد فعلتِ! لقد خرجتِ من ذلك البيت يومها وأنت مذعورة حتى الموت، لقد كنتِ مذعورة حقاً ولم تكوني تمثلين ولم يكن بإمكانك التمثيل بهذا القدر.

- بالطبع كنت مذعورة، لقد كنت مرعوبة!

- هل كان العثور على الجثة فقط هو الذي أخافك أم أمر آخر؟

- وماذا يمكن أن يكون الأمر الآخر؟

استجمعت نفسي وقلت: لماذا سرقت تلك الساعة المكتوب عليها اسم «روزماري»؟

- ماذا تقصد؟ ولماذا أسرقها؟

- أنا أسألك لماذا فعلتِ ذلك؟

- لم ألمسها قط.

- لقد عدتِ إلى الغرفة لأنك نسيت قفازيك هناك كما قلتِ، في حين أنك لم تكوني ترتدين أية قفازات في ذلك اليوم الجميل من أيام أيلول (سبتمبر)؛ لم أرَك قط تلبسين قفازاً. حسناً، لقد رجعتِ إلى تلك الغرفة وأخذتِ تلك الساعة. لا تكذبي عليّ بهذا الشأن، ذلك هو ما قمتِ به، أليس كذلك؟

لزمت الصمت لحظة أو لحظتين وهي تفتت الكعك على صحنها، ثم قالت بصوت يكاد يكون همساً: حسناً، حسناً، لقد فعلت؛ لقد أخذت الساعة ودسستها في حقيبتي وخرجت من جديد.

- ولكن لِمَ فعلتِ ذلك؟

- بسبب الاسم، روزماري؛ إنه اسمي.

- هل اسمك هو روزماري وليس شيلا؟!

- كلاهما، روزماري شيلا.

- وهل يكفي وجود اسمك على إحدى الساعات لتسرقيها؟

- قلت لك إني كنت مذعورة.

نظرتُ إليها. كانت شيلا هي فتاتي التي أريدها، وأريدها إلى الأبد، ولكن لا خيرَ يُرجى والأكاذيب تلفّها. كانت شيلا كاذبة، ومن المحتمَل أن تبقى كاذبة دائماً. كانت تلك طريقتها في كفاحها من أجل البقاء: الإنكار السريع والعفوي. لعل هذا كان سلاحَ الطفولة، وربما لم تكفّ يوماً عن استخدامه. وإن كنت أريد شيلا فعليّ أن أتقبلها على علاّتها وأن أكون جاهزاً لأدعم الجوانب الضعيفة، فنحن جميعاً لدينا جوانب ضعيفة، والجوانب التي عندي تختلف عمّا عندها لكنها كانت موجودة.

حسمتُ أمري وهاجمتها لأني لم أجد سوى ذلك السبيل. قلت: لقد كانت ساعتك أنت، أليس كذلك؟ هل كانت لك؟

زفرت وقالت: وكيف عرفتَ ذلك؟

- أخبريني عنها.

جاءت القصة متعثّرة في هيئة فوضى من الكلمات! لقد كانت الساعة في حيازتها طوال حياتها تقريباً، حتى سن السادسة تقريباً كانت تُنادى دائماً باسم روزماري، لكنها كرهته وأصرّت على مناداتها باسم شيلا. وبدأت الساعة تتعطل مؤخراً فأخذَتها معها لتسلمها إلى محل لتصليح الساعات غير بعيد عن المكتب، لكنها نسيتها في مكان ما، ربما في الحافلة أو في مقهى حيث كانت تذهب لتناول شطيرة وقت الغداء...

سألتُها: كم كان مضى على ذلك قبل جريمة القتل؟

فقالت: نحو أسبوع حسب اعتقادي، ولم أنزعج كثيراً لأن الساعة كانت قديمة وتخطئ دائماً وسيكون من الأفضل حقاً شراء أخرى جديدة.

- وبعد ذلك؟

- لم ألاحظها في البداية، ليس عندما دخلت الغرفة، وبعد ذلك وجدت الرجل الميت. لقد صُعقت! ثم انتصبت واقفة بعد أن لمستُه وبقيت واقفة هناك أحملق وساعتي قبالتي على طاولة قرب المدفأة، وكان على يدي دم، ومن ثَم جاءت هي فنسيتُ كل شيء لأنها كادت تمشي فوقه! وهكذا... هربت لكي أبتعد، كان ذلك كل ما أريد.

أومأت برأسي وقلت: وبعد ذلك؟

- بدأت أفكر. لقد قالت إنها لم تتصل هاتفياً لتطلبني، فمَن الذي اتصل إذن؟ من الذي جاء بي إلى هناك ووضع ساعتي في ذلك المكان؟ لقد قلتُ ذلك الكلام عن نسياني لقفازي و... وحشرتُها في حقيبتي. أعتقد أن تلك كانت... كانت حماقة مني.

قلت لها: ما كنتِ لتفعلي شيئاً أشد حماقة من ذلك... إنك بلا عقل يا شيلا!

- لكن أحدهم يسعى لتوريطي! تلك البطاقة البريدية... لا بد أن الذي أرسلها شخص يعرف أنني أخذت الساعة. البطاقة البريدية وصورة المحكمة عليها، فلو كان والدي مجرماً...

- ماذا تعرفين عن والدك ووالدتك؟

- مات أبواي في حادثة عندما كنت طفلة، هذا ما روته لي خالتي. لكنها لا تتحدث عنهما مطلقاً ولا تحكي لي شيئاً عنهما أبداً، ولكن أحياناً... مرة أو مرتين إثر سؤالي حكت لي أشياء عنهما لم تكن مطابقة لما حكته لي من قبل، ولهذا كنت أعرف دائماً أنه يوجد شيء ما غير سليم.

- استمري.

- وهكذا فأنا أظن أن والدي ربما كان نوعاً من المجرمين أو حتى... قاتلاً، أو ربما كانت والدتي هكذا؛ فالناس لن يقولوا لك إن والدَيك ميتان ولا يستطيعون أو لا يريدون أن يخبروك شيئاً عن والدَيك إلا إذا كان السبب شيئاً... شيئاً يعتقدون أنه شنيع أن يخبروك به.

- ولهذا كنتِ دائمة الثورة؟ قد يكون الأمر بسيطاً جداً، ربما كنتِ طفلة غير شرعية فحسب.

- فكرتُ في ذلك أيضاً، فالناس فعلاً يحاولون أن يُخفوا مثل تلك الأمور عن الصغار، وهذا حماقة. خير لهم أن يخبروهم بالحقيقة فحسب. المسألة هي أنني لا أدري كما ترى، لا أعلم ما الذي يكمن وراء هذا كله. لماذا سُمّيتُ روزماري؟ إنه ليس لقباً عائلياً، بل هو يعني «الذكرى»، أليس كذلك؟

بيّنت رأيي قائلاً: ويمكن أن يحمل معنى جميلاً.

- أجل، هذا ممكن، ولكني لا أشعر أنه كذلك. على أية حال فبعد أن وجّه المفتش أسئلة إليّ في ذلك اليوم بدأت أفكر: لماذا كان أحدهم يريد استدراجي إلى هناك؟ وهل استُدرجت إلى هناك مع رجل غريب كان قد قُتل أم أن الرجل القتيل هو الذي أرادني أن

أقابله هناك؟ ربما كان والدي وأراد مني أن أفعل شيئاً من أجله فجاء أحدهم فقتله. هل أراد أحدهم أن يدبّر الأمر منذ البداية بحيث أبدو القاتلة؟... آه، لقد كنت مشوشة كلياً وخائفة. لقد بدا الأمر كما لو أن كل شيء قد رُتب ليشير إليّ؛ إحضاري إلى هناك، ورجل ميت، واسمي روزماري على ساعتي التي لا تمتّ إلى المكان بصلة... ولهذا أُصبت بالهلع وفعلت شيئاً كان حماقة كما تقول.

هززت رأسي بعدم الموافقة وقلت: لقد قرأتِ أو طبعتِ كثيراً من قصص الإثارة والغموض. ماذا عن إدنا؟ أليست لديك أية فكرة إطلاقاً عمّا كان يدور في ذهنها؟ لماذا قطعَت كل تلك المسافة إلى بيتك لتتحدث إليك في حين كانت تراك في المكتب كل يوم؟

- لا أعرف. لا يمكن أن تكون قد ظنّت بأن لي أية علاقة بالجريمة، هذا لا يمكن.

- ألا يمكن أن يكون شيئاً سمعَته وأخطأت في فهمه؟

- هذا لا يمكن كما أقول لك، لا يمكن.

تحيّرتُ من أمرها ولم أُطِق الحيرة. حتى تلك اللحظة لم أكن أثق في أن شيلا تقول الحقيقة فسألتُها: هل لديك أي أعداء؟ شبان ناقمون، فتيات غيورات، شخص معتوه يُضمر لك السوء...؟

بدا ذلك غير مقنع وأنا أقوله فقالت: بالطبع لا.

هكذا كانت المسألة، وبقيت غير واثق. حتى تلك اللحظة لم أجد حلاً للغز الساعات. ٤:١٣! ما الذي كانت تعنيه تلك الأرقام؟ لماذا كُتبت على بطاقة بريدية مع كلمة «تذكّري» ما لم تكن تعني شيئاً ما عند الشخص الذي أُرسلت البطاقة إليه؟

تنهدتُ ودفعتُ الحساب، ثم نهضت وقلت: لا تقلقي؛ ستكونين بخير وسوف نتزوج ونعيش بعد ذلك بسعادة دائمة.

ثم قلت وأنا لا أستطيع كبح جماح نفسي وقد دفعني الفضول الشخصي: بالمناسبة، ما الذي فعلتِهِ بتلك الساعة؟ هل أخفيتِها في درج جواربك؟

انتظرَت لحظة فقط قبل أن تقول: بل لقد رميتها في صندوق قمامة الجيران.

تأثرتُ جداً؛ كان ذلك بسيطاً، وربما مؤثراً! كان ذكاء منها أن تفكر في ذلك. ربما كنت قد أسأت تقييم شيلا.

* * *

الفصل الرابع والعشرون
(برواية كولن لامب)

بعد ذهاب شيلا اتجهتُ إلى فندق كلارندون حيث حزمتُ حقائبي وتركتها جاهزة مع أحد الحمّالين، فقد كان من نوع الفنادق التي تحرص على مغادرة الزبون قبل الظهر! ثم انطلقتُ فقادتني قدماي إلى مركز الشرطة، وبعد التردد لحظة دخلت وسألت عن هاردكاسل الذي كان موجوداً هناك، وألفيته ينكبّ متجهماً على رسالة في يده فقلت له: سأغادر هذا المساء يا ديك، سأعود إلى لندن.

رفع إليّ بصره بتأمل معبر وقال: ألا أسدي لك نصيحة؟

فأجبته على الفور: لا تفعل.

لم يهتمّ بما قلت؛ فالناس لن يفعلوا ذلك أبداً عندما يريدون أن ينصحوك. قال: أنصحك بأن تبتعد وتبقى بعيداً... إذا كنت تعرف الأصلح لك.

- لا يمكن لأحد أن يعرف ما الأصلح لأي شخص آخر.

- أشك في ذلك.

- سأقول لك شيئاً يا ديك: سأستقيل عندما أُنهي مهمتي

الحالية، أو على الأقل أعتقد أنني سأفعل ذلك.

- لماذا؟

- أنا أشبه بالقسيس الفكتوري قديم الطراز، لديّ شكوك.

- امنح نفسك بعض الوقت.

لم أكن متأكداً مما عناه بذلك، فسألته عمّا كان يقلقه هو بالذات، فناولني الورقة التي كان يدرسها قائلاً: اقرأ هذه.

ففضضتُها وقرأت فيها:

سيدي العزيز،

لقد فكرت لتوّي في شيء، فقد سألتَني عمّا إذا كان لزوجي أية علامات مميزة فقلت لك إنه لم تكن لديه أي منها، لكنني كنت مخطئة؛ في الواقع لديه ندبة خلف أذنه اليسرى، فقد جرح نفسه بشفرة الحلاقة ذات مرة عندما قفز عليه كلبنا فاضطُر إلى أن يُخاط له الجرح. لقد كان صغيراً وقليل الأهمية جداً بحيث لم أفكر فيه قط ذلك اليوم.

المخلصة: مرلينا رايفل

قلت: إنها تكتب بخط جميل، رغم أنني لا يعجبني الحبر الأرجواني أبداً. هل كان للمقتول ندبة؟

- كانت له ندبة فعلاً، بالضبط حيث تقول.

- ألم ترَها عندما عُرضت الجثة عليها؟

هزّ هاردكاسل رأسه وقال: الأذن تغطيها، كان يجب أن تثني

الأذن إلى الأمام لتتمكن من رؤيتها.

- هذا صحيح إذن، إنها معلومة معزِّزة جيدة، فما الذي يشغل بالك؟

قال هاردكاسل منقبضاً: هذه القضية شيطانية! هل ستقابل صديقك البلجيكي أو الفرنسي في لندن؟

- ربما، لماذا؟

- لقد ذكرتُ اسمه أمام رئيس الشرطة فقال إنه يتذكره جيداً وذكر عنه معجزات. لو أنه فكر في المجيء إلينا لأقمتُ له استقبالاً حافلاً جداً.

* * *

كانت الساعة الثانية عشرة والربع عندما ضغطت زر جرس المنزل رقم ٦٢ في هلال ولبراهام، ففتحت السيدة رامزي الباب، وبالكاد رفعَت عينيها لتنظر إليّ وقالت: ما الأمر؟

- هل يمكنني التحدث إليك لحظة؟ لقد جئتُ هنا قبل عشرة أيام تقريباً، قد لا تتذكرين.

رفعت بصرها لتتفرس في وجهي أكثر، ثم لاحت تقطيبة خفيفة على حاجبيها وقالت: لقد كنت مع مفتش الشرطة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سيدة رامزي. أتسمحين لي بالدخول؟

- حسناً، تفضل؛ لا يمكن للمرء أن يرفض دخول الشرطة لأنهم سيكوّنون انطباعاً سيئاً لو فعل.

ثم سارت أمامي نحو غرفة الجلوس وأشارت بحركة فظة نحو كرسي وجلست قبالتي. كان في صوتها شيء من الانقباض، لكن سلوكها صار يوحي بفتور لم ألاحظه عليها من قبل. قلت لها: يبدو أن المكان هادئ اليوم، أظن أن ولديك قد عادا إلى المدرسة.

- أجل، وهذا يُحدِث اختلافاً فعلاً.

ثم واصلَت كلامها قائلة: لعلك تريد أن تُلقي المزيد من الأسئلة بخصوص هذه الجريمة الأخيرة الخاصة بالفتاة التي قُتلت في كشك الهاتف؟

- لا، ليس كذلك تماماً؛ أنا لست مرتبطاً بالشرطة في الحقيقة.

لاحت الدهشة عليها قليلاً وقالت: اعتقدت أنك كنت العريف لامب، أليس كذلك؟

- اسمي لامب بالفعل، لكنني أعمل في شعبة مختلفة تماماً.

اختفى الانقباض من سلوك السيدة رامزي وصوّبت نحوي نظرة سريعة قاسية ومباشرة وقالت: آه، حسناً، ما الأمر؟

- أما زال زوجك في الخارج؟

- نعم.

- لقد رحل بعيداً جداً منذ فترة طويلة، أليس كذلك يا سيدة رامزي؟

- ما الذي تعرفه عن ذلك؟

- حسناً، لقد ذهب إلى ما وراء الستار الحديدي، أليس كذلك؟

لزمتُ الصمت لحظة أو اثنتين، فقالت بصوت هادئ خافت: بلى، هذا صحيح تماماً.

- هل كنت تعلمين أنه مغادر؟

- بشكل أو بآخر.

سكتت طويلاً ثم قالت: لقد أراد مني أن ألحق به هناك.

- هل كان يفكر بذلك منذ وقت طويل؟

- أظن ذلك، لكنه لم يخبرني حتى وقت متأخر.

- ألا تتعاطفين مع آرائه؟

- كنت في السابق على ما أظن، ولكن لا بد أنكم علمتم بذلك مسبَقاً؛ أنتم تدقّقون في أمور كهذه، أليس كذلك؟ تعودون إلى الماضي لتكتشفوا مَن كان رفيق السفر أو مَن كان عضواً في حزب...

قلت: ربما أمكنك تزويدنا بمعلومات يمكن أن تفيدنا.

هزّت رأسها وقالت: لا، لا أستطيع ذلك. لا أعني أنني لن أفعل، فهو لم يكن يخبرني بأي شيء محدد وأنا لم أكن راغبة في أن أعرف. لقد سئمتُ وتعبتُ من القضية برمتها، فعندما أبلغني مايكل بأنه سيغادر هذه البلاد وينزح عنها نهائياً إلى موسكو فإن ذلك لم يفاجئني، عندئذ أصبحتُ ملزَمة بأن أقرر ما الذي كنت أريد أن أفعله أنا.

- فقررتِ أنك لم تكوني متعاطفة بشكل كاف مع أهداف زوجك؟

- لا أقصد ذلك. إن وجهة نظري شخصية جداً، وأعتقد أن ذلك يحدث مع النساء في آخر المطاف دائماً... ما لم يكن المرء متعصباً طبعاً. وبإمكان النساء أن يكنّ متعصبات، لكنني لم أكن كذلك؛ أنا لم أكن سوى يسارية معتدلة.

- هل كان زوجك متورطاً في قضية لاركن؟

- لا أدري، ربما كان كذلك. لم يكن ليخبرني بأي شيء ولا هو حدثني عن ذلك.

ثم نظرَت إليّ فجأة بمزيد من الحيوية وقالت: علينا أن نكون واضحَين تماماً يا سيد لامب... أو كائناً من كنت. لقد كنت أحب زوجي، وربما كنت مغرَمة به بما يكفي لأن أذهب معه إلى موسكو سواء أأقررتُ بمبادئه السياسية أم لا. لقد كان يريد اصطحاب الولدين، أما أنا فلم أوافق على اصطحاب الولدين، كانت المسألة بهذه البساطة، فقررت البقاء معهما. أما إذا كنت سأرى مايكل ثانية أم لا فلا أعلم. كان عليه أن يختار سبيله في الحياة وكان عليّ أن أختار سبيلي، غير أنني كنت أعرف شيئاً واحداً محدداً بعد أن حدثني بهذا الشأن، وهو أني أردت لولديّ أن يتربيا هنا في وطنهما. إنهما إنكليزيان وقد أردت لهما أن يتربيا كأطفال الإنكليز العاديين.

- فهمت، نعم.

قالت وهي تنهض واقفة: وهذا هو كل شيء على ما أعتقد.

أصبح في أسلوبها في تلك اللحظة تصميم مفاجئ، فقلت لها: لا بد أنه كان اختياراً قاسياً. أنا آسف جداً من أجلك.

وقد كنت آسفاً من أجلها فعلاً. وربما كان التعاطف الحقيقي في صوتي قد نفذ إليها فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت: ربما كنتَ

كذلك حقاً، وأعتقد أنك ضمن عملك تحاول أن تتغلغل بشكل أو بآخر في أعماق الناس لتعرف ما يشعرون به ويفكرون فيه. لقد كان ذلك القرار ضربة قاضية لي، لكنني تغلبتُ على الأسوأ منه، إذ ينبغي أن أخطط الآن ماذا سأفعل وأين أذهب وهل سأبقى هنا أم أنتقل إلى مكان آخر... وينبغي عليّ أن أجد عملاً. لقد عملت سكرتيرة في السابق، وقد آخذ دورة تقوية في الاختزال والطباعة.

قلت لها: حسناً، لا تعملي في مؤسسة كافنديش.

- ولِمَ لا؟

- يبدو أن الفتيات المستخدَمات هناك عرضة لحدوث أشياء مؤسفة لهن.

- إن كنتَ تظن أنني أعرف أي شيء عن ذلك الأمر فأنت مخطئ.

تمنيتُ لها حظاً سعيداً وانصرفتُ. لم أحصل منها على أي شيء، ولم أكن في الحقيقة أتوقع ذلك، لكن ينبغي على المرء إنهاء الأمور التي لم تُنجَز بعد.

* * *

بعد خروجي من البوابة كدت أصطدم بالسيدة ماك لوتن التي كانت تحمل حقيبة التسوق وتبدو كأنها تترنح في مشيتها فقلت لها وأنا آخذ الحقيبة من يدها: اسمحي لي.

كانت تنوي التشبث بها وسحبها مني في البداية، ولكنها حنت رأسها إلى الأمام محدّقة إلى وجهي وأرخت قبضتها وقالت: أنت رجل الشرطة الشاب! لم أعرفك في البداية.

حملت الحقيبة حتى الباب الأمامي لبيتها في حين كانت تتمايل بجانبي. كانت الحقيبة ثقيلة بشكل غير متوقَّع، فتساءلت عمّا يكون فيها قائلاً لنفسي: ما هذا؟ أرطال من البطاطا؟!

قالت: لا تقرع الجرس فالباب ليس مقفَلاً.

لم يبدُ أي باب مقفَلاً قطّ في هلال ولبراهام!

قالت مثرثرة: وكيف تجري أمورك؟ يبدو أنه قد تزوج من مستوى أدنى منه بكثير؟

لم أعرف عن أي شيء كانت تتحدث فسألتها مستوضحاً: من الذي تزوج؟ لقد كنت خارج البلاد.

- آه، فهمت... تقتفي أثر أحدهم على ما أظن. كنت أعني تلك المدعوّة السيدة رايفل. لقد حضرتُ جلسة التحقيق. إنها امرأة عادية المظهر، ويجب أن أقول إنها لم تَبدُ متكدرة لموت زوجها.

أوضحت لها قائلاً: إنها لم تره منذ خمسة عشر عاماً.

تنهدت وقالت: لقد مضى على زواجي بآنغس عشرون عاماً... زمن طويل! وآنغس منهمك في البستنة لدرجة أنه لم يَعُد في الجامعة، وهذا يجعل من الصعب على المرء أن يعرف ماذا يفعل بنفسه.

في تلك اللحظة جاء السيد ماك نوتن وبيده مجرفة البستنة سائراً حول ركن المنزل فقال: آه، لقد عدتِ يا عزيزتي؟ دعيني آخذ هذه الأشياء.

قالت لي السيدة ماك نوتن بسرعة وهي تكزني في خاصرتي خفية: ضعها في المطبخ.

ثم قالت لزوجها وهي تبتسم ابتسامة مشرقة: إنها رقائق الذرة والبيض فقط.

وضعتُ الحقيبة على طاولة المطبخ فأحدَثت صوتاً، فسألتُ نفسي بدهشة: رقائق ذرة؟ غير معقول!

سمحت لحاستي الجاسوسية أن تبدأ بالعمل، وتحت ثلاث طبقات من الجلاتين كانت ثلاث زجاجات من الخمر! وعندئذ فهمت لماذا كانت السيدة ماك نوتن مشرقة وبشوشاً في بعض الأحيان ولماذا كانت مترنّحة بعض الشيء أحياناً أخرى، وأدركت لماذا استقال ماك نوتن من وظيفته الجامعية.

* * *

كان ذلك الصباح هو صباح الجيران؛ فقد التقيت بالسيد بلاند وأنا أسير على امتداد الهلال باتجاه شارع ألباني. كان السيد بلاند في صحة جيدة جداً، وقد عرفني على الفور حيث قال: كيف حالك؟ وكيف الجريمة؟ أرى أنكم قد تعرفتم على شخصية القتيل الذي يبدو أنه كان يسيء معاملة زوجته نسبياً. بالمناسبة (وأرجو معذرتك)، أنت لست من سكان المنطقة، أليس كذلك؟

قلت متملّصاً: أنا قادم من لندن.

- إذن فإن شرطة سكوتلنديارد مهتمة، أليس كذلك؟

- حسناً...

كنت قد نطقت الكلمة بطريقة ملتبسة فقال: فهمتُ، لا ينبغي نشر الإشاعات خارج المجموعة، ولكنك لم تحضر جلسة التحقيق!

- كنت في الخارج.

غمز لي قائلاً: وأنا أيضاً يا ولدي، أنا أيضاً.

- باريس الجميلة؟

- أتمنى لو كانت! لا، رحلة ليوم واحد إلى بولونيا.

ثم وكزني في جنبي تماماً كما فعلت السيدة ماك نوتن وقال: لم آخذ زوجتي، بل اصطحبتُ فتاة جميلة شقراء!

بعد ذلك اتجه ناحية المنزل رقم ٦١ وسرتُ أنا في اتجاه شارع ألباني. لم أكن راضياً مع نفسي، فلا بدّ من أن أحصل على المزيد من الجيران كما قال بوارو؛ إذ ليس من الطبيعي بالتأكيد أن لا يكون أي شخص قد لاحظ شيئاً! وربما كان هاردكاسل قد وجه الأسئلة غير الصحيحة، ولكن هل كان بإمكاني التفكير في أحسن منها؟

وبينما كنت أنحرف ناحية شارع ألباني كوّنت في ذهني قائمة من الأسئلة، وقد اتخذت شكلاً شبيهاً بما يأتي:

السيد كاري (كاسلتون) كان قد جرى تخديره، متى؟
السيد كاري (كاسلتون) كان قد جرى تخديره، أين؟
السيد كاري (كاسلتون) كان قد حُمِل إلى المنزل رقم ١٩، كيف؟
شخص ما لا بد أن يكون قد رأى شيئاً، مَن؟
شخص ما لا بد أن يكون قد رأى شيئاً، ماذا؟

ثم انعطفتُ يساراً من جديد فصرت أسير على امتداد هلال ولبراهام كما سرتُ تماماً في التاسع من أيلول. هل أقوم بزيارة الآنسة بيمارش؟ هل أدقّ الجرس وأقول...؟ حسناً، ماذا سأقول؟

هل أزور الآنسة وترهاوس؟ ولكن ماذا عساي أن أقول لها؟ هل أزور السيدة همينغ؟ لن يكون مهماً ما سيقوله المرء للسيدة همينغ فهي لن تكون مصغية، لكن ما تقوله قد يؤدي إلى شيء ما مهما كان عشوائياً وغير مترابط.

سرتُ قدماً وأنا أتابع بذهني الأرقام كما فعلت من قبل. هل سار السيد كاري على امتداد هذا المسار متتبّعاً الأرقام أيضاً حتى وصل إلى الرقم الذي كان يريد زيارته؟ لم يَبدُ هلال ولبراهام أكثر بهاءً قطّ مما يبدو في ذلك الوقت، فقد كدت أرى نفسي واقفاً أناشد على النمط الفكتوري قائلاً: آه لو استطاعت هذه الأحجار أن تتكلم!

كانت تلك عبارة مقتبسة أثيرة في ذلك الزمان كما يبدو! لكن الأحجار لا تتكلم ولا الآجرّ ولا الإسمنت، ولا حتى الجصّ أو الزخارف الجصية. لقد بقي هلال ولبراهام نفسه صامتاً قديم الطراز مراوغاً متداعياً وغير ميّال للحديث، وكنت واثقاً من أنه يستنكر وجود جَوَّابي الآفاق الذين لم يكونوا حتى ليعلموا عن أي شيء يبحثون.

كان هنا وهناك بضعة أشخاص: صبيّان يركبان دراجتيهما مرا بجانبي، وامرأتان تحملان حقيبتَي التسوق. وبدت البيوت نفسها محنَّطة كالمومياء لقلة مظاهر الحياة فيها. وقد عرفتُ سبب ذلك؛ إنها توشك أن تكون الساعة الواحدة، تلك الساعة المقدَّسة والمكرسة من قِبَل التقاليد الإنكليزية لتناول وجبة منتصف النهار. ففي واحد أو اثنين من البيوت تمكنت من رؤية شخص أو شخصين من خلال نوافذ أزيحت ستائرها جالسَين إلى مائدة الطعام، وحتى ذلك كان نادراً جداً لأن النوافذ كانت إما مغطاة بتكتم بستائر شبكية

من النايلون كبديل لقماش نوتنغهام المثقب المشهور، أو أن كل من كان في البيت كان يتناول الطعام في المطبخ الحديث، وذلك هو الأكثر احتمالاً طبقاً لتقليد الستينيات. فكرت أنها الساعة المُثلى لارتكاب جريمة، فهل فكر القاتل في ذلك؟ هل كان هذا ضمن خطة القاتل؟

وأخيراً وصلتُ إلى المنزل رقم ١٩، فوقفت أحملق مثل الكثير من البلهاء الآخرين، ولم يكن أي إنسان في مرمى البصر فقلت محبَطاً: ما من جيران، ما من متفرجين أذكياء!

شعرت بألم حاد في كتفي. لقد كنت مخطئاً؛ فقد كان أحد الجيران موجوداً هنا، جار مفيد جداً فقط لو كان بمقدوره أن يتكلم. كنت أسند ظهري إلى عمود المنزل رقم ٢٠ ونفس الهرّ البرتقالي الكبير الذي رأيته من قبل كان جالساً على عمود البوابة، فوقفت وتبادلت بضع كلمات معه مبتدئاً بإزاحة مخلبه المازح عن كتفي. قلت: لو أن باستطاعة القطط أن تتكلم!

قدمت ذلك له كافتتاح للحديث، ففتح الهر البرتقالي فمه وأرسل مواء عالياً منغَّماً، فقلت: أعرف أنك تستطيع، أعرف أنك تستطيع أن تتكلم تماماً كما أفعل، لكنك لا تتكلم لغتي. هل كنتَ جالساً هنا في ذلك اليوم؟ هل رأيت مَن دخل ذلك البيت أو خرج منه؟ هل تعرف كل شيء عما حدث؟ هذا ممكن أيها الهر؟

أخذ الهر ملاحظتي على محمل الازدراء فأدار لي ظهره وراح يلوي ذيله، فقلت: أنا آسف يا صاحب الجلالة.

فألقى عليّ نظرة فاترة من فوق كتفه وشرع يغسل نفسه بهمة.

الجيران! تأمّلت بمرارة. ما من شك في أن عون الجيران كان

قاصراً في هلال ولبراهام. إن ما أنشده هنا وما ينشده هاردكاسل هو مجرد سيدة عجوز طيبة وفضولية يبدو الزمن واضحاً على يدَيها وتأمُل دائماً في أن تنظر من النافذة وترى شيئاً مخزياً، والمشكلة أنه لا وجود لمثل هذه السيدة في هذه الأيام. لقد أصبحنَ يجلسن معاً في بيوت العناية بالكبار أو يزحمن المستشفيات حيث الحاجة ماسّة للأسرة من أجل المرضى الحقيقيين، فالذين يشكون العرج والوهن والكبر لم يعودوا يسكنون في بيوتهم وتعتني بهم خادمة بيت مخلصة أو قريبة بلهاء فرحة بالعيش في بيت جيد... وكان هذا التحول عقبة خطيرة أمام التحقيق الجنائي.

مددت بصري عبر الطريق. لماذا لا يوجد أي جيران؟ لماذا لا توجد سلسلة من البيوت الأنيقة قبالتي بدلاً من تلك البناية الإسمنتية الضخمة غير الإنسانية المظهر؟ إنها -بلا شكّ- نوع من خلية نحل بشرية مأهولة بالنحلات العاملات اللائي يخرجن طول النهار ولا يرجعن إلا في المساء ليغسلن صغارهن ويعتنين ببيوتهن. بالمقارنة مع عدم إنسانية تلك البناية بدأتُ أشعر بشعور طيّب نحو اللطف الفكتوري المتلاشي لهلال ولبراهام.

أسرَت عيني ومضةُ ضوء من مكان ما في وسط البناية! لقد حيّرَتني فحدقت إلى الأعلى. نعم، ها هي من جديد؛ إنها نافذة مفتوحة وأحدهم ينظر من خلالها، وجه طمسه تقريباً شيء كان موضوعاً أمامه، وجاءت ومضة الضياء من جديد فمددت إحدى يديّ إلى جيبي؛ فأنا أحتفظ بعدد لا بأس به من الأشياء في جيوبي، أشياء قد تكون مفيدة. وقد تُصابون بالدهشة لما هو مفيد في بعض الأحيان: قليل من الشريط اللاصق، بضع أدوات بريئة المظهر لديها المقدرة الكافية على فتح معظم الأبواب المقفَلة، علبة من مسحوق

رمادي عليها علامة لا تدل على ما فيها مع أنبوب للنفخ ليُستخدم معها، بالإضافة إلى واحدة أو اثنتين من الأدوات الصغيرة الأخرى التي لا يعرف الناس الغرض من استخدامها... وبين الأشياء الأخرى كان عندي منظار مقرّب، لم يكن عالي القدرة إلا أنه يصلح بما فيه الكفاية لأن يكون مفيداً.

أخرجت المنظار ورفعته إلى عينَي. كانت عند النافذة طفلة، فقد تمكنتُ من رؤية ضفيرة طويلة من الشعر. كان لديها منظار مقرّب هي الأخرى وكانت تتمعن فيّ باهتمام أصابني بالغرور، وحيث إنه لم يكن في المكان شيء آخر تنظر إليه على أية حال فقد تلاشى غروري. وفي تلك اللحظة ظهرت تسلية منتصف نهار أخرى في هلال ولبراهام، فقد مرت في الطريق بمهابة سيارةُ رولز رويس قديمة جداً يقودها سائق خاص عجوز يبدو وَقوراً لكن على الأرجح مع سأم من الحياة. مرّ بي في مهابة مواكب السيارات الجنائزية، وأما راصدتي الصغيرة فقد أصبحت توجه منظارها إليّ كما لاحظت، فوقفتُ هناك أفكر.

كنت أؤمن دائماً بأنك لو انتظرت بما فيه الكفاية فستكون عُرضة لضربة حظ من نوع ما لشيء لم يكن في الحسبان ولم يكن ليخطر على بالك، لكنه يحدث فحسب. تُرى هل يُحتمل أن تكون هذه من نصيبي؟ وبعد أن رفعت بصري نحو البناية المربعة الكبيرة لاحظت بحرص موضع النافذة التي أثارت اهتمامي وأنا أعُدّ الأدوار صعوداً من الأرض، فوجدتها في الطابق الثالث، فمشيت على امتداد الطريق حتى بلغت المدخل إلى مبنى الشقق حيث كان ممر عريض يمتد حول المبنى مع مساحات مفروشة بالزهور أنيقة الترتيب في مواضع من العشب.

إنه لأمر حسن دائماً أن تؤدي كل الحركات المطلوبة، لهذا خطوتُ عبر الممر متّجهاً نحو المبنى ونظرت إلى الأعلى كما لو كنت مذعوراً، ثم انحنيت على العشب متظاهراً بالبحث عن شيء، وأخيراً وقفت منتصباً وأنا أحول شيئاً من يدي إلى جيبي، ثم سرتُ حول المبنى حتى بلغت المدخل.

أظن أن بوّاباً يقف هنا في أغلب ساعات النهار، أما في الساعة المقدَّسة بين الواحدة والثانية فإن باحة المدخل تكون خالية. كان هنالك جرس تعلوه إشارة كبيرة مكتوب عليها «البوّاب» لكنني لم أضغطه، وكان هنالك مصعد فذهبت إليه وضغطت زر الطابق الثالث، وبعدها كان ينبغي عليّ أن أمحّص الأشياء بحرص شديد.

بدا من السهولة أن تحدد نافذة ما من الخارج، أما من الداخل فقد كانت مربكة، ولكن على كل حال فقد كسبت قدراً كبيراً من التدريب على أشياء من ذلك النوع في زماني، وكنت متأكداً تماماً من أنني قد وصلت إلى الباب الصحيح الذي كان يحمل الرقم ٧٧، فقلت لنفسي: حسناً، السبعات محظوظة، هيا بنا.

وضغطت زر الجرس ثم تراجعت واقفاً بانتظار الأحداث.

* * *

الفصل الخامس والعشرون
(برواية كولن لامب)

انتظرت دقيقة أو اثنتين فقط ثم انفتح الباب. فتاة إسكندنافية شقراء ضخمة ذات وجه محمَرّ في ثياب زاهية الألوان نظرت إليّ متسائلة. كانت يداها قد مُسحتا على عجل، لكن آثار الدقيق كانت عليهما وكانت على أنفها لطخة خفيفة من الدقيق، فكان من السهل عليّ أن أحزر ما كانت تفعله.

قلت: أرجو المعذرة، لديكم طفلة صغيرة هنا على ما أظن. لقد أسقطَت شيئاً من النافذة.

ابتسمَت في وجهي مشجِّعة، ولم تكن اللغة الإنكليزية قد ترسّخَت لديها فقالت: آسفة، ماذا قلت؟

- طفلة هنا... بنت صغيرة.

أومأت برأسها وقالت: نعم، نعم.

- أسقطَت شيئاً... خارج النافذة.

وهنا قمت بأداء حركة إيمائية صغيرة وقلت: وقد التقطتُه وجئت به إليكم.

ومددتُ كفّاً مفتوحة كان فيها سكين فاكهة فضي، فنظرَت إليه دون أن تعرفه وقالت: لا أعتقد، فلم أرَ.

قلت لها متعاطفاً: أنت مشغولة بالطبخ.

- أجل، أجل، أنا أطبخ.

كانت تومئ برأسها بعنف فقلت: لا أريد أن أزعجك. هل تسمحين لي بأن أعطيها لها فقط؟

- معذرة.

ويبدو أنها فهمت ما قصدتُه، فسارت أمامي عبر البهو وفتحت باباً يؤدّي إلى غرفة جلوس لطيفة، وإلى جانب النافذة وُضعت أريكة وعلى الأريكة كانت طفلة في التاسعة أو العاشرة من العمر تقريباً، وكانت على إحدى ساقيها جَبيرة.

قالت لها الفتاة الإسكندنافية: هذا السيد يقول إنك أسقطت...

ولحسن الحظ فاحت في تلك اللحظة رائحة احتراق قوية من المطبخ، فأطلقَت مرشدتي صيحة فزع وقالت: اعذرني أرجوك، اعذر...

قلت لها بمودّة: اذهبي أنت وبمقدوري أن أتدبر أمري.

انطلقَت برشاقة فدخلتُ الغرفة وأغلقت الباب ورائي، واتجهت نحو الأريكة وقلت: مرحباً.

فردت الطفلة قائلة: مرحباً بك.

وبدأَت تتفرّس فيّ بنظرة طويلة نفّاذة كادت تثير أعصابي!

كانت طفلة بسيطة نسبياً ذات شعر مرسَل رُتِّب في ضفيرتين ولها جبين ناتئ وفك مستدق وعينين رماديتين ذكيتين جداً. قلت: اسمي كولن لامب، فما اسمك؟

أعطتني المعلومة بقوة قائلة: جيرالدين ماري ألكساندرا براون.

قلت: يا إلهي، إنه اسم طويل جداً! وماذا ينادونك؟

- جيرالدين، وأحياناً جيري، لكني لا أحب ذلك. والدي لا تعجبه المختصَرات.

من أهم فوائد التعامل مع الصغار أن لديهم منطقهم الخاص، فأي شخص في سن الرشد كان سيسألني حالاً عمّا أريد، أما جيرالدين فقد كانت مستعدة تماماً لخوض الحديث دون الرجوع إلى أسئلة تافهة. كانت وحيدة ضَجِرة، وكان حضور أي زائر بادرة مقبولة. وما لم أثبت أنني زائر مملّ وغير مُسَلّ فإنها ستكون مستعدة للحديث تماماً.

قلت لها: أظن أن والدك خارج المنزل، أليس كذلك؟

ردّت بنفس القوة والتفصيل اللذين تحدثت بهما تواً وقالت: كارتنغهافن للأشغال الهندسية في بيفربريدج، ويبعد أربعة عشر ميلاً وثلاثة أرباع الميل عن هذا المكان بالضبط.

- وأمك؟

قالت دون أن يتلاشى ابتهاجها: أمي ميتة، ماتت عندما كنت رضيعة وسنّي شهران. كانت قادمة من فرنسا في طائرة فتحطمت ومات الجميع.

كانت تتحدث باقتناع، فأدركت بأن الطفلة عندما تكون

أمها قد ماتت فإنه يعكس عليها نوعاً من الجد إذا كانت قد قُتلت في حادثة كاسحة مدمرة. قلت: لقد فهمت، وهكذا فإن لديك...

ونظرتُ نحو الباب فقالت: تلك هي إنغريد، إنها من النرويج. لقد مضى عليها هنا أسبوعان فقط ولا تعرف أي شيء من الإنكليزية لتتحدث بها بعد. أنا أعلّمها الإنكليزية.

- وهل تعلمك النرويجية؟

- ليس كثيراً.

- هل تحبينها؟

- نعم، إنها طيبة وتطبخ أشياء غريبة في بعض الأحيان. هل تعلم أنها تحب أكل السمك النيئ؟!

قلت: لقد أكلتُ السمك النيئ في النرويج، وهو لذيذ جداً في بعض الأحيان.

بدا على جيرالدين أنها تشك في ذلك كثيراً وقالت: إنها تحاول عمل كعكة محلاة هذا اليوم.

- هذا شيء جميل.

- أجل، فأنا أحب الكعك المحلّى.

ثم أضافت بأدب: هل جئتَ لتناول الغداء؟

- ليس بالضبط، ففي الحقيقة كنت ماراً من الأسفل وأعتقد أنك أسقطتِ شيئاً من النافذة.

- أنا؟

- نعم.

قدمت لها سكين الفواكه الفضية، فنظرت إليها بشيء من الشك في البداية ثم بعلامات القبول وقالت: إنها لطيفة نسبياً.

- إنها سكين فواكه.

وفتحتُها لها فقالت: آه، لقد فهمت، أنت تعني أن بإمكانك تقشير التفاح بها وأشياء من هذا القبيل؟

- أجل.

فتنهدت جيرالدين وقالت: ولكنها ليست لي، لم أسقطها أنا. ما الذي جعلك تظن أنني فعلت ذلك؟

- حسناً، لقد كنتِ تُطلّين من النافذة و...

قالت جيرالدين: أنا أطلّ من النافذة في أغلب الأوقات، فقد وقعتُ وكُسِرَت ساقي كما ترى.

- حظ سيئ.

- أجل، أليس كذلك؟ لقد انكسرَت بطريقة لا تسر. كنت أخرج من الحافلة فتحركَت فجأة... لقد آلمتني نسبياً في البداية وأوجعَتني بعض الشيء، أما الآن فلا.

- لا بد أن ذلك مُملّ بالنسبة لك.

- أجل، ولكن أبي يجلب لي أشياء كثيرة: صلصالاً وكتباً وأقلاماً ملوّنة وأشياء من هذا القبيل، ولكني أمل من هذه الأشياء، ولهذا أقضي كثيراً من الوقت أنظر من خلال النافذة بهذا.

وقدّمَت بكثير من الفخر منظاراً زجاجياً فقلت: أتسمحين

لي بأن أنظر؟

أخذتُه منها ووضعتُه على عينَيّ ونظرت من خلال النافذة وقلت بتقدير: إنه رائع.

كان ممتازاً حقاً. إن والد جيرالدين لم يدّخر كلفة إن كان هو الذي جاءها به، فقد كان الصفاء الذي ترى به المنزل رقم ١٩ والبيوت المجاورة له مدهشاً.

أعدته إليها وقلت: إنه ممتاز من الدرجة الأولى.

فقالت جيرالدين مزهوّة: إنه جيد وليس للأطفال ولا لمجرد التظاهر.

- أجل، يمكنني أن أرى ذلك.

- وعندي مفكرة صغيرة...

أرتني إياها وأكملت قائلة: أكتب فيها الأشياء والأوقات. إنها تشبه ملاحظة القطارات. عندي ابن عم اسمه ديك يلعب ملاحظة القطارات، ونحن نلعب بأرقام السيارات أيضاً، هل تعرفها؟ تبدأ بواحدة وتنتظر لترى إلى أي مدى يمكنك أن تصل.

قلت لها: إنها رياضة جيدة نسبياً.

- أجل، هي كذلك، ولسوء الحظ لا تمرّ سيارات كثيرة من هذا الطريق، ولهذا فقد تخليت عن ذلك في الوقت الحالي.

- أعتقد أنك تعرفين كل شيء عن تلك البيوت هناك في الأسفل ومن يسكن فيها وكل ما شابه ذلك.

طرحتُ ذلك بصورة عرَضية، لكن جيرالدين كانت سريعة

الرد فقالت: آه، أجل، أنا لا أعرف أسماءهم الحقيقية طبعاً ولهذا فقد أطلقت عليهم أسماء من عندي.

- لا بد أن هذا مُسَلٍّ جداً.

قالت جيرالدين وهي تشير: تلك هي المركيزة كاراباس هناك تحت، ذلك البيت المليء بالأشجار المتشابكة، لديها الكثير والكثير من القطط.

- لقد كنت أكلم أحدها من قبل قليل، قطاً برتقالي اللون.

قالت جيرالدين: أجل، لقد شاهدتك.

- لا بد أنك ذكية جداً، ولا أعتقد أن هناك شيئاً يخفى عليك، أليس كذلك؟

تبسمت جيرالدين بسرور في حين فتحت إنغريد الباب ودخلت تلهث قائلة بلكنتها الأجنبية: هل أنت بخير؟

قالت جيرالدين بحزم: نعم، أنا بخير تماماً، لا داعي لأن تقلقي يا إنغريد.

فهزت إنغريد رأسها بعنف وأومأت بيدها وهي تقول: أنا أعود، أنا أطبخ.

قالت جيرالدين: حسن جداً، أنت تذهبين. شيء لطيف أن يكون عندك ضيف.

وأوضحت جيرالدين قائلة لي: أعصابها تتوتر عندما تطبخ، أعني عندما تجرب شيئاً جديداً، وفي بعض الأحيان نتناول وجبات متأخرة جداً لهذا السبب. أنا مسرورة لقدومك؛ أمر جميل أن يكون معك مَن يسليك، فعندها لا تفكر في الجوع.

قلت لها: أخبريني المزيد عن الناس في تلك البيوت وما ترينه. مَن الذي يعيش في البيت الأنيق المجاور؟

- آه، توجد امرأة كفيفة هناك، كفيفة تماماً، ومع ذلك فإنها تمشي بشكل جيد كما لو كانت تستطيع أن ترى. لقد أخبرني البواب هاري بذلك. هاري رجل طيب جداً ويحكي لي أشياء كثيرة، وقد أخبرني عن جريمة القتل.

قلت وأنا أبدو مدهوشاً بقدر مناسب: جريمة القتل!

فأومأت جيرالدين برأسها والتمعت عيناها عند المعلومة التي كانت على وشك البوح بها قائلة: لقد حدثت جريمة قتل في ذلك البيت، لقد رأيتها في الواقع.

- كم هو ممتع ما تقولين!

- أجل، أليس كذلك؟ أنا لم أرَ جريمة قتل من قبل قط، أعني أنني لم أرَ مكاناً حدثت فيه جريمة قتل من قبل.

- وماذا رأيتِ؟

- حسناً، لم يكن يجري شيء كثير في حينها، فهو وقت ساكن من النهار نسبياً كما تعلم، والشيء المثير كان عندما جاء شخص ما مندفعاً خارج البيت وهو يصرخ، عندئذ بالطبع علمت أن شيئاً ما لا بد أنه قد حدث.

- مَن الذي كان يصرخ؟

- امرأة ما، كانت شابة جميلة حقاً. خرجَت من الباب وصرخت ثم صرخت، وكان رجل قادماً عبر الطريق فخرجَت من البوابة وتشبثت به... هكذا.

وقامت بحركة بذراعَيها، ثم رمقتني بنظرة فاحصة وقالت: لقد كان يشبهك!

قلت لها: لا بد أن لي توأماً. وماذا حدث بعد ذلك؟ إنها قصة شيقة!

- حسناً، يبدو وكأنه أقعدها هناك على الأرض ثم رجع داخلاً البيت، وكان الإمبراطور (ذلك هو الهر البرتقالي، وأسميه الإمبراطور لأنه يبدو مزهواً جداً) قد توقف عن تنظيف نفسه وكان يبدو دَهِشاً جداً، فخرجَت الآنسة بايكستاف من بيتها رقم ١٨ ذلك الذي هناك، خرجَت ووقفت على العتبة تشاهد.

- الآنسة بايكستاف!

- أسميها الآنسة بايكستاف لأنها بسيطة جداً. إن لديها أخاً وهي تستأسد عليه.

فقلت لها مستمتعاً: هيا، استمري.

- ثم حدثت أشياء عديدة من كل نوع، فخرج الرجل من البيت ثانية و... هل أنت متأكد أنه لم يكن أنت؟

قلت بتواضع: أنا عادي الشكل جداً والكثيرون يشبهونني.

قالت جيرالدين بلا مداهنة نسبياً: أجل، أعتقد أن هذا صحيح. حسناً، على أية حال هُرع هذا الرجل نحو الشارع واتصل من كشك الهاتف هناك وبدأ الشرطة بالوصول في الحال.

التمعت عيناها وواصلت تقول: وصل الكثير من الشرطة، وقد نقلوا الجثة بعيداً بواسطة سيارة الإسعاف، وكان هناك عدد كبير من الناس طبعاً في ذلك الوقت يحدقون كالعادة، ورأيت هاري

هناك أيضاً. إنه بوّاب هذه الشقق، وقد حدثني عن ذلك فيما بعد.

- هل أخبرك من الذي قُتل؟

- لقد قال فقط إنه رجل لم يعرف اسمَه أحد.

- هذا ممتع جداً.

قلت ذلك ودعوت الله بحرارة أن لا تختار إنغريد تلك اللحظة لتأتي بالكعكة المحلاة اللذيذة أو أي طعام آخر شهي، ثم قلت لجيرالدين: ولكن أرجوك عودي إلى الوراء قليلاً، أخبريني عمّا حدث قبل ذلك. هل رأيتِ ذلك الرجل الذي قُتل؟ هل رأيته يصل إلى البيت؟

- لا، لم أرَه، وأعتقد أنه كان هناك طول الوقت بالتأكيد.

- هل تقصدين أنه كان يسكن هناك؟

- لا، لا أحد يسكن هناك سوى الآنسة ببمارش.

- إذن فأنت تعرفين اسمها الحقيقي.

- أجل؛ لقد نُشر عن الجريمة في الصحف، والفتاة الصارخة كانت تُدعى شيلا ويب، وقد أخبرني هاري أن الرجل الذي قُتل كان اسمه السيد كاري. اسم مضحك، أليس كذلك؟ يشبه اسم الشيء الذي نأكله. وقد حدثَت جريمة ثانية كما أظنك تعلم، ليس في نفس اليوم بل بعد ذلك، في كشك الهاتف هناك في نهاية الشارع. يمكنني رؤيته تماماً من هنا، ولكن عليّ أن أُخرج رأسي من النافذة وأديره طبعاً. لم أشاهد ذلك في الحقيقة لأنني... أعني أني لو كنت أعلم بأنها ستحدث لنظرتُ من خلال النافذة، ولكن لم أكن أعلم أنها ستحدث طبعاً ولذلك لم أفعل. كان عدد كبير من الناس صباح ذلك

اليوم واقفين في الشارع وينظرون إلى البيت المقابل. أعتقد أن القيام بذلك أمر سخيف، أليس كذلك؟

قلت لها: نعم، سخيف جداً.

وهنا ظهرت إنغريد مرة أخرى وقالت مُطَمئنة: أعود أنا حالاً، أعود أنا بسرعة جداً الآن.

وغادرت من جديد، فقالت جيرالدين: نحن في الحقيقة لا نريدها؛ فهي كثيرة القلق تجاه الوجبات، وبالطبع فهذه هي الوجبة الوحيدة التي عليها أن تُعِدّها ما عدا الإفطار، وفي المساء يذهب أبي إلى المطعم ويطلب إرسال شيء لي من هناك... سمك أو شيء من هذا فقط وليس عشاء حقيقياً.

كانت الكآبة بادية في صوتها فسألتها: متى تتناولين غداءك يا جيرالدين؟

- أتقصد عشائي؟ هذا هو عشائي؛ أنا لا أتناول الغداء في المساء فهو العشاء. حسناً، أنا في الحقيقة أتناول عشائي حينما تكون إنغريد قد أعدته. إنها مضحكة فيما يخص الوقت؛ فهي ملزَمة بإعداد الإفطار في الوقت المناسب لأن أبي يصبح نكِداً جداً، أما وجبة منتصف النهار فنتناولها في أي وقت، فأحياناً نتناولها في الساعة الثانية عشرة وأحياناً لا نتناولها حتى الساعة الثانية. تقول إنغريد: لا تتناولي الوجبات في وقت محدد، بل تناوليها عندما تكون جاهزة.

قلت: حسناً، إنها فكرة سهلة. متى تناولتِ غداءك، أعني عشاءك، في يوم الجريمة؟

- كان ذلك أحد أيام تناول العشاء في الثانية عشرة! تخرج

إنغريد في ذلك اليوم فتذهب إلى دار العرض أو لتصفيف شعرها وتأتي السيدة بيري لتؤنسني. إنها فظيعة حقاً، فهي تربّت علي.

سألتها متحيّراً بعض الشيء: تربت عليك!

- نعم، على الرأس، وتقول أشياء من قبيل «عزيزتي الصغيرة»... إنها ليست شخصاً يمكنك أن تُجري معه أي حديث مناسب، لكنها تجلب لي الحلوى ومثل هذه الأشياء.

- كم سنك يا جيرالدين؟

- عشر سنوات، عشر سنوات وثلاثة أشهر.

- تبدين لي جيدة جداً في المحادثة الذكية.

فقالت جيرالدين بجِدّ: ذلك لأن عليّ أن أتحدث مع أبي كثيراً.

- إذن فقد تناولتِ عشاءك في وقت مبكر في يوم الجريمة؟

- أجل، لذلك فقد تتمكن إنغريد من الاغتسال والانتهاء من العمل بعد الساعة الواحدة تماماً.

- وهكذا فقد كنتِ تنظرين من خلال النافذة في ذلك الصباح وتراقبين الناس؟

- أجل، لبعض الوقت، فقبل ذلك في نحو العاشرة كنت أحلّ جدول الكلمات المتقاطعة.

- لقد كنتُ أتساءل عمّا إذا كنتِ... ربما شاهدتِ السيد كاري يدخل البيت.

هزّت رأسها وقالت: لا، لم أفعل. هذا غريب، أُقر بذلك.

- حسناً، ربما وصل هناك باكراً جداً؟

- لم يذهب إلى الباب الأمامي ليدق الجرس، وإلا لكنتُ شاهدته.

- ربما دخل من خلال الحديقة، أعني من الجهة الأخرى من المنزل.

قالت جيرالدين: لا، فظهره لتلك المنازل ولن يقبلوا بدخول أي شخص من خلال حدائقهم.

- أجل، أجل، أعتقد أنهم لن يقبلوا.

فقالت جيرالدين: تمنيت لو أعرف شكله!

- حسناً، كان كبير السن في نحو الستين وكان حليقاً تماماً ويرتدي بدلة رمادية قاتمة.

هزت جيرالدين رأسها وقالت بشيء من الرفض: يبدو عادياً جداً.

فقلت لها: على أية حال أعتقد أن من الصعب عليك أن تتذكري وتميزي يوماً عن آخر وأنت مستلقية هنا وتنظرين باستمرار.

أجابت على التحدي قائلة: هذا ليس صعباً أبداً؛ فبإمكاني أن أحكي لك كل شيء عن ذلك الصباح، فأنا أعرف متى جاءت السيدة كراب ومتى غادرت.

- تلك هي المرأة التي تنظّف، أليس كذلك؟

- بلى، إنها تهرول دائماً، وعندها ولد صغير تأتي به معها أحياناً، لكنها لم تفعل في ذلك اليوم. ومن ثَم خرجت الآنسة

ببمارش في الساعة العاشرة تقريباً، فهي تذهب لتعليم الأطفال في مدرسة للمكفوفين لأن الآنسة ببمارش لا يمكنها أن ترى، أما السيدة كراب فتغادر في الساعة الثانية عشرة، وأحياناً يكون معها شيء تحمله ولكنه لم يكن معها عندما جاءت. أظنه قطعاً من الزبد والجبن. أنا وإنغريد تخاصمنا قليلاً ذلك اليوم ولهذا لم تكن تكلمني، فأنا أعلمها الإنكليزية وأرادت أن تعرف كيف تقول «حتى نلتقي ثانية» واضطُرت إلى أن تقولها لي بالألمانية. وكنت أعرف تلك العبارة لأنني سافرت ذات مرة إلى سويسرا وكان الناس يرددونها هناك.

- وماذا علّمتِ إنغريد أن تقول؟

أخذَت جيرالدين تضحك بقهقهة عميقة خبيثة، وعندما بدأت تتكلم منعَتها القهقهة من ذلك، وأخيراً تخلصت منها وقالت: علمتُها أن تقول «اذهبي إلى الجحيم»، وقد قالتها للآنسة بلسترود التي تسكن في البيت المجاور، فغضبَت الآنسة بلسترود جداً. وهكذا اكتشفَت إنغريد دعابتي وتكدّرَت مني جداً ولم نتصالح حتى وقت الشاي في اليوم التالي تقريباً.

هضمتُ هذه المعلومة ثم قلتُ: ولهذا فقد ركّزتِ على منظارَيك، أليس كذلك؟

أومأت جيرالدين وقالت: بلى، ولهذا فأنا أعرف أن السيد كاري لم يدخل من الباب الأمامي. أعتقد أنه قد يكون دخل بطريقة ما في الليل واختبأ في أعلى المنزل. ألا تظن بأن هذا محتمَل؟

قلت: أظن حقاً أن كل شيء ممكن، لكنه لا يبدو محتمَلاً في نظري.

- أنت على صواب، فلا بد أنه كان سيجوع، أليس كذلك؟ وما كان ليمكنه أن يطلب الإفطار من الآنسة بيمارش؛ كيف وهو يتخفى منها؟

- وما من أحد جاء إلى المنزل؟ لا أحد إطلاقاً؟ ما من أحد في سيارة؟ ولا بائع أو زوار؟

- يأتي البقّال يومَي الإثنين والخميس، وبائع الحليب يأتي في الثامنة والنصف صباحاً.

كانت الطفلة دائرة معارف مفيدة، وأضافت قائلة: القرنبيط ومستلزمات الطعام تشتريها الآنسة بيمارش بنفسها، ولم يأتِ أحدٌ عدا المصبغة، وهي مصبغة جديدة.

- مصبغة جديدة!

- نعم، المصبغة المعروفة هنا هي مصبغة ساذرن داونز، وأغلب الناس يتعاملون معها، ولكن في ذلك اليوم جاءت سيارة مصبغة جديدة هي مصبغة سنوفليك. لم أرَ هذه المصبغة قط؛ لا بد أنها قد افتُتِحَت حديثاً.

جاهدتُ بشدة لكي أبعد أي اهتمام زائد عن لهجتي، إذ لم أكن أريدها أن تنطلق في رواية القصص فسألتها: هل كانت تسلّم الغسيل أم تريد استلامه؟

فقالت جيرالدين: بل تسلّمه، في سلة كبيرة جداً أيضاً أكبر بكثير من السلة المعتادة!

- هل نقلَتها الآنسة بيمارش إلى الداخل؟

- لا، طبعاً لا، إذ إنها كانت قد خرجت ثانية.

- متى حدث هذا يا جيرالدين؟

قالت بفخر: في الساعة ١:٣٥ بالضبط، لقد دونت ذلك.

وتحركت نحو كراسة ملاحظات صغيرة ففتحتها وأشارت بسبابة قذرة إلى فقرة مدوَّنة مكتوب فيها: «١:٣٥ جاءت المصبغة إلى رقم ١٩».

- يجب أن تنضمّي إلى شرطة سكوتلنديارد!

- هل لديهم مخبرات من الفتيات؟ أحب ذلك كثيراً، لا أقصد امرأة شرطية، فأنا أعتقد أن الشرطيات بليدات.

- لم تخبريني بعد بالضبط بما حدث عندما وصلت المصبغة.

- لم يحدث شيء. فقط نزل السائق وفتح باب السيارة فأخرج سلته وسحبها على امتداد الممر الجانبي للمنزل إلى الباب الخلفي، وأعتقد أنه لم يدخله لأن الآنسة بيمارش قد تقفله، لهذا قد يكون تركها هناك وعاد.

- ما أوصافه؟

- عادي تماماً.

سألتها: مثلي؟

- آه، لا، بل أكبر منك بكثير، لكنني لم أرَه بشكل صحيح لأنه اتجه نحو المنزل بهذا الاتجاه.

وأشارت إلى اليمين وهي تكمل قائلة: وتوقف أمام رقم ١٩ رغم أنه كان على الجانب الخاطئ من الطريق، لكن لا أهمية لذلك

في مثل هذا الشارع. بعد ذلك دخل من البوابة منحنياً على السلّة فلم أرَ سوى مؤخرة رأسه، وعندما خرج من جديد كان يمسح وجهه. أعتقد أنه وجد حَمل تلك السلة مرهقاً.

- وبعد ذلك ابتعد بسيارته من جديد؟

- نعم. لماذا تعتقد أن هذا مثير للاهتمام؟

- لا أدري. لقد ظننتُ أنه ربما شاهد شيئاً مثيراً للاهتمام.

فتحت إنغريد الباب بعنف وهي تدفع عربة الطعام وقالت بلكنتها الأجنبية وقد أشرق وجهها: نحن نأكل عشاء الآن.

هتفت جيرالدين: جيد جداً؛ أنا أتضور جوعاً.

فنهضتُ وقلت: ينبغي أن أذهب الآن، وداعاً يا جيرالدين.

- وداعاً! وماذا عن هذا الشيء؟

التقطَت سكين الفاكهة وقالت بصوت حزين: إنها ليست لي، كنت أتمنى ذلك.

- يبدو أنها لا تخص أحداً بشكل خاص، أليس كذلك؟

- وهل سيكون هذا بمثابة العثور على كنز؟

- شيء من هذا القبيل، وأعتقد أنه خير لك أن تحتفظي بها، أي احتفظي بها حتى يطالب بها شخص ما.

ثم قلت بصدق: لكنني لا أعتقد أن أحداً سيفعل ذلك.

* * *

الفصل السادس والعشرون

فتحت السيدة رايفل باب مقهى بيكوكس آرمز وتقدمَت نحو منصة الخدمة بخطى متعثرة بعض الشيء. كانت تغمغم لنفسها، وقد رحب بها صاحب المقهى بحرارة حيث لم تكن غريبة في هذا المكان وقال: كيف حالك يا فلو؟ كيف تجري الأمور؟

قالت السيدة رايفل: ليست على ما يُرام. هذا ليس عدلاً، بل هو غير صحيح، وأنا أعرف عمّ أتكلم يا فرد وأؤكد أنه ليس صواباً.

قال فرد مهدّئاً: طبعاً هو غير صحيح. لكن ما الموضوع؟ أود أن أعرف.

ثم دخل عميل آخر فابتعد فرد ليلبي طلبه. وكانت السيدة رايفل ما تزال تغمغم ولكن بتعبير أفضل مزاجاً، وعندما اقترب منها فرد مرة أخرى خاطبته ثانية بأسلوب أكثر نعومة قائلة: لا فرق، فلن أتحمل ذلك، لن أتحمله! إن كنت لا أطيق شيئاً فهو الخديعة. لا يمكنني تحمل الخديعة، لم أفعل هذا قط.

قال فرد: طبعاً لم تفعلي.

وعاينها بنظرة خبيرة وهو يقول في نفسه: لا بد أن شيئاً ما قد أغاظها.

قالت السيدة رايفل: الخديعة... غدر، غدر!

قال فرد: أنت على حق.

ثم التفت ليحيّي عميلاً آخر، في حين بقيَت السيدة رايفل تتمتم قائلة: لا أحب ذلك ولن أتحمله. لا يحق للناس أن يستمروا في معاملتي بهذا الطريقة، لا يحق لهم بالتأكيد... أعني أنه ليس من الصواب. إن لم تدافع عن نفسك فمَن ذا الذي سيدافع عنك؟

تساءل فرد عمّا أغاظ السيدة رايفل إلى ذلك الحد، فقد كانت معتدلة المزاج عادة وكثيرة المرح. وأكملت قائلة: إذا طلب منك الناس القيام بعمل ما فعليهم أن يخبروك بكل شيء يتعلق به، عليهم أن يحيطوك علماً بما يعنيه وما يفعلونه... كذّابون، كذَابون قذرون! هكذا أقول، ولن أطيق ذلك.

قال فرد عندما رأى الدمع يكاد ينهمر من عينيها: لو كنتُ مكانك لذهبت من فوري إلى البيت؛ يبدو أن المطر سيهطل قريباً، وبغزارة أيضاً، وستُتلفين قبعتك الجميلة هذه.

ابتسمت السيدة رايفل ابتسامة امتنان واحدة وقالت: لطالما أحببت هذا النوع من القبعات. آه، يا إلهي! لا أعرف كيف سأتصرف.

قال صاحب المقهى بلطف: لو كنت مكانك لذهبت إلى البيت واستمتعت بنوم عميق.

- حسناً، ربما، ولكن...

- هيا الآن، فلستِ تريدين إتلاف هذه القبعة.

- هذا صحيح، نعم؛ إنها فكرة وجيهة، شكراً يا فرد.

- على الرحب والسعة.

انزلقت السيدة رايفل عن مقعدها وسارت نحو الباب.

قال أحد الزبائن: لا بد أن شيئاً ما قد أغاظ فلو العجوز هذه الليلة.

وقال شخص آخر كئيب المظهر: إنها امرأة مرحة عادة، لكننا جميعاً لنا ظروفنا المتباينة.

كانت السيدة رايفل قد غادرت مقهى بيكوكس آرمز ونظرت حائرة إلى السماء. نعم، قد تمطر بالفعل. سارت على امتداد الشارع وهي تحث الخطى قليلاً، وانعطفت نحو اليسار ثم إلى اليمين حيث توقفت أمام بيت قذر نسبياً، وبينما هي تُخرج مفتاحاً وترتقي الدرجات الأمامية تناهى إلى سمعها صوت امرأة تتكلم من الأسفل، وأطلّ رأس من ركن الباب ورفع بصره إلى أعلى قائلاً: سيد محترَم ينتظرك في الطابق الأعلى.

- ينتظرني أنا؟!

كانت السيدة رايفل متعجبة بعض الشيء فقالت محدثتها: حسناً، يمكن القول بأنه سيد محترَم فهو حسن الهندام.

صعدت السيدة رايفل الدرَج، ثم دفعت الباب في الدور الأول ودخلت، لكنها توقفت في المكان مدهوشة، ثم تراجعت خطوة وقالت: آه، هذا أنت!

نهض المفتش هاردكاسل من كرسيه حيث كان يجلس وقال: مساء الخير يا سيدة رايفل.

- ما الذي تريده؟

قالت ذلك برقة أقل مما اعتادت أن تبديها، فقال المفتش هاردكاسل: حسناً، لقد اضطُررت للقدوم إلى لندن في مهمة، وقد أردت أن أناقشك في مسألة أو مسألتين، ولذلك جئت على أمل أن أجدك. اعتقدت المرأة في الدور السفلي أنك ستعودين إلى البيت قريباً.

- آه، حسناً، لا أرى... حسناً.

قدّم المفتش هاردكاسل كرسياً وقال بأدب: تفضلي بالجلوس.

بدا أن موقعَيهما قد تبدّلا ليكون هو المضيف وتكون هي الضيفة! جلست السيدة رايفل تحدق إليه بغلظة وقالت: ماذا كنت تعني بقولك «مسألة أو مسألتين».

- نقاط صغيرة، نقاط صغيرة برزت.

- أتعني عن هاري؟

- نعم.

قالت السيدة رايفل وقد لاح في صوتها شيء من الضراوة: لقد كنت مرتبطة بهاري ذات يوم، ولا أريد التفكير به بعد الآن. لقد جئتكم عندما رأيت صورته في الصحيفة، أليس كذلك؟ جئت وأبلغتكم عنه. لقد حدث ذلك منذ فترة طويلة ولا أريد أن يذكّرني أحد به، ولا شيء عندي أكثر من ذلك لأخبركم به. لقد أخبرتكم بكل ما استطعتُ أن أتذكره ولا أريد الآن أن أسمع المزيد عن هذا الأمر.

قال المفتش هاردكاسل وهو يتحدث بلطف واعتذار شديدين: إنها نقطة صغيرة جداً.

فقالت السيدة رايفل بخشونة نسبياً: آه، حسناً جداً، ماذا لديك؟ دعنا ننتهِ من ذلك.

- لقد تعرفتِ على الرجل الذي كنت على علاقة زواج من نوع ما به قبل نحو خمس عشرة سنة، هذا صحيح، أليس كذلك؟

- كان ينبغي عليّ أن أدرك أنك ستتحرى لتعرف كم سنة مضت على ذلك بالضبط.

حدّث هاردكاسل نفسه قائلاً: إنها أذكى مما كنت أتصور!

وواصل كلامه قائلاً: أجل، أنت مُحقة في ذلك تماماً، لقد تحرينا عن الأمر. لقد تزوجتما في الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨.

فقالت السيدة رايفل بانكسار: من سوء الطالع دائماً أن تكون المرأة عروساً في أيار كما يقولون؛ لم يجلب لي ذلك أيّ حظ سعيد.

- ولكن على الرغم من السنوات الطويلة التي انقضت فقد كنتِ قادرة على معرفة زوجك بسهولة تامة.

تململت السيدة رايفل بشيء من عدم الارتياح وقالت: لم يكبر كثيراً؛ كان هاري يعتني بنفسه دائماً وكان مثابراً على ذلك.

- وكنتِ قادرة على تزويدنا بأوصاف إضافية، فقد كتبتِ إلينا لتخبرينا عن ندبة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، كانت خلف أذنه اليسرى، هنا.

وأشارت السيدة رايفل بيدها إلى الموضع فشدد هاردكاسل على الكلمة قائلاً: خلف أذنه اليسرى؟

بدت مرتابة لحظة وقالت: حسناً، نعم، أظن ذلك... نعم، أنا متأكدة من ذلك. بالطبع فالمرء لا يعرف أبداً يسار الشخص من يمينه وهو في عجالة، أليس كذلك؟ لكن... نعم، كانت في الجهة اليسرى من رقبته، هنا.

ووضعت يدها على نفس الموضع ثانية فقال هاردكاسل: وقد فعل ذلك في أثناء الحلاقة كما تقولين، أليس كذلك؟

- بلى، فقد قفز الكلب عليه. كان لدينا كلب شديد النشاط وكثيراً ما يقفز مندفعاً، كلب ودود. قفز ذات مرة على هاري وكانت الشفرة في يده فجرحَته جرحاً عميقاً ونزف كثيراً، وقد التأم الجرح، لكنه لم يفقد هذا الأثر قط.

كانت قد أصبحت تتكلم بتأكيد أكثر، فقال لها: هذه نقطة ثمينة جداً يا سيدة رايفل على أية حال، فقد يكون رجل ما شبيهاً جداً برجل آخر في بعض الأحيان، وخاصة بعد مرور سنوات عديدة، ولكن أن تجدي رجلاً مشابهاً جداً لزوجك ولديه ندبة في المكان المحدد نفسه... حسناً، هذا يجعل التعرف سهلاً وسليماً، أليس كذلك؟ يبدو أنه ما زال لدينا دليل جيد يمكّننا من بدء العمل.

قالت السيدة رايفل: أنا مسرورة لأنك راضٍ.

- ومتى حدثت هذه الحادثة بالشفرة؟

تأملت السيدة رايفل لحظة قبل أن تقول: لا بد أنها كانت... آه، بعد ستة أشهر من زواجنا، نعم، هكذا كان؛ فقد اشترينا الكلب في ذلك الصيف كما أتذكر.

- إذن فقد حدث ذلك في أواخر عام ١٩٤٨، هل هذا صحيح؟

- نعم، هذا صحيح.

- وبعد أن هجرك زوجك في ١٩٥١؟

- إنه لم يهجرني بقدر ما طردته أنا.

قالتها السيدة رايفل معتدّة بكرامتها، فقال هاردكاسل: تماماً، اعتبريها كيفما شئتِ. على أية حال، بعد أن طردتِ زوجك في عام ١٩٥١ لم تشاهديه قط من جديد حتى شاهدتِ صورته في الصحيفة، أليس كذلك؟

- بلى، هذا هو ما قلته لك.

- وهل أنت متأكدة من ذلك تماماً يا سيدة رايفل؟

- بالطبع أنا متأكدة؛ لم تقع عيناي على هاري كاسلتون منذ ذلك اليوم إلى أن رأيته ميتاً.

قال المفتش هاردكاسل: هذا غريب! أتعلمين؟ إنه غريب جداً.

- لماذا؟ ماذا تقصد؟

- حسناً، إنه أمر غامض جداً؛ نسيج الندبة، إنه لا يعني الكثير بالنسبة لك ولي بالطبع، فالندبة هي الندبة، لكن الأطباء يمكنهم أن يقولوا الكثير عنها، فهم يستطيعون أن يبيّنوا كم مضى على ندبة الرجل بصورة تقريبية.

- لا أفهم ما ترمي إليه.

- حسناً، الموضوع يا سيدة رايفل هو أنه استناداً إلى جرّاح الشرطة وطبيب آخر استشرناه فإن نسيج تلك الندبة خلف أذن

زوجك يبيّن بوضوح تام أن الجرح المذكور لا يمكن أن يكون أقدم من خمس سنوات أو ستّ على أبعد الحدود.

قالت السيدة رايفل: هراء، لا أصدق ذلك، أنا... ليس بإمكان أحد أن يقول ذلك. على أية حال فإن ذلك لم يكن عندما...

تابع هاردكاسل بصوت ناعم قائلاً: إذن فكما ترين، إذا كان ذلك الجرح قد تسبب في ندبة قبل خمس سنوات فقط، فهذا يعني أن الرجل الذي كان زوجاً لك لم تكن لديه ندبة عندما هجرك في عام ١٩٥١.

- ربما لم تكن لديه، ولكن بأية حال فهو هاري.

- ولكنك لم تلتقي به منذ ذلك التاريخ يا سيدة رايفل، إذن فكيف عرفت أنه صارت له ندبة قبل خمس سنوات أو ست؟

- أنت تشوّشني، أنت تشوّشني بشدة! ربما لم تكن بهذا القِدَم، فليس بإمكاني تذكّر كل هذه الأشياء... وعلى كل حال فهاري أصيب بتلك الندبة وأنا أعرف ذلك.

- فهمت.

ثم قال هاردكاسل وهو ينهض واقفاً: أعتقد أنه خير لك التفكير في إفادتك تلك بإمعان شديد يا سيدة رايفل؛ فأنت لا تودين التعرض للمتاعب.

- ماذا تعني بالتعرض للمتاعب؟!

قال المفتش هاردكاسل بشيء من الاعتذار: حسناً، اليمين الكاذبة.

- اليمين الكاذبة! أنا؟!

- نعم، إنها مخالفة خطيرة في نظر القانون كما تعلمين، وقد تتعرضين للمتاعب أو حتى للسجن. لم تكوني تحت القسَم القانوني في محكمة التحقيق بالطبع، لكنك قد تُلزَمين بأداء اليمين القانونية على شهادتك هذه في المحكمة المختصة في وقت ما، ولهذا أودّ منك أن تفكري في هذا الأمر ببالغ الحرص يا سيدة رايفل. من المحتمَل أن أحداً عرض عليك أن تروي لنا هذه الحكاية عن الندبة...

نهضت السيدة رايفل ومشقت قامتها منتصبة بكامل طولها وبرقت عيناها، ثم قالت: لم يطرق سمعي مثل هذا الهراء طوال حياتي. هذا هراء تام... أحاول أن أقوم بواجبي فأحضر لمساعدتكم وأخبركم بكل ما يمكنني تذكّره... وإن كنت ارتكبت خطأ ما فأنا متأكدة أن هذا طبيعي، لكنني لا أعتقد أنني ارتكبت خطأ فعلاً.

ثم بدا في عينيها إصرار قوي وهي تكمل قائلة: ذلك الرجل هو هاري، وهاري كانت له ندبة خلف أذنه اليسرى، وأنا متأكدة من ذلك. والآن، لعلك تبتعد عني بدلاً من أن تأتي هنا لتدّعي أنني كنت أكذب يا حضرة المفتش هاردكاسل.

نهض المفتش هاردكاسل فوراً وهو يقول: تصبحين على خير يا سيدة رايفل. فكّري في الموضوع جيداً، هذا هو كل شيء.

ردّت السيدة رايفل رأسها إلى الوراء في حين خرج هاردكاسل من الباب، وبخروجه تغيرت حالة السيدة رايفل على الفور، فانهارت الجرأة الرائعة التي في كيانها وبدت خائفة وقلقة وراحت تغمغم: يورّطونني في هذا... يورطونني في هذا! لن... لن أستمر في ذلك، أنا... أنا لن أعرّض نفسي للمشكلات من أجل أي شخص أياً كان. يخبرونني بأشياء فيكذبون عليّ، يخدعونني... هذا رهيب، رهيب جداً!

وظلت تذرع المكان جيئة وذهاباً، ثم حسمت رأيها فأخذت مظلة من الزاوية وخرجت من جديد فسارت إلى نهاية الشارع، ثم ذهبت إلى مكتب البريد حيث دخلته وطلبت عملة معدنية، ثم توجهت إلى كشك الهاتف وطلبت رقماً، ووقفت هناك تنتظر حتى يرد الطرف الآخر على المكالمة.

قالت السيدة رايفل: مرحباً، آه، هذا أنتِ، أنا فلو. لا، أعرف أنك أمرتِني بأن لا أفعل ذلك ولكنني اضطررتُ له. أنت لم تكوني نزيهة معي؛ لم تخبريني قط بما سأتورط فيه، كل ما قلتِهِ أن التعرف على هذا الرجل سيكون وبالاً عليك، ولم أحلم لحظة بأنني سأتورط في جريمة قتل... حسناً، بالطبع ستقولين ذلك، ولكن في كل الأحوال لم يكن ذلك هو الذي قلتِهِ لي... نعم، أظن ذلك، أظن أنك متورطة فعلاً في الأمر بشكل ما... حسناً، أنا لن أتحمل هذا، ها أنا ذا أقول ذلك لك، يدور الآن حديث حول كوني سأُعتبَر بمثابة شريكة في الجريمة أو شيء من هذا القبيل... أنا خائفة، أقولها لك، تطلبين مني أن أكتب وأخبرهم تلك المعلومة عن الندبة ثم يظهر أنه اكتسب تلك الندبة قبل سنتين! وها أنا ذا سأقسم على أنه كان قد اكتسبها عندما هجرني قبل سنوات عديدة، وهذا يُعتبر يميناً كاذبة قد أذهب إلى السجن بسببها... لا، إكرام أحد الناس شيء آخر. حسناً، أعرف ذلك، أعرف أنك دفعتِ لي مقابل ذلك، ولم يكن مبلغاً كبيراً أيضاً... حسناً، لا بأس، سأُصغي إليك ولكنني لن أقوم بـ... حسناً، حسناً، سوف أحافظ على هدوئي... ماذا تقولين؟ كم؟ هذا مبلغ كبير، كيف لي أن أعرف أنك تملكينه أصلاً؟ حسناً، نعم، بالطبع سيكون هناك اختلاف... أتُقسمين أنك لا يدَ لك في ذلك، أعني في قتل أي شخص؟ حسناً، أنا واثقة من أنك لن تفعلي ذلك... بالطبع أنا أدرك ذلك، أحياناً يتورط المرء

مع جماعة من الأشخاص فيتطور الأمر بشدة. حسناً، لا بأس، أنتِ دائماً تجعلين الأشياء تبدو معقولة جداً، نعم، هذا شأنك دائماً... حسناً، لا بأس، سأفكر في الأمر جيداً، لكن يجب الإسراع به... غداً؟ متى؟ نعم، نعم، سأحضر، ولكن لا أريد شيكاً لأن المصرف قد يرفضه. لا أدري حقاً إن كان عليّ أن أستمر في توريط نفسي في هذه الأمور... لا بأس، حسناً، يمكنك أن تقولي ذلك. حسناً، اتفقنا إذن.

خرجت من مكتب البريد وهي تبتسم لنفسها. كان ذلك المبلغ من المال يستحق المخاطرة بمشكلة صغيرة مع الشرطة؛ وهي ليست مخاطرة كبيرة، فكل ما عليها أن تقوله هو أنها قد نسيَت أو لم تستطع أن تتذكر، فالكثير من النساء ليس بمقدورهنّ تذكر ما حدث قبل عام فقط! ستقول بأنها خلطت بين هاري ورجل آخر... نعم، كان بإمكانها التفكير في أشياء كثيرة لتقولها.

كانت السيدة رايفل من النوع الزئبقي بالفطرة، وقد ارتفعت معنوياتها في تلك اللحظة بقدر ما كانت هابطة من قبل، فبدأت تفكر بجدية وتصميم في أول الأشياء التي ستُنفِق فيها المال.

* * *

الفصل السابع والعشرون
(برواية كولن لامب)

قال الكولونيل بيل متذمراً: يبدو أنك لم تحصل على الكثير من تلك المرأة المدعوة رامزي؟

- لم يتوفر الكثير لأحصل عليه.

- أليست عضوة ناشطة؟

- لا يبدو أنها كذلك.

صوّب بيل نظرة فاحصة نحوي وسألني: هل أنت مقتنع؟

- ليس تماماً.

- حسناً، علينا أن نبحث في أي مكان آخر. دع عنك الأهلّة، اتفقنا؟

- نعم.

- كلامك مقتضَب جداً! هل تشكو شيئاً؟

قلت على مهل: أنا لا أُتقِن هذه الوظيفة.

- أتريد مني أن أربّت على رأسك وأقول: «لا عليك»؟

ضحكت رغماً عني، فقال بيل: هكذا أفضل. والآن فيمَ كل ذلك؟ مشكلة مع فتاة كما أظن.

هززت رأسي وقلت: لقد فكرت في ذلك منذ زمن.

فاجأني بيل قائلاً: لقد لاحظت ذلك في الواقع، فالعالَم في حالة مربكة في هذه الأيام والقضايا لم تَعُد واضحة كما كانت. لقد أنجزتَ عملاً من الدرجة الأولى يا فتى فاقنَع به. عُد إلى طحالبك البحرية اللعينة تلك. إنها تعجبك حقاً، أليس كذلك؟

- أنا أجد الموضوع مثيراً.

- أما أنا فأجده بغيضاً. اختلاف مدهش في الطباع، أليس كذلك؟ أعني الأذواق. ماذا عن جريمتك الواضحة تلك؟ أراهنك على أن الفتاة ارتكبتها.

قلت له: أنت مخطئ.

فلوّح بيل بسبابته نحوي بطريقة إرشادية وأبوية قائلاً: ما أقوله لك هو: «كُن مستعداً»، ولا أقصدها بالمعنى الكشفي!

* * *

رحت أمشي في طريق تشيرنغ كروس غارقاً في الأفكار، وعند محطة الأنفاق اشتريت جريدة فقرأت فيها شيئاً مفاده أن امرأة قد انهارت في ساعة شدة الازدحام عند محطة فكتوريا أمس، وقد نُقلت إلى المستشفى، وبعد وصولها إلى هناك تبين أنها قد طُعنت وماتت قبل أن تسترد وعيها، وكان اسمها السيدة مرلينا رايفل.

اتصلتُ بهاردكاسل وسألتُه إن كان ما قرأتُه صحيحاً، فقال في رده على سؤالي: نعم، كما يقولون.

كانت نبرة صوته قاسية ومريرة، وواصل قائلاً: لقد ذهبتُ لمقابلتها الليلة قبل الماضية وقلت لها إن حكايتها عن الندبة لا تلتئم أجزاؤها وإن أنسجة الندبة حديثة نسبياً. كم هي مضحكة الطريقة التي يُخطئ بها بعض الناس بمجرد أن يحاولوا المبالغة في الأمور! لقد دفع أحدهم لتلك المرأة لكي تقول إن الجثة كانت لزوجها الذي هجرها قبل سنوات عديدة، وقد فعلَت ذلك بشكل جيد جداً أيضاً! لقد صدّقتُها تماماً، ولكن ذلك الشخص أراد أن يبدو أكثر ذكاء فجاء بحكاية الندبة الصغيرة التافهة تلك!

- إذن فمرلينا رايفل متورطة تماماً؟

- أنا أشك في ذلك فعلاً. لنفترض أن أحد الأشخاص أو المعارف القدامى يذهب إليها ويقول: اسمعيني، أنا في مأزق صغير؛ لقد قُتل رجل كانت لي معه علاقات عمل، فإذا ما تعرّفوا عليه وانكشفَت كل تعاملاتنا فسوف تكون كارثة حقيقية، ولكن لو أنكِ جئتِ وقلت إن ذلك الرجل هو زوجك هاري كاسلتون الذي هجرك قبل سنوات عديدة فعندئذ ستتلاشى القضية كلها.

- سترفض القيام بذلك بالتأكيد بحجة أنها مغامرة خطيرة.

- في هذه الحالة سيقول ذلك الشخص: "وأين هي المغامرة؟ في أسوأ الأحوال ستقولين إنك أخطأت، وأية امرأة يمكن أن تُخطئ بعد خمس عشرة سنة"، وربما عُرض عند هذه النقطة مبلغ ما من النقود، فتقول السيدة رايفل: "أنا موافقة"، فتصبح بطلة وتفعلها.

- هكذا دون شكوك؟!

- إنها ليست امرأة كثيرة الشكوك.

- ما الذي حدث عندما قابلتَها؟

- لقد أخفتُها، وبعد أن غادرتُ فعلَت ما توقعتُ أن تفعله؛ حاولَت أن تتصل بالرجل أو المرأة التي ورطتها في ذلك. كنت قد كلفتُ شخصاً بتعقبها طبعاً، ذهبَت إلى مكتب للبريد ثم اتصلت من كشك هاتف، ولسوء الحظ لم يكن هو الكشك الذي توقعتُ استخدامه والذي يقع في نهاية شارعها؛ فقد كانت بحاجة إلى قطع معدنية. خرجَت من كشك الهاتف وهي مسرورة تبتسم لنفسها، وأبقيتُها تحت المراقبة فلم يحدث شيء يثير الاهتمام، إلى أن كان مساء أمس حين ذهبَت إلى محطة فكتوريا وقطعَت تذكرة إلى كراودن. كانت الساعة السادسة والنصف حيث يشتد الزحام ولم تكن منتبهة، وكانت تعتقد أنها ستقابل شخصاً ما في كراودن، لكن الشيطان الماكر كان على بُعد خطوة منها! إن من أسهل ما في الدنيا الاختباء وراء شخص في جمهور وغرس سكين في ظهره! ولا أعتقد أنها علمت أصلاً بأنها قد طُعنت ولا الناس يعلمون. هل تتذكر قضية بارتون التي حدثت في عملية السطو التي قامت بها عصابة ليفيتي؟ سار على امتداد الشارع بطوله قبل أن يقع ميتاً. مجرد ألم حاد مفاجئ ثم تتصور أنك بخير ثانية... لكنك لا تكون كذلك، فأنت ميت واقف رغم أنك لا تدري!

لم أستطع منع نفسي من أن أسأله قائلاً: هل قمت بالتحقق من أي شخص؟

جاء جوابه سريعاً وحاداً فقال: المرأة المدعوة بمارش كانت في لندن أمس حيث أنجزَت عملاً للمعهد، وقد عادت إلى كراودن في قطار الساعة السابعة وأربعين دقيقة.

توقف عن الكلام قليلاً ثم أردف قائلاً: شيلا ويب أخذت كراسة مطبوعة لتراجعها مع مؤلف أجنبي كان موجوداً في لندن وهو

في طريقه إلى نيويورك، وقد غادرَت فندق ريتز في الساعة الخامسة والنصف تقريباً ودخلت إحدى دور العرض وحدها قبل أن تعود.

قلت: اسمعني يا هاردكاسل، فعندي لك خبر أكّدته شاهدة عيان. لقد توقفَت عربة نقل المصبغة أمام المنزل رقم ١٩ في هلال ولبراهام في الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة يوم التاسع من أيلول (سبتمبر)، وقام سائق العربة بنقل سلة غسيل كبيرة إلى الباب الخلفي للمنزل، وكانت سلة مصبغة كبيرة جداً.

- مصبغة! أية مصبغة؟

- مصبغة سنوفليك. هل تعرفها؟

- لا أدّعي ذلك، فالمصابغ الجديدة تفتح دوماً، وهو اسم عادي لمصبغة.

- حسناً، تحقّق من ذلك. كان يقودها رجل، وقام رجل آخر بنقل السلة إلى البيت.

جاء صوت هاردكاسل قوياً ومرتاباً فجأة قائلاً: هل تختلق هذا يا كولن؟

- لا، لقد أخبرتك بأن عندي شاهد عيان. تحقق يا ديك وانصرف إلى ذلك.

وأغلقت الهاتف قبل أن يواصل هاردكاسل مضايقتي أكثر، ثم خرجت من كشك الهاتف ونظرت إلى ساعتي. كان أمامي عمل كثير فأردتُ أن أكون بعيداً حيث لا يستطيع هاردكاسل أن يتصل بي حتى أنتهي منه، فعندي إعدادات للحياة المستقبلية.

* * *

الفصل الثامن والعشرون
(برواية كولن لامب)

بعد خمسة أيام من هذا الحديث وصلتُ إلى كراودن في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وتوجهت إلى فندق كلارندون فاستأجرت غرفة وذهبت لأنام. كنت قد تعبت الليلة السابقة فنمت طويلاً ولم أستيقظ حتى العاشرة إلا ربعاً، حيث طلبت قهوة وخبزاً محمصاً وصحيفة الصباح، فجاء الطلب برفقة مظروف كبير معنوَن إليّ وعليه كلمة «باليد» في الزاوية العُليا اليسرى. تفحصتُه بشيء من الدهشة لأنه لم يكن متوقَّعاً. كان من نوعية فاخرة وقد طُبع العنوان الخارجي بعناية، وبعد أن قلبته فتحته فوجدت في داخله ورقة طُبعت عليها بأحرف كبيرة هذه الكلمات: «فندق كرليو، الساعة ١١:٣٠، الغرفة رقم ٤١٣، اطرق ثلاث مرات».

حدقت إليها وقلّبتها في يدي... ما هذا؟! لاحظت أن رقم الغرفة ٤١٣ كان مطابقاً لتوقيت الساعات! هل هي مصادفة؟ راودتني فكرة الاتصال هاتفياً بفندق كرليو، ثم فكّرت في الاتصال بديك هاردكاسل، ولكنني لم أفعل أياً من الأمرين.

زال الخمول عني فنهضت وحلقتُ واغتسلتُ، ثم ارتديت ملابسي وخرجت. سرتُ على امتداد الواجهة حتى فندق كرليو

فوصلت هناك في الموعد المحدد. كان موسم الصيف قد انتهى في ذلك الوقت فلم يكن في أرجاء الفندق أناس كثيرون. لم أستفسر عند مكتب الاستقبال بل أخذت المصعد إلى الطابع الرابع، ثم مشيت على امتداد الممر إلى الرقم ٤١٣، وهناك وقفت لحظة أو اثنتين، ثم بإحساس كامل بالغباء طرقت ثلاث مرات، فقال صوت: ادخل.

أدرت المقبض الذي لم يكن مقفَلاً، ثم خطوت إلى الداخل وتوقفت مصعوقاً... لقد كنت أنظر إلى آخر مَن أتوقع رؤيته في هذا العالَم!

كان بوارو جالساً أمامي، فأشرق وجهه بابتسامة نحوي وقال: مفاجأة صغيرة، أليس كذلك؟ أتمنى أن تكون مفاجأة سارة.

هتفت: بوارو! أيها الثعلب العجوز! كيف وصلت إلى هنا؟

- في سيارة ليموزين ديملر... قمة الراحة.

- ولكن ماذا تفعل هنا؟

- كان ذلك في ذروة المشقة؛ لقد أصروا، أصروا بالتأكيد على إعادة تزيين شقتي، فتَصوَّر محنتي يا صديقي! تُرى ماذا سأفعل؟ إلى أين أذهب؟

قلت له ببرود: ما أكثر الأماكن!

- هذا ممكن، ولكن طبيبي اقترح بأن نسيم البحر سيكون مفيداً لصحتي.

- لعله واحد من أولئك الأطباء الذين يعرفون أين يريد المريض الذهاب فينصحونه بالذهاب إلى حيث يريد؟

ثم أخرجتُ الرسالة التي تلقيتُها ولوحت له بها وقلت: أأنت بعثت لي بهذا؟

- طبعاً، فمَن يكون غيري؟

- أتُراها مصادفة أن تحصل على غرفة رقمها ٤١٣؟

- ليست مصادفة؛ أنا الذي طلبتها بالذات.

- لماذا؟

أمال بوارو رأسه جانباً وغمزني بعينه قائلاً: لقد وجدت في هذا التصرف ما يعجبني.

- وماذا عن الطَّرَقات الثلاث؟

- لم أستطع مقاومة هذه الفكرة التي خطرت ببالي! وقد فكرت في أن أجرح إصبعي وأبصم بصمة دامية على الباب، ولكن يكفيني ما بي؛ فأخشى أن تصيبني العدوى.

علّقت بفتور قائلاً: أحسب أنك تعيش طفولة ثانية! سأشتري لك أرنباً ذا فرو كثيف عصر اليوم.

- أظن أن المفاجأة لم تسرك؛ إذ لا يبدو عليك السرور ولا الغبطة لرؤيتي.

- وهل كنت تتوقع ذلك مني؟

- ولمَ لا؟ حسناً، فلنكُن جدّيين بعد حماقتي الصغيرة. آمل أن أكون مفيداً؛ لقد دعوت رئيس الشرطة الذي كان في منتهى اللطف، وأنا في انتظار وصول صديقك المفتش هاردكاسل الآن.

- وماذا ستقول له؟

- لقد رأيت أن نشترك نحن الثلاثة في المناقشة.

نظرتُ إليه وضحكت. إنه يدعوها مناقشة، لكنني أعرف مَن الذي سيتولى الحديث... إنه هيركيول بوارو.

* * *

وصل هاردكاسل، وقمنا بالتعارف وتبادل التحيات ثم جلسنا كأصدقاء، في حين كان ديك هاردكاسل يُلقي نظرة متلصّصة بين حين وآخر على بوارو وكأنه رجل واقف في حديقة للحيوان يتفرس في حيوان جديد. وفي الحقيقة فأنا أشكّ في أنه قد قابل أحداً يشبه بوارو قط.

وأخيراً وبعد أن تمّت المجاملات والملاحظات تنحنح هاردكاسل ثم تكلم فقال محتاطاً: أحسب أنك ترغب في الاطلاع على المسألة بأكملها بنفسك يا سيد بوارو، لكن هذا لن يكون سهلاً تماماً.

وتردد ثم أردف قائلاً: لقد أبلغني رئيس الشرطة بأن أفعل كل ما أستطيع لأجلك، ولكن عليك أن تقدّر وجود مصاعب وأسئلة قد تُطرح وإعتراضات... ومع ذلك فما دمتَ قد جئت هنا بصورة خاصة...

قاطعه بوارو قائلاً: لقد جئت هنا بسبب الترميمات وإعادة تزيين شقتي في لندن.

أطلقتُ ضحكة مجلجلة، فرماني بوارو بنظرة تأنيب. قلت: السيد بوارو لا يلزمه أن يذهب ليرى الأشياء بنفسه، فلطالما أصرّ على أن بإمكان المرء إنجاز المسألة كلها وهو جالس على كرسيه

المريح. لكن هذا ليس صحيحاً تماماً، أليس كذلك يا بوارو؟ وإلا فلماذا جئت هنا؟

ردّ بوارو بوقار قائلاً: لقد قلت إنه ليس من الضروري أن تكون كلباً لصيد الثعالب ولا كلباً يتعقب المجرمين ولا كلب مطاردة يجري هنا وهناك باحثاً عن أثر، ولكنني سأُقرّ بالحاجة إلى كلب للملاحقة... رجل متابعة جيد.

ثم التفت ناحية المفتش وهو يفتل شاربه معتدّاً وقال: دعني أخبرك بأنني لست مفتوناً بالكلاب كالإنكليز. يمكنني شخصياً العيش دون كلب، لكنني مع ذلك أتفهم، فالمرء يحب كلبه ويتباهى بذكائه وجسارته أمام أصدقائه... ويمكنك أن تتصور أن العكس يمكن أن يحدث أيضاً؛ فالكلب شغوف بسيده، فهو يدلل ذلك السيد ويتباهى به، بجسارته وذكائه! وكما أن الرجل يحمل نفسه على النهوض لأخذ كلبه في جولة لأن الكلب يحب التجوال فإن الكلب سيحاول كذلك أن يمنح سيده ما تتوق إليه نفسه. هكذا كان الأمر مع صديقي الشاب الطبيب كولن، فقد جاء لزيارتي؛ لا ليستعين بي في حل مشكلته هو، فقد كان واثقاً من أنه سيحلها بنفسه، وأظن أنه قد فعل ذلك. لا، بل لأنه كان مهموماً لأني وحيد ولا عمل لي، ولذلك فقد جاءني بمسألة اعتقد أنها سوف تسلّيني وتوفر لي شيئاً أنشغل به. لقد تحدّاني بها، تحداني في القيام بما ردّدته مراراً وما زعمت أنه يمكنني القيام به، وذلك بأن أجلس مستقراً في كرسي وأحل تلك المسألة في الوقت المناسب.

ثم عقد حاجبَيه وقال بلهجة الخبير: وأتوقع أن يكون وراء ذلك التحدي شيء من النزوة الشخصية، مقدار ضئيل غير مؤذ فقط. فلنقُل إنه أراد أن يثبت لي أن ذلك الأمر لم يكن بتلك السهولة.

ولكنه صحيح بالطبع يا صديقي. لقد أردتَ أن تسخر مني... قليلاً فقط. ولستُ ألومك، فكل ما أقوله هو أنك لم تعرف صاحبك هيركيول بوارو جيداً.

ثم نفخ صدره وفتل شاربه، فنظرتُ إليه وكشرت له بحب ومرح وقلت: حسناً، أعطنا حل المسألة إذن إن كنت تعرفه.

- أنا أعرفه طبعاً.

حدّق إليه هاردكاسل بارتياب وقال: هل تريد القول بأنك تعرف مَن قتل الرجل في المنزل رقم ١٩ ذاك؟

- بالتأكيد.

- وتعرف مَن قتل إدنا برنت أيضاً؟

- طبعاً.

- وتعرف هوية الرجل الميت؟

- أعرف من ينبغي أن يكون.

ارتسمت تعبيرات مرتابة جداً على وجه هاردكاسل، ولكنه بقي محافظاً على أدبه منتبهاً لوجود رئيس الشرطة. إلا أن نزعة الشك ظهرت في صوته حين قال: أرجو المعذرة يا سيد بوارو، أنت تدّعي أنك تعرف من قتل ثلاثة أشخاص، فهل تعرف السبب؟

- نعم.

- إذن فالقضية منتهية؟

- أما هذه فلا.

قلت له بجفاء: أكل ما تعنيه أن لديك هاجساً؟

- لن أخاصمك من أجل كلمة يا عزيزي كولن؛ كل ما أقوله هو أنني أعرف.

قالها ضاغطاً حروف كلمة «أعرف»، فتنهد هاردكاسل وقال: ولكن ينبغي أن أحصل على دليل يا سيد بوارو.

- هذا طبيعي، لكنك تستطيع الحصول على ذلك الدليل من خلال الموارد المتاحة لك كما أعتقد.

- لست متأكداً من ذلك.

- قُل لي يا حضرة المفتش إن كنت تدري حقاً، أليست هذه هي الخطوة الأولى للانطلاق؟ أليس بمقدورك في معظم الأحيان تقريباً أن تواصل من مثل هذه النقطة؟

قال هاردكاسل متنهداً: ليس دائماً، فيوجد أناس يجوبون الأرجاء ينبغي أن يكونوا في السجن، هم يعرفون ذلك ونحن نعرفه.

- ولكن هذا يشكل نسبة ضئيلة، أليس...؟

قاطعته قائلاً: حسناً، حسناً، أنت تعرف، فدعنا الآن نعرف مثلك!

- أستشفُّ من ذلك أنك ما زلت تشك، ولكن دعني أبيّن ما يأتي أولاً: إن معنى أن تكون متأكداً هو أن كل شيء يأخذ مكانه المناسب عندما يتم التوصل إلى الحل الصحيح وتدرك أن الأمور ما كانت لتحدث بأية طريقة أخرى.

قلت: أتوسل إليك أن تنهي ذلك؛ أنا أوافقك على كل نقطة بيّنتها.

عدّل بوارو جلسته بشكل مريح في كرسيه وأشار إلى المفتش بأن يملأ كوبه ثانية وقال: يوجد شيء واحد ينبغي فهمه جيداً يا أصدقائي، فلأجل حل أية معضلة على المرء أن يعرف الحقائق، ومن أجل ذلك يحتاج المرء إلى كلب مطاردة...

قلت مقاطعاً: مَقْبولة!

- ليس بمقدور المرء أن يحلّ قضية وهو جالس على كرسيه من خلال ما يطالعه عنها في الجرائد فقط، لأن حقائق المرء ينبغي أن تكون دقيقة والجرائد نادراً ما تكون دقيقة... إن لم تكن كذلك أبداً؛ فهي تنشر أن شيئاً حدث في الساعة الرابعة في حين أنه حدث في الرابعة والربع، وهي تذكر أن الرجل كانت له أخت تُدعى إليزابيث في حين أنه في الواقع كانت لزوجته أخت تُدعى ألكساندرا... وما إلى ذلك. إن كولن ذو إمكانية متميزة، إمكانية أستطيع القول بأنها تطورت فيه كثيراً في أثناء حياته العملية؛ فلطالما تميز بذاكرة قوية، فهو قادر على أن يُعيد عليك -حتى بعد مضي عدة أيام- ما جرى من محاورات، وبإمكانه أن يُعيدها بدقة دون أن يحورها وفق ما تكوّنه من انطباعات لديه (كما نكاد جميعاً أن نفعل)، فهو لن يقول: "في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة جاء البريد" بدلاً من وصف ما حدث عملياً، فيذكر حرفياً طَرْقاً على الباب الأمامي ودخول أحدهم إلى الغرفة وبيده رسائل... كل هذا مهم جداً، فهذا يعني أنه سمع ما كنت سأسمعه أنا وشاهد ما كنت سأشاهده لو كنت مكانه.

- سوى أن المسكين لم يتوصل إلى الاستنتاجات الضرورية، أليس كذلك؟

تابع بوارو كأنه لم يسمعني: وهكذا وبقدر الإمكان كنت أمتلك الحقائق، أيْ أنني معكم في الصورة. إنه دوركم في المعركة

أن تضعوا المرء في الصورة، أليس كذلك؟ إن الشيء الذي صدمني قبل كل شيء عندما أعاد عليّ كولن القصة كان الميزة التخيّلية لها. أربع ساعات كل واحدة منها متقدمة ساعة واحدة تقريباً عن الوقت الصحيح، وكلها أُدخِلت إلى البيت دون علم صاحبته... أو هكذا زعمت. أقول «زعمت» لأننا لا ينبغي أبداً، لا ينبغي أبداً أن نصدّق ما يُقال لنا حتى نتحقق جيداً من هذا الذي يُقال، أليس كذلك؟

قال هاردكاسل مؤيّداً: ذهنك يعمل بنفس أسلوب ذهني.

مضى بوارو قائلاً: على الأرض تمدد رجل ميت، رجل كبير السن ذو مظهر محترَم ولا أحد يعرف من يكون (أو مرة أخرى: هكذا يقولون)، وفي جيبه بطاقة كُتب عليها «ر. هـ. كاري، شركة متروبولِس وبروفِنْشال المحدودة للتأمين، ٧ شارع دنفرز، لندن». ولكن لا وجود لشارع دنفرز، ويبدو أن لا وجود لشخص باسم السيد كاري. إنه دليل سلبي، لكنه دليل... نحن نزداد تقدماً الآن. في الساعة الثانية إلا عشر دقائق تماماً يرنّ الهاتف في مؤسسة للسكرتارية فتطلب امرأة اسمها الآنسة ميليسنت بيمارش إرسال كاتبة اختزال إلى المنزل رقم ١٩ في هلال ولبراهام في الساعة الثالثة، وقد طلبَت إرسال الآنسة شيلا ويب على وجه التحديد، فتذهب الآنسة ويب فتصل إلى هناك قُبَيل الساعة الثالثة ببضع دقائق، فتدخل غرفة الجلوس بموجب التعليمات فتجد رجلاً ميتاً على الأرض، فتخرج هاربة من البيت وهي تصرخ، وتندفع بين ذراعَي رجل شاب.

توقف بوارو ونظر إليّ، فحنيت رأسي وقلت: ويدخل بطلنا الشاب...

أوضح بوارو قائلاً: أرأيت؟ حتى أنت لا يمكنك أن تقاوم نبرة

مسرحية تهكّمية عندما تتحدث عنها.

ثم نظر إلينا جميعاً وقال: الحكاية بأكملها تمثيلية خيالية وغير واقعية تماماً، وهي أشبه ما تكون بما يمكن أن نقرأه في كتابات مؤلفين مثل غاري غريغسون على سبيل المثال. وأود أن أقول إن صاحبي الشاب أتاني بهذه الحكاية حينما كنت عاكفاً على عدد من كتّاب الروايات المثيرة ممن أبدعوا خلال السنوات الستين الماضية. قمة في الإمتاع! حتى إن المرء يوشك أن يعاين الجرائم الحقيقية في ضوء قصص الجرائم الخيالية... أعني أنني إذا لاحظت أن كلباً لم ينبح حيث كان ينبغي أن ينبح فسوف أقول مع نفسي: "آه، هذه إحدى جرائم شيرلوك هولمز!"، وكذلك إذا عُثر على جثة في غرفة مُقفَلة فسوف أقول بالتأكيد: "آه، إحدى قضايا ديكسون كاري". وأيضاً صديقتي السيدة أريادني أوليفر، فلو كنت بصدد...

قطع بوارو حديثه وقال: لا داعي للمزيد من الأمثلة. هل تدركون قصدي؟ فها هنا إذن خُطط لارتكاب جريمة في ظروف غير محتمَلة أبداً بحيث يشعر المرء فجأة بأن هذا الكتاب لا ينطبق على الواقع، فكل ما فيه مفتعَل. ولكن يا للخسارة! فهذا لن يُجدي هنا لأن القضية واقعية؛ لقد وقعت بالفعل، وهو أمر يدفع المرء إلى التفكير بحماسة: هل حدثت بالفعل أم أنها لم تحدث؟

لم يكن هاردكاسل ليفسر القضية هكذا، لكنه اتفق مع ذلك الرأي وأومأ برأسه بشدة، في حين استطرد بوارو قائلاً: إنها على النقيض من فكرة رواية تشسترتون: «أين تخفي ورقة شجرة؟ في غابة. أين تخفي حصاة؟ على ساحل البحر»؛ أما هنا فلدينا الإفراط، الخيال، التمثيلية! فعندما أقول لنفسي مقلداً تشسترتون: «أين تُخفي امرأةٌ في منتصف العمر جمالَها الآفل؟» فلن أجيب قائلاً: «بين وجوه

أخرى في منتصف العمر آخذة بالأفول»؛ لا، مطلقاً؛ بل هي تُخفيه تحت زينتها، تحت طلاء وجهها مع فرو جميل يلفّها وجواهر حول عنقها وأقراط في أذنَيها... هل أنتم مُصغون إليّ؟

- حسناً.

قالها المفتش وهو يواري حقيقة أنه لم يكن يفعل ذلك. وواصل بوارو كلامه قائلاً: لأن الناس عندئذ سينظرون إلى الفرو والجواهر والزينة والملابس الجميلة ولن يلاحظوا حقيقة المرأة نفسها. هذا هو ما أقوله لنفسي وأقوله لصديقي كولن، فما دامت لجريمة القتل هذه كل تلك الخدع المزيفة لتضليل المرء فلا بد أن تكون قضية سهلة جداً في الحقيقية، أليس كذلك؟

قلت له: بلى، ولكنني ما زلت لا أدري كيف يمكن أن تكون على حق!

- عليك الانتظار من أجل ذلك. إذن نستبعد بعد ذلك «خُدَع» الجريمة تلك وننتقل إلى «الأساسيات». لقد قُتل رجل، فلماذا قُتل؟ ومن يكون؟ الإجابة على السؤال الأول ستعتمد بشكل واضح على إجابة السؤال الثاني، وما لم تحصل على الجواب الصحيح لهذين السؤالين فقد لا يمكنك التقدم. من المحتمَل أن يكون مبتزّاً أو محتالاً أو زوجاً يشكّل وجودُه خطراً بالنسبة إلى زوجته... يمكنه أن يكون عدة أشياء.

وتوقف بوارو هنيهة متفرّساً في وجوهنا، ثم عاد فقال: أغلب ما سمعتُه وما سمعه الجميع يبدو متفقاً على أنه يبدو في مظهره رجلاً عادياً تماماً ميسور الحال كبير السن محترَماً، ولكنني فجأة أقول لنفسي: أتقول بأن هذه الجريمة بسيطة؟ حسناً جداً إذن،

اجعلها كذلك. فليكن هذا الرجل بالضبط كما يبدو عليه، رجلاً كبيراً محترَماً ميسور الحال.

ونظر إلى المفتش وقال: أترى؟

- حسناً.

قال المفتش ذلك ثانية ولزم الصمت بأدب، فأكمل بوارو قائلاً: إذن فلدينا هنا رجل عادي لطيف كبير السن يُعتبَر التخلص منه ضرورة بالنسبة لشخص ما. لكن بالنسبة لمن؟ وهنا يمكننا أخيراً أن نضيق النطاق قليلاً. بالطبع نحن لدينا معرفة عن الآنسة بيمارش وعاداتها وعن مؤسسة كافنديش للسكرتارية وعن فتاة تعمل هناك تُدعى شيلا ويب، ولهذا أقول لصديقي كولن: "عليك بالجيران، تحدّث إليهم، اجمع المعلومات عنهم وعن خلفياتهم... ولكن، وفوق كل شيء، شاركهم الحديث؛ فأنت لا تحصل من خلال المحادثة على مجرد أجوبة لأسئلتك، فالأشياء تُفلت من خلال أحاديث الثرثرة الاعتيادية لأن الناس يكونون حذرين عندما يكون في الموضوع خطر عليهم، ولكن ما إن يشعروا بالاطمئنان إلى حديث عادي حتى يشعروا بالأمان وينساقوا في قول الحقيقة، وهذا أسهل كثيراً من الكذب. وهكذا تُفلت منهم حقيقة واحدة صغيرة تغيّر الأمور كلها دون علمهم.

قلت: هذا عرض أخّاذ بالفعل، لكنه لم يحدث في هذه القضية للأسف.

- لكنه حدث فعلاً يا عزيزي، جملة صغيرة واحدة قليلة الأهمية.

- ماذا؟! من الذي قالها؟ ومتى؟

- في الوقت المناسب يا عزيزي.

قال هاردكاسل بأدب من أجل أن يعيد بوارو إلى الموضوع: أكمل من فضلك يا سيد بوارو.

- لو رسمتَ دائرة حول المنزل رقم ١٩ فكل من هو في نطاقها قد يكون هو الذي قتل السيد كاري: السيدة همينغ، وأسرة بلاند، وأسرة ماك نوتن، والآنسة وترهاوس. ولكن يبقى مَن هُم أكثر أهمية، وهم الذين وُضعوا على مسرح الجريمة؛ فهناك الآنسة بمارش التي يُحتمَل أن تكون قتلته قبل أن تخرج في الساعة الواحدة والنصف تقريباً، والآنسة ويب التي يُحتمَل أنها دبرت اللقاء به هناك فقتلته قبل أن تفر من البيت لتُبلغ عن الجريمة.

فقال المفتش: آه، ها قد وصلت إلى الحقائق الأساسية الآن.

فقال بوارو ملتفتاً نحوي: وأنت يا عزيزي كولن، أنت أيضاً كنت في المشهد باحثاً عن الأرقام الكبيرة حيث توجد أرقام صغيرة.

قلت ناقماً: حقاً! وماذا لديك لتقول بعد؟

هتف بوارو بشموخ: أنا أقول كل شيء.

- ومع ذلك فأنا الشخص الذي يأتي ليملأ حِجرك بالأشياء كلها.

أوضح بوارو قائلاً: القتلة مغرورون في الغالب، أيضاً قد يكون سَرّك أن تمزح على حسابي.

قلت: لو واصلتَ كلامك فسوف تقنعني.

بدأتُ أشعر بعدم الارتياح في حين أكمل بوارو قائلاً: وهنا

قلت لنفسي إن هذه الجريمة لا بد أن تكون بسيطة؛ فوجود ساعات لا صلة لها بالأمر وتقديم الوقت لمدة ساعة والتدابير التي تم اتخاذها عن عمد واضح لاكتشاف الجثة... كل هذا علينا أن نضعه جانباً الآن؛ فهو -كما ورد في القصة الخالدة «أليس في بلاد العجائب» يشبه «الأحذية والسفن والملفوف والملوك...». النقطة الحيوية هي أن رجلاً عادياً كبير السن قد قُتل، وأن شخصاً ما أراد له الموت، فلو عرفنا من يكون الرجل الميت فسيكون ذلك مؤشّراً إلى قاتله. لو كان القتيل مبتزاً فعندئذ علينا البحث عمّن جرى ابتزازه، وإذا كان شرطياً سرياً فعلينا أن نبحث عن رجل يحتفظ بسر إجرامي، وإذا كان رجلاً ثرياً فعندئذ نفتش بين ورثته... لكننا لم نعرف الرجل، ولهذا فلدينا أصعب مهمة للبحث عن رجل لديه دافع للقتل بين هؤلاء الذين يقعون ضمن الدائرة المحيطة.

كان هاردكاسل مصغياً بانتباه شديد عند هذه النقطة، في حين أكمل بوارو قائلاً: وإذا استبعدنا الآنسة بيمارش وشيلا ويب فمَن الذي كان يريد أن يبدو على غير ما هو في الحقيقة؟ كان الجواب مخيباً للآمال، باستثناء السيد رامزي الذي أدركت أنه لم يكن كما يبدو عليه.

وهنا نظر إليّ بوارو متسائلاً، فأومأت برأسي، واستمر في حديثه قائلاً: لقد كان نقاء الجميع أصلياً؛ السيد بلاند بنّاء محلي معروف، وللسيد ماك نوتن كرسي أستاذية في جامعة كامبردج، والسيدة همينغ أرملة لدلّال محلي، وآل وترهاوس سكان محترَمون قدماء... وهكذا نعود إلى السيد كاري: من أين جاء؟ وما الذي جاء به إلى ذلك المنزل في هلال ولبراهام؟ وهنا لي ملاحظة واحدة مهمة جداً أدلَت بها إحدى الجارات وهي السيدة همينغ، فعندما

قيل لها إن الرجل المقتول لم يكن من سكان المنزل رقم ١٩ قالت: "آه، فهمت، لقد جاء هنا لكي يُقتل. غريب جداً!". كانت تمتلك موهبة جعلَتها تصيب كبد المسألة، موهبة يمتلكها في الغالب أناس تلهيهم مشاغلهم الشخصية عن متابعة ما يقوله الآخرون. لقد لخّصَت الجريمة برمّتها: جاء السيد كاري إلى المنزل رقم ١٩ في هلال ولبراهام لكي يُقتل! كان ذلك بمثل هذه البساطة.

قلتُ: لقد أذهلَتني ملاحظتها في حينها.

لم يُعِرني بوارو انتباهاً وأكمل قائلاً: واضح، واضح؛ تعالَ لكي تُقتل، فجاء السيد كاري وقُتل! لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فقد كان من المهم أن لا تُكتشَف هويته، فلم تكن معه حافظة نقود ولا أوراق، وقد أزيلت علامة الخيّاط من ملابسه، إلا أن ذلك لم يكن كافياً؛ فالبطاقة المطبوع عليها «كاري، وكيل تأمين» كانت مجرد تعريف مؤقت، فإذا ما أُريدَ لهويته أن تُطمَس بشكل دائم لوجب عندئذ أن تكون له هوية مزيفة، فقد كنت واثقاً من أن أحدهم سيظهر إن عاجلاً أو آجلاً ليتعرف عليه بشكل صحيح، وهذا سيكون عن طريق أخ أو أخت أو زوجة... وقد كانت الزوجة السيدة رايفل. والاسم في حدّ ذاته كان مثيراً للشك؛ ففي سومرست قرية سبق وأن زرت بعض الأصدقاء على مقربة منها، قرية اسمها كاري رايفل. لقد اختير الاسمان: السيد كاري والسيدة رايفل دونما وعي ودون أن يُعرَف لماذا طُرحا تماماً.

التقط بوارو أنفاسه قبل أن يستطرد قائلاً: إلى هذا الحد والخطة واضحة، لكن ما حيّرني هو السبب الذي جعل القاتل يعتبر عدم التعرف الصحيح أمراً مضموناً؛ فإذا لم يكن للمقتول أسرة فلدينا مالكات الدور والخدم وشركاء العمل على الأقل، وهذا ما أوصلني

إلى الافتراض الثاني، وهو أن عدم افتقاد هذا الرجل كان أمراً مسلَّماً به، وافتراض آخر هو أن الرجل لم يكن إنكليزياً بل كان زائراً لهذا البلد فحسب، وهذا الأمر له صلة وثيقة بأن تحقيقات الأسنان لم تتطابق مع أية ملفات للأسنان هنا. فبدأت أكوّن صورة ضبابية لكل من الضحية والقاتل لا غير. لقد نُفِّذت الجريمة بدهاء، لكن شيئاً من مجرد سوء الحظ وقع هنا الآن، شيء لم يتوقعه القاتل.

سأله هاردكاسل: وماذا كان ذلك؟

وفجأة ردّ بوارو رأسه إلى الوراء وأنشد قائلاً بطريقة تمثيلية:

من أجل مسمار ضاعت الحدوة،
ومن أجل حدوة ضاع الحصان،
ومن أجل حصان ضاعت المعركة،
ومن أجل معركة ضاعت المملكة،
وكل ذلك من أجل مسمار لحدوة حصان!

ثم انحنى إلى الأمام وقال: عدد كبير من الناس يُحتمَل أن يكونوا قَتَلة السيد كاري، لكنّ مَن يُحتمَل قيامه بقتل الفتاة إدنا (أو كان لديه دافع لقتلها) هو شخص واحد فقط.

حدّقنا كلنا إليه فقال: دعونا نأخذ مؤسسة كافنديش للسكرتارية؛ ثماني فتيات يعملن هناك، وفي التاسع من أيلول (سبتمبر) كانت أربع من أولئك الفتيات خارج المكتب في مهمات على مسافة بعيدة، أي أن طعام الغداء قُدِّم لهن من قِبَل مستخدميهنّ الذين ذهبنَ إليهم. أما الأربع الباقيات: شيلا وإدنا وجانيت ومورين فقد خرجن للغداء بين الواحدة والنصف والثانية والنصف. لكن إدنا برنت تعرّضت في ذلك اليوم إلى حادثة بعد مغادرة المكتب بقليل،

فقد انخلع كعب حذائها بمشبك حديدي ولم يكن بمقدورها أن تسير وهي بتلك الحالة، فاشترت كعكاً مُحلّى وعادت إلى المكتب.

وهزّ بوارو إصبعه نحونا مؤكداً وقال: لقد قيل لنا إن شيئاً ما كان يُقلق إدنا برنت، وقد حاولَت أن ترى شيلا ويب خارج المكتب لكنها فشلت، وقد زُعم أن ذلك الشيء كانت له صلة بشيلا ويب، لكن لا يوجد دليل على ذلك، فربما كانت تنوي استشارة شيلا بشأن مسألة كانت تحيّرها، وفي هذه الحالة يتضح شيء واحد، وهو أنها أرادت اللقاء بشيلا بعيداً عن المكتب. إن ما قالته للشرطي عند التحقيق هو المفتاح الوحيد لمعرفة ما كان يقلقها، فقد قالت شيئاً من قبيل: "لا أدري كيف يمكن أن يكون ما قالته صحيحاً". ثلاث نساء أدلين بالشهادة صباح ذلك اليوم، إذن يُحتمَل أن إدنا كانت تشير إلى الآنسة بيمارش، أو أنها كانت تشير إلى شيلا ويب كما زُعم عموماً، لكن يوجد احتمال ثالث، يُحتمل أنها كانت تشير إلى الآنسة مارتنديل.

- الآنسة مارتنديل! لكن شهادتها لم تستغرق سوى بضع دقائق.

- بالضبط، فقد تحدّثَت عن اتصال هاتفي تلقته ممن زعمت أنها الآنسة بيمارش.

- هل تقصد أن إدنا كانت تعلم أن الاتصال لم يكن من الآنسة بيمارش؟

- أعتقد أن المسألة أبسط من ذلك؛ **أنا أرى أنه لم يكن هناك اتصال هاتفي أصلاً.**

استمرّ يتكلم قائلاً: لقد انخلع كعب حذاء إدنا، وكان المشبك

الحديدي الذي خلعه قريباً جداً من المكتب فرجعت إلى المكتب، لكن الآنسة مارتنديل وهي في مكتبها المغلَق لم تعلم أن إدنا قد عادت وظنّت أنه ليس في المكتب سواها، وكل ما كان يلزمها أن تقوله هو أن الاتصال الهاتفي قد جرى في الساعة ١:٤٩، ثم طلبت حضور شيلا إلى مكتبها وأمرتها بالخروج لموعد عمل.

إن إدنا لم تدرك في بادئ الأمر أهمية ما عرفته، ولم يُذكَر لها كيف ومتى تم تحديد الموعد... ثم نُشر خبر الجريمة وازدادت القصة وضوحاً شيئاً فشيئاً: لقد اتصلت الآنسة بمارش وطلبت شيلا ويب، وقد ذُكر أن الاتصال الهاتفي جرى في الساعة الثانية إلا عشر دقائق. لكن إدنا تعرف أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً إذ لم يرنّ هاتف المكتب في ذلك الوقت، فلا بدّ أن الآنسة مارتنديل كانت مخطئة إذن. إلا أن الآنسة مارتنديل لا ترتكب أخطاء بالتأكيد في نظر إدنا! وكلما فكرت إدنا في ذلك أكثر ازدادت حيرتها، فلا بد لها من أن تستفسر من شيلا حول ذلك، وعندئذ ستعرف شيلا.

ثم جاء الاستجواب وذهبت الفتيات جميعاً إليه وأعادت الآنسة مارتنديل قصتها عن الاتصال الهاتفي، وفي ذلك الوقت تماماً صارت إدنا على علم بالتأكيد بأن الشهادة التي أدلت بها الآنسة مارتنديل بهذا الوضوح وبهذه الدقة فيما يخص الوقت لم تكن شهادة صحيحة. وعندئذ بالذات سألَت إدنا الشرطي إن كان بمقدورها التحدث إلى المفتش، وأظن بأن الآنسة مارتنديل سمعَتها تسأله عن ذلك وهي تغادر محكمة التحقيق وسط حشد من الناس، ويُحتمَل أنها سمعت الفتيات وهنّ يمازحن إدنا بشأن حادثة حذائها دون أن يدركن ما تقود هذه الحادثة إليه. على أية حال لقد تعقّبَت الآنسة مارتنديل الفتاةَ نحو هلال ولبراهام... ولكنني أتساءل عن

سبب ذهاب إدنا إلى هناك!

قال المفتش هاردكاسل متنهداً: لمجرد أن تشاهد البيت الذي حدثت فيه الجريمة كما أظن؛ الناس يفعلون ذلك.

- حسناً، هذا ممكن تماماً. وربما قامت الآنسة مارتنديل بالتحدث إليها هناك وسارت معها على امتداد الطريق، فسألتها إدنا سؤالها، وعندها تصرفَت الآنسة مارتنديل بسرعة. كانت على مقربة من كشك الهاتف تماماً فقالت لها: "هذا مهم جداً، يجب عليك أن تتصلي بالشرطة فوراً، اتصلي وأخبريهم بأننا سنكون عندهم الآن"... ومن طبع إدنا أن تنفّذ ما يُطلب منها، فدخلَت الكشك ورفعت السماعة، فجاءت الآنسة مارتنديل من خلفها ولفّت الوشاح حول رقبتها وخنقتها.

- ولم يرَها أحد؟

هزّ بوارو كتفيه وقال: لقد كانت الساعة الواحدة تماماً، وقت الغداء، ومَن كان موجوداً من الناس في الهلال كان منشغلاً بمشاهدة المنزل رقم ١٩. لقد كانت فرصة انتُهِزت بجرأة من قِبَل امرأة جريئة معدومة الضمير.

كان هاردكاسل يهزّ رأسه مرتاباً ويقول: الآنسة مارتنديل! لا أفهم كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك!

- المرء لا يفهم في البداية، نعم، لكن هذا ما حصل. الآنسة مارتنديل... امرأة متحجّرة القلب عديمة القدرة على الإبداع.

بدت الدهشة على هاردكاسل وقال: عديمة القدرة على الإبداع!

- آه، نعم، تماماً، لكنها عالية الكفاءة ومخططة جيدة.

- ولكن لماذا؟ ما الدافع؟

نظر بوارو إليّ وهزّ إصبعه وقال: إذن فالتحدث مع الجيران لم يكن ذا جدوى بالنسبة لك، أليس كذلك؟ لقد وجدتُ مما نقلتَه لي جملة واحدة في غاية الدلالة. هل تتذكر أن السيدة بلاند -بعد أن تحدثتما عن العيش خارج البلاد- قالت إنها أحبت العيش في كراودن لأن لها أختاً هنا؟ لكن كان من المفروض أن لا يكون للسيدة بلاند أخت؛ فهي كانت قد ورثت ثروة طائلة من أخي جدّها الكندي الجنسية قبل عام لأنها كانت العضو الوحيد الباقي على قيد الحياة من أفراد أسرته.

انتصب هاردكاسل في جلسته منتبهاً وقال: إذن فأنت تظن...

استلقى بوارو إلى الوراء في كرسيه جامعاً أطراف أنامله معاً، وأغمض جفنيه نصف إغماضة وأخذ يتكلم بأسلوب حالم قائلاً: لنفترض أنك رجل عادي جداً وغير موضع شك وتعاني أوضاعاً مالية عصيبة، فتصلك رسالة ذات يوم من إحدى شركات المحاماة تفيد بأن زوجتك قد ورثت ثروة طائلة من أخي جدّها في كندا، وكانت الرسالة معنوَنة إلى السيدة بلاند. المشكلة الوحيدة هي أن السيدة بلاند التي تستلم الرسالة ليست هي السيدة بلاند الحقيقية، فهي الزوجة الثانية وليست الأولى. وتصوّر الغم، والغضب، والحقد... وعندئذ تأتي الفكرة: مَن ذا سيعلم أنها ليست السيدة بلاند الحقيقية؟ لا أحد في كراودن يعرف أن بلاند كان متزوجاً من قبل، فقد تم زواجه الأول قبل سنوات عديدة خلال الحرب عندما كان في الخارج، ويُحتمَل أن زوجته الأولى قد ماتت فيما بعد فتزوج في الحال تقريباً، ولديه الشهادة الأصلية للزواج ومستندات عائلية

مختلفة وصور لأقرباء كنديين هم الآن في عداد الأموات... ستكون المهمة سهلة كلياً، أو جديرة بالمجازفة على أية حال. فيجازفان وتثمر المجازفة، وتأخذ الإجراءات الرسمية مجراها... وها هما الزوجان بلاند غنيان مرفَّهان وقد انتهت كل متاعبهما المالية.

ولكن بعد عام يحدث شيء، فما الذي يحدث؟ أنا أعتقد أن شخصاً ما كان قادماً من كندا إلى هذا البلد، وأن هذا الشخص كان يعرف السيدة بلاند حق المعرفة بحيث لا يمكن أن يُخدَع بأي عملية انتحال للشخصية، وربما كان عضواً كبير السن من محامي العائلة أو أحد الأصدقاء المقربين... سوف يعرفها بالتأكيد. وربما فكّرا في طرق عديدة لتحاشي أي لقاء، فبإمكان السيدة بلاند أن تدّعي المرض ويمكنها السفر إلى الخارج، لكن أي شيء من هذا القبيل لن يأتي إلا بالشك، ولسوف يصرّ الزائر على مقابلة المرأة التي جاء ليراها.

- إذن فجريمة قتل؟

- أجل، والذي أتصوره أن أخت السيدة بلاند كانت هي العقل المدبر، فهي التي فكّرت وخططت للموضوع بأكمله.

- هل تعتقد أن الآنسة مارتنديل والسيدة بلاند أختان؟

- هذا هو السبيل الوحيد المعقول.

قال هاردكاسل: فعلاً، لقد ذكّرَتني السيدة بلاند بشخص ما عندما رأيتها. إنهما مختلفتان جداً في السلوك، هذا صحيح، لكن بينهما شبهاً بالفعل. ولكن كيف كانتا تأمُلان في الإفلات من ذلك؟ سوف يُفتقَد الرجل فتجري التحقيقات.

- إن كان هذا الرجل قد سافر إلى الخارج للترويح وليس

في عمل فإن مفكرته ستكون مبهَمة؛ رسالة من هنا أو بطاقة بريدية من هناك، وسيمضي بعض الوقت قبل أن يتساءل الناس عن أسباب انقطاع أخباره، وحتى يحين ذلك الوقت مَن تُراه سيربط بين رجل تم التعرف عليه ودفنه على أنه هاري كاسلتون ورجل غني كندي جاء زائراً للبلاد لم يرَه أحد في هذا الجزء من العالَم؟ لو كنت أنا القاتل لذهبت يوماً واحداً إلى فرنسا أو بلجيكا ورميت جواز سفر الرجل في قطار لكي يجري التحقيق في بلد آخر.

تململت دون أن أدري، فاتجه بوارو ببصره نحوي وقال: ما الأمر؟

- لقد ذكر لي بلاند أنه كان قد ذهب في رحلة قصيرة إلى بولون بصحبة فتاة شقراء.

- آه، هذا سيجعل قيامه بذلك أمراً طبيعياً، وهي إحدى عاداته بلا شك!

اعترض هاردكاسل قائلاً: لكن هذا كله ما زال مجرّد تخمين.

قال بوارو: لكن يمكن التحري بشأنه.

تناول ورقة ملاحظات من أمامه وأعطاها لهاردكاسل قائلاً: تفضل واكتب إلى السيد أندربي وعنوانه ١٠ حدائق أنيسمور، فقد وعدني بإجراء بعض التحريات في كندا. إنه محام دولي معروف.

- وماذا بشأن قضية الساعات؟

تبسم بوارو قائلاً: آه، الساعات، تلك الساعات الشهيرة! أظن أنك ستكتشف أن الآنسة مارتنديل هي المسؤولة عنها. وبما أن الجريمة كانت جريمة بسيطة كما ذكرت فقد أُخفيَت معالمها

بجعلها معقَّدة وخيالية. خذ مثلاً تلك الساعة التي أخذَتها شيلا ويب لتصليحها، هل فقدَتها في مؤسسة السكرتارية؟ هل اتخذتها الآنسة مارتنديل كأساس لعمليتها المتشابكة؟ وهل بسبب تلك الساعة جزئياً اختارت شيلا لتكون الشخص الذي يكتشف الجثة؟

انفجر هاردكاسل قائلاً: وتقول بأن هذه المرأة عديمة الخيال في حين أنها اخترعت كل هذا؟!

- لكنها لم تخترعه، وهذا هو الأمر الممتع للغاية. لقد كان هذا كله موجوداً في انتظارها! منذ البداية تتبعَت نموذجاً، نموذجاً كنت أعرفه، نموذجاً مألوفاً بالنسبة لي لأنني كنت لتوّي أطالع نماذج من هذا النوع. لقد كنت محظوظاً، وكما يعلم كولن فقد حضرت هذا الأسبوع مزاداً لبيع مخطوطات المؤلفين، وكان بينها بعض مؤلفات غاري غريغسون. كنت فاقد الأمل تقريباً، لكن الحظ حالفني مع هذين.

ثم سحب كتابين مهترئَين من جوار المنضدة وكأنه واحد من السحرة وقال: التفصيلات كلها موجودة هنا بين الكثير من مشروعات الكتب التي كان ينوي كتابتها. لم يعِش غريغسون ليكتب هذا، لكن الآنسة مارتنديل (التي كانت سكرتيرته) كانت على علم بكل ما يتعلق به، فاقتبسَته حرفياً ليلائم غرضها.

- لكن لا بد أن الساعات كانت تعني شيئاً في قصة غريغسون؟

- آه، نعم؛ فقد كانت ساعاته تشير إلى الخامسة ودقيقة واحدة والخامسة وخمس دقائق والخامسة وسبع دقائق... وكان ذلك بمثابة تشكيل لرقم الخزانة «٥١٥٤٥٧»، وكانت الخزانة مخفية وراء نسخة من لوحة «الموناليزا».

واصل بوارو كلامه بامتعاض قائلاً: وداخل الخزانة توجد جواهر العائلة المالكة الروسية. يا لها من كومة حماقات من أولها إلى آخرها! حسناً، لقد أصبحَت في متناول يد الآنسة مارتنديل بكل سهولة، وكل ما فعلَته أنها اختارت شخصيات محلية وتبنّت القصة التي تضعهم فيها. ما الذي ستُفضي إليه كل تلك الأدلّة المُبهرَجة؟ لا شيء أبداً. آه، نعم، لقد كانت ذات كفاءة. إن المرء ليتعجب... لقد ترك لها إرثاً، أليس كذلك؟ كيف وبأي سبب مات؟

رفض هاردكاسل الاهتمام بتاريخ الماضي، بل اكتفى بجمع الكراسات وأخذ من يدي ورقة الملاحظات التي كنتُ أحدق إليها خلال الدقيقتين الماضيتين مأخوذاً؛ فقد دوّن هاردكاسل عنوان أندربي دون أن يكلف نفسه عناء قلب الورقة. لقد كانت الورقة مقلوبة على قفاها وقد برزت بشكل خفيف (بسبب الطباعة) حروف الكلمات التي كُتِب بها عنوان الفندق. وبعد أن أمعنت النظر إلى الورقة علمت أيَّ مغفل كنت!

قال هاردكاسل: حسناً، شكراً لك يا سيد بوارو؛ لقد منحتَنا شيئاً نفكر فيه بالتأكيد، أما إذا كان سيسُفر عن شيء...

- سأكون مسروراً للغاية إن كنت قد أفدتكم بأي شيء.

كان بوارو يلعب لعبته بتواضع، في حين قال هاردكاسل: ينبغي عليّ أن أتحقق من نقاط عديدة.

- أجل، بالطبع.

ألقيت تحية الوداع واستأذن هاردكاسل بالخروج، فحول بوارو انتباهه إليّ وارتفع حاجباه قائلاً: آه، حسناً، ما الذي يزعجك؟ أنت تبدو كمن رأى عفريتاً؟

- لقد رأيت كم أنا مغفل.

- حسناً، هذا يحدث للكثيرين منا، لكنه لا يحدث لهيركيول بوارو!

اضطُررت إلى مهاجمته قائلاً: قل لي شيئاً واحداً فقط يا بوارو؛ لو كنتَ قادراً على القيام بكل هذا وأنت جالس في كرسيك في لندن ويمكنك إحضارنا أنا وديك هاردكاسل عندك هناك كما تدّعي، فلماذا جئت إلى هنا أصلاً؟

- لقد أخبرتك... تجري الآن بعض الترميمات في شقتي.

- كانوا سيُعيرونك شقة أخرى أو كان يمكنك النزول في فندق ريتز حيث ستشعر براحة أكبر مما تجده في فندق كرليو.

قال هيركيول بوارو: بلا أدنى شك القهوة هنا رائعة... نعم، إنها القهوة.

قلت بنفاد صبر: حسناً يا بوارو، هيا، قُل لي لماذا.

انفجر هيركيول بوارو غاضباً وقال: حسناً، ما دمتَ أغبى من أن تخمّن ذلك فسوف أخبرك. السبب هو أنني إنسان، ألستُ كذلك؟ يمكنني أن أكون بمثابة الآلة إن كان ذلك ضرورياً، ويمكنني أن أستلقي إلى الوراء وأفكر... يمكنني أن أحل المسألة هكذا، لكنني إنسان كما قلت لك، والناس يهتمون بالمشكلات. التفسير واضح وضوح الجريمة؛ لقد جئت إلى هنا بدافع الفضول البشري.

قالها هيركيول بوارو ببعض الكبرياء.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

مرة أخرى كنت في هلال ولبراهام أتقدم باتجاه الغرب، وتوقفت أمام بوابة المنزل رقم ١٩ ولكن لم يخرج أحد من البيت صارخاً هذه المرة. كان أنيقاً وهادئاً، فتوجهت نحو الباب الأمامي وقرعت الجرس، ففتحته الآنسة بيمارش. قلت: أنا كولن لامب، أتسمحين لي بالدخول والتحدث معك؟

- بالتأكيد.

سبقتني إلى غرفة الجلوس وقالت: يبدو أنك تُمضي الكثير من الوقت في هذه الأنحاء يا سيد لامب؟ لقد عرفتُ أنك لستَ مرتبطاً بالشرطة المحلية.

- الذي عرفتِهِ صحيح، وأحسب أنك عرفتِ مَن أكون في أول يوم تحدثتِ فيه إليّ.

- لستُ متأكدة تماماً ممّا تقصده بذلك.

- لقد كنتُ شديد الغباء يا آنسة بيمارش؛ لقد جئت إلى هذا المكان بحثاً عنك فعثرتُ عليك في أول يوم من وجودي هنا، ولم أعرف أنني عثرت عليك!

- ربما شغلَتك جريمة القتل؟

- كما تقولين، وقد كنت غبياً بما فيه الكفاية حتى نظرت إلى ورقة مقلوبة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن اللعبة انتهت فحسب يا آنسة بيمارش؛ فقد وجدتُ المركز الذي كنت أبحث عنه حيث يتم التخطيط. أنتِ تحتفظين بالسجلات والمذكرات المهمة بطريقة برايل للتنقيط، فالمعلومات التي يحصل عليها لاركن يتم إيصالها إليك، ومن هنا تُرسَل إلى وجهتها الأخيرة بواسطة السيد رامزي الذي كان يعرج عليك عند الضرورة قادماً من بيته إلى بيتك ليلاً عن طريق الحديقة، وقد سقطت منه قطعة نقدية تشيكية في حديقتك ذات يوم.

- كان ذلك تهاوناً منه!

- نحن جميعاً نتهاون في وقت أو في آخر. إن تغطيتك جيدة جداً؛ فأنت كفيفة وتعملين في معهد للصغار المعاقين وتقومين بحفظ كتب الأطفال بطريقة برايل في بيتك كأمر طبيعي تماماً. أنت امرأة ذات ذكاء وشخصية غير عاديين، ولا أدري ما هي القوة الدافعة التي تحفزك.

- إن شئت فقُل إنني متفانية.

- أجل، لقد فكرتُ في أن الأمر يمكن أن يكون كذلك.

- ولماذا تقول لي كل هذا؟ يبدو الأمر غريباً.

نظرتُ إلى ساعتي وقلت: أمامك ساعتان يا آنسة بيمارش، فخلال ساعتين سيأتي عدد من أفراد الشعبة الخاصة إلى هنا ليتولوا...

- لا أفهمك! لماذا تسبق جماعتك إلى هنا لتعطيني ما يشبه التحذير؟!

- إنه تحذير بالفعل. لقد جئت هنا بنفسي وسأبقى هنا حتى تحضر جماعتي لأضمن أن ما من شيء سيغادر هذا البيت ما عدا شيئاً واحداً؛ أنت بالذات. لديك ساعتان للانطلاق إذا اخترتِ الرحيل.

- ولكن لماذا؟ لماذا؟!

قلت برَوِيّة: لأنني أرى فرصة لأن تصبحي حماتي عمّا قريب!

سادت فترة صمت، ثم نهضَت الآنسة بيمارش وذهبَت إلى النافذة. لم أرفع عينَي عنها، ولم تكن عندي أوهام عن ميليسنت بيمارش وما كنت لأثق فيها قيد أنملة. كانت عمياء، ولكن حتى المرأة العمياء يمكنها أن تصطادك إن لم تكن يقظاً. لن يعوقها عماها عن غرز مسدس في ظهرك لو حانت لها الفرصة.

قالت بهدوء: ما الذي يجعلك تظن... تظن أن المسألة قد تكون هكذا؟

- الأعيُن.

- لكننا لسنا متماثلتين في الشخصية.

- هذا صحيح.

كاد كلامها أن يتسم بالتحدي وهي تقول: لقد فعلتُ ما بوسعي من أجلها.

- هذه مسألة رأي، فبالنسبة لك تأتي المصلحة أولاً.

- هذا هو ما يجب أن يكون.

- لا أوافقك.

ساد الصمت ثانية، ثم سألتُ: أكنتِ تعلمين في ذلك اليوم مَن تكون؟

- ليس قبل أن أسمع باسمها، لقد كنت أتابع أخبارها دائماً.

- لم تكوني قاسية قط بقدر ما كنتِ تتمّنين.

- هذه دعابة سخيفة.

نظرتُ إلى ساعتي مرة أخرى وقلت: الوقت يمضي.

عادت من النافذة وتخطّت المكان حتى المنضدة وقالت: عندي صورة لها وهي طفلة.

كنت خلفها وهي تفتح الدرج، ولم يكن ما فيه مسدساً بل كانت سكيناً صغيرة خطيرة جداً! أطبقتُ يدي على كفيها وسحبتُها منها قائلاً: قد أكون ناعماً، لكنني لست مغفلاً.

فتحسَست كرسياً وجلست دون أن تبديَ أي لون من الانفعال وقالت: لن أستغل ما عرضتَه علي؛ وما الفائدة؟ سأبقى هنا حتى يأتوا، فالفرص موجودة دائماً حتى في السجن.

- تقصدين فرصة للارتداد؟

- اعتبرها هكذا إن شئت.

جلسنا هناك، يعادي كل منا الآخر لكن بتفهم. قلت لها: لقد استقلتُ من الخدمة وسوف أعود إلى عملي القديم في الأحياء البحرية. ثمة وظيفة متاحة في إحدى الجامعات في أستراليا.

- أعتقد أنك راجح العقل، فطباعك لم تكتسب ما يتطلبه هذا العمل.

فكرتُ في كلمات هيركيول بوارو فقلت: أنا راضٍ بكوني إنساناً.

* * *

رسالة من مفتش التحري هاردكاسل إلى السيد هيركيول بوارو:

عزيزي السيد بوارو،

تتوفر لدينا الآن حقائق أشعر بأنك سترغب في معرفتها: لقد غادر كندا متوجهاً إلى أوروبا رجل يُدعى السيد كوينتن دوغاكلان من أهالي كيبيك قبل أربعة أسابيع تقريباً، وليس لديه أقارب وخططه للعودة غير محدَّدة، وقد عثر صاحب مطعم صغير في بولون على جواز سفره فسلّمه إلى الشرطة، ولم يطالب به أحد حتى الآن.

كان السيد دوغاكلان صديقاً قديماً لعائلة مونتريزور الساكنة في كيبيك، وقد مات عميد تلك العائلة السيد هنري مونتريزور منذ ثمانية عشر شهراً تاركاً ثروته الضخمة لقريبته الوحيدة الباقية على قيد الحياة السيدة فاليري حفيدة أخيه زوجة غوازيا بلاند من أهالي بورتلبري بإنكلترا. وقد تولت شركة محاماة كبيرة في لندن متابعة أعمال الأوصياء الكنديين، وقد انقطع كل اتصال بين السيدة بلاند وعائلتها في كندا منذ زواجها الذي لم تُقرّه عائلتها. لقد ذكر السيد دوغاكلان لأحد أصدقائه أنه كان ينوي المرور بأسرة بلاند في أثناء وجوده في إنكلترا لأنه كان شغوفاً جداً بفاليري.

الجسد الذي تم التعرف عليه على أنه لهنري كاسلتون حتى الآن هو في الحقيقة السيد كوينتن دوغاكلان، وقد وُجدت ألواح خشبية مخزونة في ساحة بناء السيد بلاند، ومع أنها طُليت بتعجل إلا أن عبارة «مصبغة سنوفليك» قد ظهرت عليها بوضوح بعد أن عالجها الخبراء.

لن أشغلك بتفصيلات أقل أهمية، لكن النائب العام يرى إمكانية إصدار مذكرة توقيف بحق غوازيا بلاند. وكما خمّنتَ فإن الآنسة مارتنديل والسيدة بلاند أختان، وعلى الرغم من توافقي مع وجهات نظرك حول ضلوعها في هذه الجرائم إلا أن الأدلة المقنعة ستكون صعبة المنال. إنها امرأة خارقة الذكاء بلا شك، ومع ذلك فأنا أعلق بعض الآمال على السيدة بلاند؛ فهي من ذلك النوع الواشي من النساء.

إن وفاة زوجة السيد بلاند الأولى خلال الهجمات المعادية في فرنسا وزواجه الثاني من هيلدا مارتنديل في فرنسا أيضاً يمكن إثباته بوضوح كما أعتقد، رغم أن الكثير من الوثائق قد تلف في ذلك الوقت طبعاً بسبب الحرب.

لقد كان من دواعي سرورنا البالغ أن نلتقي بك في ذلك اليوم، وأجد لزاماً عليّ أن أشكرك على آرائك المفيدة جداً التي عرضتَها في ذلك اللقاء. آمل أن تكون الترميمات والتحسينات في شقتك بلندن قد نالت رضاك.

المخلص: ريتشارد هاردكاسل.

* * *

رسالة أخرى من ريتشارد هاردكاسل إلى هيركيول بوارو:

أنباء سارة: المرأة المدعوّة بلاند انهارت واعترفت بكل شيء، وهي تُلقي باللوم كلياً على أختها وزوجها، فهي لم تدرك ما كانا ينويان القيام به إلا بعد فوات الأوان، وقد ظنت أنهما كانا سيقومان بتخديره فحسب لكي لا يتمكن من معرفة أنها كانت المرأة الخطأ. حكاية ممتعة! أنا مقتنع تماماً أنها لم تكن المحرّك الرئيسي في هذه الجريمة.

الباعة في سوق بورتوبلو تعرّفوا على الآنسة مارتنديل على أنها السيدة الأمريكية التي اشترت اثنتين من الساعات! وتدّعي السيدة ماك نوتن الآن أنها شاهدت دوغاكلان في عربة بلاند للنقل وهي تدخل مرأب بلاند. هل فعلَت حقاً؟

صاحبنا كولن تزوج تلك الفتاة، ولو سألتني عن رأيي فإنه مجنون حتماً!

مع أطيب تمنياتي.

المخلص: ريتشارد هاردكاسل

* * *

-تمت-